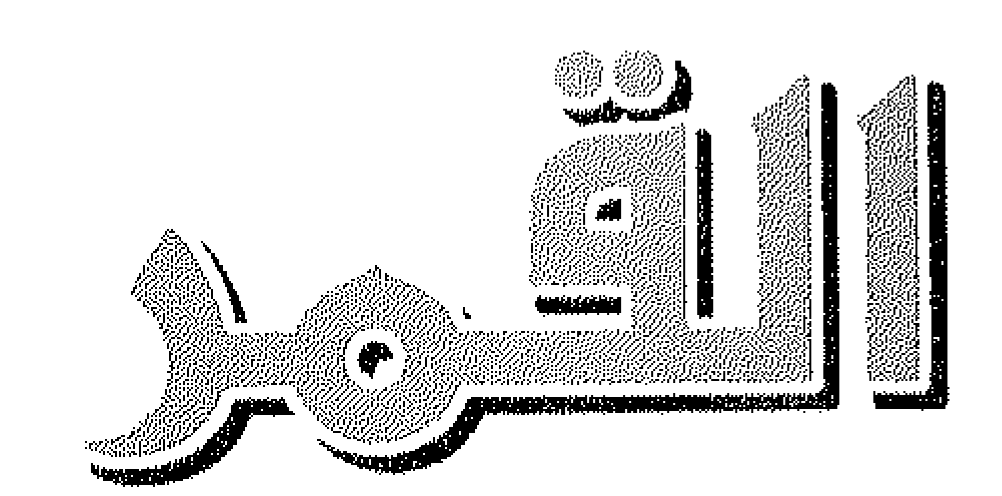
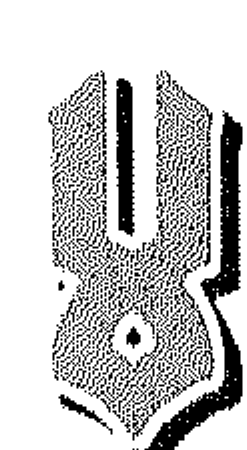
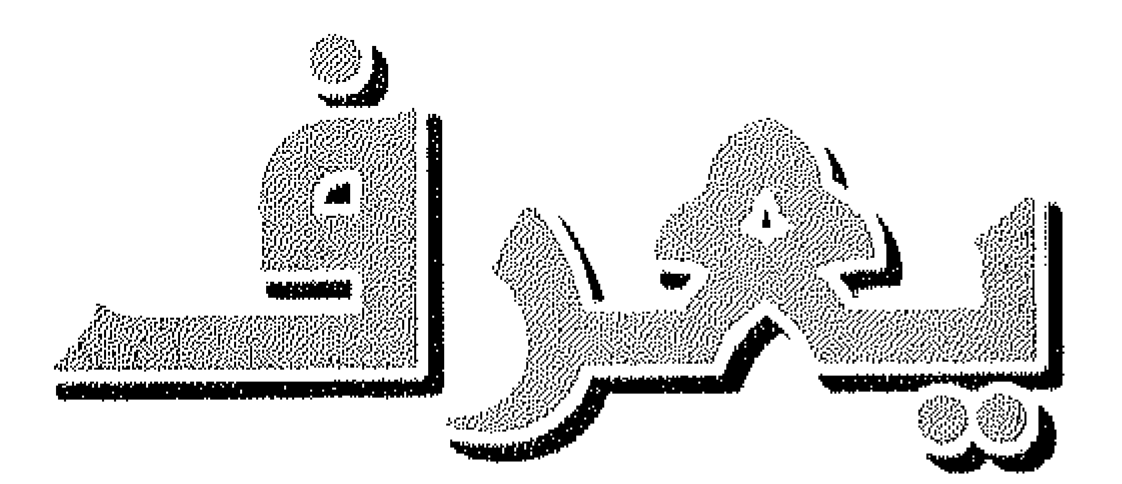
روايات عالمية 2000

نيكلس رودستروم

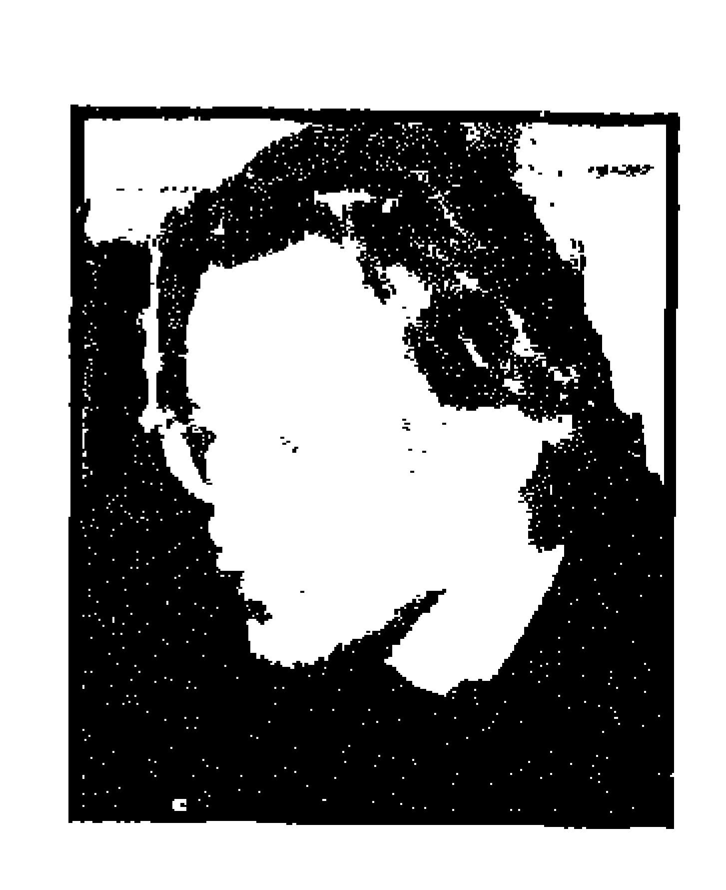


ترجمة : **يوسف طبّاخ**

رواية

نيكلس رودستروم



●- ولِدَ الكاتب السويدي « **نيكلس رودستروم** » في « **استوكهولم** » سنة 1953 .

●- أصدر عشرات المجموعات الشعرية ، وعدداً من المسرحيات .

●- وهو روائي معروف،ومن أشهر رواياته :

- ● - « **القمر لا يعرف** » . منشورات مركز الإنماء الحضاري بحلب 1999
- ● - « **بينما الزمن يفكّر في أمور أخرى** ». منشورات دار الشمال في السويد 1997.
- ● - « **حافلة على درب التبّانة** » . قيد الإصدار .
- ● - « ملاك بين أطياف » .
- ● - « كما تشاء » .
- ● - « لكن حدث في مصر » .
- ● - « أقلب ساعتك الرملية » .

●- وروايـاته الثلاث الأولى تشكّل ثلاثية روائية ، ترجمها إلى العربية الأستاذ « **يوسف طبّاخ** » .

القمر لا يعرف..

القمر لا يعرف

الناشر: مركز الإنماء الحضاري ـ حلب

دار أفنطه ـ استوكهولم

الطبعة الأولى : 1999

لوحة الغلاف للفنان العالمي:

فان غوخ

CEC

مركز الإنماء الحضاري

CENTRE_ESSOR ET CIVILISATION

للدراسة والترجمة والنشر

نيكلس ردستروم

القمر لا يعرف

ترجمها عن السويدية

يوسف طبّاخ

Original Title: MÅNEN VET INTE

1987 القمر لا يعرف AL Qamar la ya^{c}rif

AVANTA PUBLICATIONS
STOCKHOLM – SWEDEN
1998

I.S.B.N: 91- 973188 – 2 – 5

إهـــــداء المـــــؤلف

إلى لينا وأندرشْ Lena and Anders

إهـــــــداء المترجم

إلى أمي

مَنْ مايزالُ الشّوقُ إليها يُسْهدُني أحياناً
ومَنْ لم تخلف لي صامتاً أو ناطقاً
بلْ كلمات تؤنِسني بعد رحيلها الأبدي.

يوسف

1

أنا أعرف أنه القمر لكن أمـي تقـول إنـها السِّنُ المتقدمة وذلك المرض المُتلِف الذي أقعد جَدَّتي – أم أبي – في السرير ، في البداية ، وأَصْمَتَها آخر المطاف. وأنـا أُقِرُّ أنه كـان مرضـاً وسـناً متقدمـة إذْ أعـرف أن البشـر يموتـون مـن المـرض والسـنّ المتقدمة . لكن الأمـر الوحيـد الـذي أجـزمُ فيمـا يتعلـق بمـوت جَدَّتي ، علاوة على ذينك الأمرين : المـرض والسـن المتقدمـة ، العتمة والضوء ، كل شيء وعدمـه ، أنـه كـان القمـر. وأَزْمَعُ رفض ادّعاء أيّما شخص بأن موتها كان لسبب آخر .

عندمـا تُوُفِيَتْ جَدَّتـي تجـوّل القمـر نـازلاً عـبر غابـات الغيـم ولألأة النجـوم ماراً بسفينة قراصنـة كبيرة من سنديـان سَرِبٍ صَارٌ ، كانت ترسـو في « ريدّارفيْاردِن » أو الفضاءِ أو أيّما مكان . كانت سِلْسِلَةُ مرساة السفينة تبعث ضياء باهتاً مثل ضياء ذلك الخـاتم الفضـي ذي الجمجمـة الصغـيرة الـذي يمكـن شراؤه من محل « بوتريكس Buttericks » . وكيلا تتَقَصَّفَ السلسلة ليـلاً كـان على شخص ما أن يُعْنَى بها دائماً .

بعد ذلك مضى القمر قُدُماً عبر شـوارع المدينة وحديقـة المستشـفى وكـل شيء وعدمه ، وفي آخر المطاف دخل الجنـاح الثـامن . ومـا أقولـه ليـس بخيـال صبي صغير ، فأنا في الرابعة عشرة من عمـري ولسـت طفـلاً في القِمـاط . القمـر

ليس شيئاً اختلقته. القمر يضرب ، فعلاً ، في الأرض بوساطة الليل. القمر يُشَرِّطُ شراع سفينة قراصنة البحر المترقرق بخضرة باهتة.

بالتأكيد لم تكن سفينة قراصنة البحر من ضمن الأوائل بل كانت قبلها تلك الساحرة التي وقفت متربصة قرب عصا مكنسة في ممر الخدمة . وكانت هذه الساحرة تتعهد بإنجاز الأشياء والأمور التي لم تُنْجِزْ ذاتها تلقائياً. ولكن في البدء كانت العجوزان في الدُكَيْنَةِ الصغيرة التي كانت في قَبضَتَيْ جَدّتي . كانت الدُكَيْنَةُ تُفْتَحُ هنيهات قليلة يومياً وإن كانت لدى المرء رغبة في شراء موز فَعَلَيْهِ الإسراع قبل فوات الأوان .

وبالطبع كان جدي ما يزال حياً وقتئذ ، لذا يكاد ما أقوله أن يكون من حكاية أخرى . كان مريضاً ولكأنّه في قرن آخر ، داخل ظل قد نسي الجميع اسمه ، وداخل هذا الظل استلقى جدي وسعل وشرب ماء صودا وقَلَّبَ أوراقاً بيضاء لم يسطّر عليها أحَدٌ شيئاً . ذَاتَ مرة رأيته مستلقياً في السرير يقرأ جريدة يومية كبيرة ذات صفحات بيضاء تماماً. لربما كان ذلك الظل الذي يستلقي جدي في داخله قد أتى على كل كلمات الجريدة . لا أعرف ، لكن الأوراق كلّها قرب سريره كانت غير مكتوبة .

ظَنُّوا طبعاً أنني لا أدرك شيئاً . ظَنُّوا طبعاً أنني لا أدرك أن جدي يحتضر . لم يصيبوا في ظنّهم ، ومع ذلك لم يكونوا مخطئين كلياً. كانوا مخطئين عندما ظَنُّوا أنني لم أعرف أنه يحتضر . ولكنهم لم يكونوا مخطئين كلياً في أنني لم أدرك شيئاً. لم أكن أعرف أن جدي قد عاش أصلاً .

لم يحيَ جدي كما لم يكن ميتاً . كان ينتسب ، بكل بساطة ، إلى حكاية أخرى ، إلى كتاب حكايات آخر جلس صبي ضجِرٌ وقَلَّبَ صفحاته . كان ثمّة صور صغيرة لفرسان وسيدات بدينات بخربشات على الهامش وكان جدي هو الوحيد مَنْ يعرف قيمة هذه الصور، والوحيد الذي كان في وسعه ، بعد جدي ، الاكتراث بتلك الصور هو صبي يشبه جدي . كان ذلك الصبي هو من أعطى جدي كل تلك الأوراق الفارغة ، وكان جدي من أجل هذا الصبي ما يزال

مستلقياً ويقرأ .

أَلِفْتُ الدخولَ على غرفة جدي وشربَ قليلٍ من ماء صودا خاصــة بـه . لم أكن ، في الحقيقة ، أستسيغ مذاقها. كان مذاقها يبدو لي مثل مــذاق غبـار ، زد على ذلك أنها كانت تُوخِزُ وتدغدغ اللِّثَة . إلاّ أنني كنت أشـرب قليـلاً منـها أشربها سوية مع جدي . استلقى جدي في الفراش مع كـل الأوراق غـير المكتوبة والجرائد والكتب ذات الصفحات الفارغة . لم يكن هناك ما أفعله عندمــا أدخـل على غرفة جدي غير شرب ماء الصودا الخاصة به والتي مذاقها غبار ولاشيء.

ابتسم جدي ، وقال :

– اشربْ ، اشرب !

وبادلته الابتسامة بمثلها، ودغدغت الماء لِثَتي وانْبَعَثَتْ وخـزات طفيفـة في أنفي . أومأت برأسي وارتشفت رَشفة مرة أخرى .

قال جدي مرة أخرى :

- اشرب !

كان هذا كل شيء . بعد ذلـك ولجت غرفـة الجلـوس حيـث كـان كـل الكبار يجلسون . تقدمت إلى جَدَّتي ونقرت بأصابعي بخفّة على إحـدى يديـها . وبينما هي ما تزال تقول شيئاً إلى أحد الكبار ، أَقْصَتِ السـيجارة ذات المِبْسَمِ الأسود من يدها وعقدتْ قبضتيها أمام وجهي لنقوم بلعبة الدُكَيْنَةِ والعجوزين . عندئذ نقرتُ مرة أخرى ، وتَغَيَّرَ وضعُ قبضتيها ومن ثم فتحت تلكمــا العجـوزان الدُكَيْنَةَ . وكان على إحداهما أن تنطلق إلى أســفل القبـو كـي تحضـر المـوز. وبقيت الثانية أمام دكة البيع وتحدثت قليلاً. كان من عادتها المَيْلَ بجذعــها مـن فوق الدُكّــة نحوي ، مستندة علـى مرفقيـها ، وترسـل نظراتـها شـبه السـاهمة في الغرفة . وكان يصادف أن تسأل ما اسمي مثلاً.

وعندئذ كنت أجيب :

– كريستيان .

كنت أذكر اسمي الحقيقي دائماً . إذْ لم يكن الكذب ليفلح على المسِنّات

فيما يتعلــق بالاسم ، ولـو كـذب المـرء لانخرط ، في الحـال ، أحـد الكبـار في الضحك . كانت جَدَّتي لا تضحك ، لكن أحد الكبار كان يفعل ذلـك وعندئـذ يصبح الكذب فيما يخص الاسم إثماً .

و بعد ذلك كان يصادف أن تسأل إحدى العجائز عن عمري .

وكنت أقول :

- ثلاث سنوات .

ولم يكن ليفلح الكذب فيما يتعلق بالعمر أيضـاً . ولـو كذبتُ لأضحـكَ هذا أحد الكبار .

بعد ذلك عادت العجوز الأولى بصندوق موز من القبـو. كـان الصنـدوق ممتلئاً بالموز وثقيلاً جداً . سألتا كم موزة أريد.

فقلت :

- خمساً .

كان في وسعي الحصول على أي عدد من الموزات ، ولذا كــان سـيان إن قلت خمساً ، وعندما كنت أحصل على موزاتي كنت أدفـع ثمنـها . كـان ثمنـها على الأغلب ، بغض النظـر عـن عددهـا ، كرونتـين تقريبـاً. وبعـد ذلـك تُغْلَـقُ الدُكَـيْنَةُ وتأخذ جَدَّتـي مِبْسَـمَ سيجارتها مـن المنفضـة ثانيـة . كـانت المـوزات خفيفات مثل لاشيء . كانت خفيفات إلى درجة أنني نسيت أن آكلها أحياناً.

كانت المنفضة أمام جَدَّتي ، حيث وضعت مِبْسَـمُها ، مصنوعـة مـن فضـة بيضاء لمّاعة كالمرآة . كان قعرها أسود ، وكنت أتخيلـها أحيانـاً مثـل بحـر أو بحيرة سطحها لماع كالمرآة وما دونـه ليـس سـوى عَتَمَـة . وكـانت النقـوش علـى المنفضة مستقاة فعلاً من بحر أيضاً. كـانت نقـوش سـمكات سـمينات منتفخـات ونقش حصان مُجَنَّحٍ جَمَحَ من عباب أمواج مُزْبِدَةٍ وعلى متنها رجل مُلْتَـحٍ . ولـو أغمضتُ عينيَّ وتحسست بأناملي تلك النقوش لأحسست بها وكأنها حَيَّة .

كان لدى جَدَّتي منافض أخرى أيضاً . كانت أصغر ومصنوعة من معــدن غريب كامد . كان كل منها ثقيلاً إلى حَدٍّ كبير. ولكـي أرفـع إحداهـا ، فقـد

كان يَتَعَيَّنُ عليَّ استخدام يديّ الاثنتين . كان رماد السجائر يُكْمِدُ لون المنـافض التي يتوسطها نقش صغير أكثر مما هي عليه أصلاً. وكان على إحداها حصـان مُجَنَّح مثل ذلك الذي على المنفضة الكبيرة . وكـان علـى معظـم المنـافض حـرف يبتدئ اسمَ جَدَّتي وجدي واسمي واسمَ أمي . كنت أُمَيِّزُ ذلك الحرف ، لكننـي لم أكن متأكداً منه .

كان الكبـار يدخنون دائماً في بيت جَدَّتـي وجـدي طالمـا هـو علـى قيـد الحياة . وكانوا يدخنون وكأنما ليس بينهم من يرغب في أن يظهر عليـه أن جـدي يحتضر. وكان يصادف أن أحصل ذات مرة ، عندما يكـون أبـي حـاضراً ، علـى عود ثقاب أُطْفِئ لتوه فأضعه بين شفتيَّ بينما طرف الثقاب الذي ما يزال الدخان يفوح منه إلى الخارج ، وبذلك كنت أحس وكأنما سيجارة صغـيرة بـين شـفتيَّ . سيجارة صغيرة لصبيان صغار في الثالثة من عمرهم . كان في وسـعي حشـر عـود الثقاب بين ثَنِيَتَيَّ العلويتين وبذلك أستطيع التكلم على الرغم من أنّ العود يكون بين شفتيّ.

ليس ما أتذكره الآن لأنني كنت معتاداً على الإفراط في الحديـث ولكننـي أتذكره لأنه بدا لي ، وقتئذ ، وكأنمـا كـان هنـاك كثـيرٌ غـيري ممـن لديـهم مـا يتحدثون عنه بإسهاب . كان يطيب لي سماع صـوت الكبـار وهـم يتحدثـون . ليس الإنصات إلى أحاديثهم فحسب ، بل سماع أصواتهم أيضاً ، وكانت تسنح لي بذلك فرصة التقدم إلى النوافذ والنظر إلى رُبْوَةِ المرصد تحت المطـر أو جَمَـدِ الثلج أو ما اتفق وجوده آنذاك ، وبعد ذلك كنـت أقـف هنـاك وأصيـخ السـمع لأصواتهم فقط . كان الباب المؤدي إلى غرفـة نـوم جـدي ، حيـث كـان يجلـس ويقرأ أَطْراسَه الفارغة ، موارباً. لربما كان يحب سماع أصواتـهم . لربمـا كـانت تطيب له معرفة وجودهم .

كان المرء يشرب الشاي في بيت جَدَّتي دائماً. وكان من عـادتي الاقـتراب منها وطلب « سمكة شاي » فتعطينـي ، بعـد ذلـك ، ملعقـة فوقـها قطعـة سـكر غُمِرَتْ بالشاي الساخنة . كانت تلقي قطعة السكر في الكوب وتتركها لتتـوارى في

الشاي مع الحليب ، ومن ثم تضع نظّارتها الأحادية الطرف « المونوكل » على إحدى عينيها وتنظر بشغف عبر طرف الكوب وتقول بينما تحرك الشاي بالملعقة :

- ترى هل ستعلق سمكة في الشِصِّ اليوم ؟

وكانت تعلق سمكة في الشِصِّ على الفور تقريباً. كانت ترفع الملعقة وتسحب قطعة السكر المشبعة بالشاي وتدعها تقطر قبل أن تطلب مني فتح فمي . كنت أحس بطعم قطعة السكر وهي تنحلُّ على لساني دافئة ، وأحسّ أيضاً بالشاي الذي يَسُحُّ منها حلواً ولذيذاً .

كانت تقول وقد أقصت الكوب من يدها :

- « سمكة شاي » !

حكت لي عجوز ، في زمن لاحق ، أن جَدَّتي كانت أول مُدَخِّنةٍ قابلتها طوال حياتها ، والتي حكت لي هذا قالت إن الجميع كانوا يعتقدون أن منتهى أناقة المرأة هو التدخين . عجيب أن يتصور الإنسان ذلك . في هذا الزمن يدخن الجميع ، رجالاً ونساءً ، صبياناً وبناتٌ . وبالمناسبة ، في الوقت الحاضر ، يُقلل الناس من التدخين باطّراد كما لو أن الزمن تَحَوَّلَ مرة ومن ثم تَحَوَّلَ مرة أخرى . لكن جَدَّتي كانت غُرَّةُ المُدَخِّنات ، وهذا أمر خارق أيضاً .

كانت كل المفروشات في شقة جدتي ذات أنس وتبعث الدفء في النفس بشكل ما وتنضح برائحة سجائر أراها طيبة ، وكان في وسعي أن أهجع على الأريكة ذات المساند الغريبة التي تشبه زلاجة ماء وموجة تصلبت على سطح البحر وأنا أجلس هناك وكأنني لست وحيداً .

لا أقصد أن هذا عندما كان الكبار موجودين ، إنما عندما كنت فعلاً وحدي . عندما كانت جَدَّتي تُعينُ جدي على النهوض لزيارة المرحاض مثلاً ، أو تذهب إلى المطبخ لجلب شيء. وعندما كنت أجلس على الأريكة كان ذلك وكأنني لم أكن وحيداً إطلاقاً ، وكأنما كانت الأريكة جليسي . كنت أجلس وأنظر إلى الكتب في المكتبات الداكنة في طرف الغرفة المقابل ، وإلى جذر الشجرة الطويل ، ذلك المنتصب على إحدى الطاولات الصغيرة ، الذي كان يبدو

مثل رجل يَسْتَبْصِرُ في الريح . كنت أنظر إلى تلك القطعة الخشبية المتدلية على طرف إحدى المكتبات ، التي تشبه رأس كلب .

كانت تصويرة من الجِبْس معلقة فوق رأسي تُمَثِّلُ رجلاً وامرأة تحت شجرة فواكه ، وكنت أحسب أنهما آدم وحواء حتماً ، إلا أنني لم أفكر ، آنذاك ، في غير أنهما عاريان . كانت المرأة تجلس على مقعد أو جذل نصف جلسة بينما هو ينحني بجذعه نحوها كما لو أنه سيأخذ منها شيئاً. لابد أنها كانت التفاحة . بعد ذلك كانت جدتي تعود إليَّ لتسألني إن كنت سئماً .

كان ثمة قسم تحرير مجلة أطفال يشغل الغرفتين المقابلتين ، في البهو ، عند مدخل الشقة . ومَنْ هناك كنَّ مدخنات أيضاً . كان العاملون هناك نساء فقط وكنَّ ، كلهن ، يدخنَّ . اعتقدت لفترة أن من المفروض ألاَّ يدخن المرء في قسم تحرير مجلة أطفال ، ولكنني بدأت ، فيما بعد ، أعتقد أن هذا الأمر لا يمكن البتُّ فيه ، وكانت السيدات اللاتي يعملن في المجلة يأتين إلى جدتي ويشربن الشاي معها أحياناً. وكان من عادتهن آنئذ إحضار مجلة لي . كنت أتصفحها قليلاً ، لكنني كنت أرى أنها كثيرة الكلام قليلة الصور.

كان أبي وشقيقه ، وهما طفلان ، يسكنان في الغرفة نفسها التي جعلتها السيدات قسماً لتحرير المجلة . وكنت ، على نحو ما ، أعتقد دائماً أنها ما تزال غرفتهما ، وكأن من تحررن المجلة كنَّ هناك بشكل مؤقت لا غير . تقريباً مثلما تقول زائرة إنها ستبقى هنيهة وتجلس على حافة الكرسي وكأنها على أهبة النهوض طوال الوقت ، وأتمنى لو يتصرف كل الكبار على هذا النحو عندما يكونون في غرفة أطفال : أن يكونوا على استعداد لمغادرة الغرفة عندما تقتضي الحاجة .

كان في مطبخ جَدَّتي مجلى رخامي أبيض كالجليد ، ولم يكن يعوز المرء إلا وضع كأس ماء عليه هنيهة حتى يصبح بارداً كُلِّياً. درجتُ على تحسس لوح الرخام بأناملي . كنت أشعر كما لو أنني أَمَسُّ شيئاً أكبر مما يتاح له أن يكون . فكرت ، ذات مرة ، أن لوح الرخام مثل شيء يَحْلُمُ به الحليبُ . وما

كنت أعرف ما أعني بهذا التفكير . إلا أنني عندما كنت أصغر سناً كنت ، بين حين وآخر ، أعيد ترتيب التفكير في الأشياء والأمور بهذه الطريقة . كثيراً ما قَدَّرتُ أن كل شيء كان شيئاً آخر ، وكثيراً ما حَسِبْتُ أنه من المحتمل أن يكون كل شيء ، على أقل تقدير ، شيئاً آخر . كان كل شيء يُبْطِنُ أحلامه الخاصة ، ولم يكن المرء بحاجة لرؤيتها فالأمور والأشياء تحملُ في طَيَّاتِهَا كُلَّ الأحلامِ ، ولكن لو تَبَصَّرَهَا الإنسان لاتَّسَعَ العالم أَمْلَةً .

إن حدثَ وفكّرتُ ذات مرّة فإنّي لا أفكّر فقط في أنّ لديَّ حانوتاً لبيع الخبز في حجيرة فرن جدّتي السفلية . كما لا أفكر في أن لديّ على تلك السجادة الصغيرة ، أمام المدفأة الحجرية في غرفة الطعام ، كلباً نائماً دائماً. مثل هذه الأفكار مجرد ألعاب يختلقها الأطفال . إنما أفكر بالضبط في مثل ذلك الجذر المنتصب على إحدى طاولات الأرائك الصغيرة في غرفة الجلوس . لقد تَقَمَّصَ صورة رجل نحيل يقف مستبصراً في الريح . طبعاً كان هناك من ساعده على ذلك ، مسحه ولَمَّعَه قليلاً. إلا أن جذر الشجرة ذاته حَلُمَ بأنه كان ذلك الرجل .

كان من عادة أبي أن يرفع جذر الشجرة ذاك ويمسك به أمامي ، وكان يجلس على متكأ قرب الأريكة بصحبة كتاب وكوب شاي ويدخن أيضاً . يكاد الجميع في ذلك الزمن أن يكونوا من المدخنين ، أما الآن فيكاد ألا يكون هناك مدخن . تسللت إلى حُجْرِ أبي ونظرت من فوق كتفه نحو ربوة المرصد التي تنتصب تحتها ، في منتصف شارع « أودنغاتان Odengatan » ثلاث بنايات متماثلة تقريباً ، إلاّ أنها تتميز عن بعضها بعضاً . كانت البنايات مربعة مثل علب أحذية وكان شقيق أبي يَدَّعي بأنه يعرف قِلّةً يعملون هناك .

تساءلت وأنا أشير إلى مبنى القُبَّةِ الصغير فوق الرَّبْوَةِ :

- وذلك المبنى ؟

قال أبي:

- ذلك هو المرصد ، من هناك يراقبون النجوم والكواكب والنيازك .

سألت:

- ما هو النَيْزَكْ ؟

قال أبي:

- نجم يخُرُّ من السماء .

بعد ذلك مطَّ أبي جسمه وأحضر جذر الشجرة من فوق طاولة الأريكة الصغيرة ، وسأل :

- هل تعرفه؟

أومأتُ برأسي .

قال :

- لقد رقد في التراب ، تحت شجرة ، طويلاً .

تساءلتُ:

- مثل شخص ميت .

قال :

- ليس تماماً كما تقول ، إنما مثل من لم يعش إطلاقاً .

نظرت إلى التمثال الخشبي . كان ذا أنف دقيق مدبب وطويل وجبهته عريضة مسطحة بشكل غريب . كان يقف وعضداه لِصُقَ طرفيه ويداه خلف ظهره ، وعيناه نصف مغمضتين ينظر حالماً إلى الأرض ، كأنما يتوق إلى التراب ثانية . كانت لديه نفس تلك النظرة الساهمة قليلاً التي كانت لدى جدي عندما كان يقرأ في جرائده البيضاء وأوراقه غير المكتوبة .

قال أبي:

- إنه وحيد ، يكاد ألا يعرف أحداً. أعتقد أنه يودُّ منك شيئاً . هل يسعه طلب ذلك ؟

أومأت برأسي. قَرَنَ أبي رأس التمثال الخشبي بأذنه وكأنه ينصت إلى شيء يقوله الرجل . بعد ذلك أوما برأسه وكأنما فهم ما يودُّ أن يطلب مني ، ثم التفتَ إليّ وتساءل :

- ليس لديه صديق حقٌ . هل ترغب في أن تكون صديقه ؟

أومأت برأسي .

- لكن لا يجوز لك أن تنساه .

هززت رأسي مؤكداً . بعد ذلك أعاد أبي التمثال الخشبي إلى الطاولة وقال شيئاً لأحد الكبار الآخرين . أعادني إلى الأرض ثانية ثم أشار بإصبعه إلى الرجل الخشبي النحيل الطويل مخاطباً :

- تَذكَّرْه أحياناً . لا تنسَ صديقك .

بعد ذلك عاد أبي إلى الحديث مع الكبار ثانية . نظرت إلى الرجل الخشبي وفكرت : عليَّ ألا أنساه أبداً . فكرت : إنه يبدو أكثر سروراً بعض الشيء . لكنه ما يزال يحملق في الأرض . إنه يرتجف ، فكرت والتفت إلى جَدَّتي لأقول ذلك . لكن كرسيها كان شاغراً فتلفتُّ حولي في الغرفة أبحث عنها .

قالت أمي :

- الجدة لدى الجد . ابقَ أنت هنا !

لكنني عصيتُ قولها ودخلتُ على جدي المريض : كانت جَدَّتي تجلس على حافة سريره ممسكة بيده ، وبعض أوراق بيضاء قد سحلت عن السرير واستقرت على أرضية الغرفة . كان جدي يتنفس بثقل وبشكل غريب . تقدمتُ والتقطتُ الأوراق وقدمتها إلى جَدَّتي . أخذتْ الأوراق ونظرتْ إلي .

همستْ :

- شكراً .

وبرغم شكرها تلك ، فإنني لم أكن واثقاً من أنها رأتني ، بدت لي كما لو أنها شَطَّرَتْ بصرها ناظرة داخل جزء محجوب عن الغرفة . لربما كان جزءاً مكتظاً بالأطياف بحيث يتسنى للمرء أن يقرأ هناك ما كان في أوراق جدي غير المكتوبة . كانت يدها التي مسحت بها على رأسي باردة ناشفة وكانت عيناها تترقرق بالدموع .

2

مات جدي في النهاية على كلٍّ حال . كانت أمي هي التـي أبلغتني الخبرَ. قلَّما كان أبـي يعيـش معنـا في الشـقة وقتئـذ. لا أعرف بالضبط متى انقطع عن السكن معنا ، توارى فقط . يُخيَّلُ إليّ بأنني سألتها بضعة مرات متى سيحضر إلى البيت ، ولكنني أمسكت حتمـاً عـن السـؤال عندمـا أصبحـت الأجوبـة هروبيـة وغامضة . ولم يكن الأمر وقفاً على أنّ أبي لم يعـد معنـا فقـط ، بل لأنه كان في مكان آخر أيضاً.

كنت قد سمعت فوراً من نبرة صوت أمي ، عندما دخلـت الغرفـة ، أنـها ستحكي أمراً تخشى البوح به ، لكنها لم تكن بحاجة إلى إجهاد نفسها. كاد الأمر أن يكون سواء ، ولم يكن في وسعي ، مع هذا ، أن أتذكـر أن جـدي قـد عـاش يوماً ما. أعني عاش فعلاً وليـس مجـرد أن اسـتلقى وإلـى جـانب سـريره أوراق بيضاء وماء صودا طعمها غبار .

قالت أمي:

- يجب أن أحكي لك أمراً يا « كريستيان » . أنت تعرف أن الجـد قـد كان مريضاً لفترة طويلة ...

لم تكن بحاجة إلى أن تحكي أكثر. على الفور ، وقبل أن يتسنى لها قـول ذلك ، فهمت أن جدي قد تُوُفِّيَ . سرعان ما يشرع الكبـار في حكايـة أمـر مـهم

دون ذكر عمّا يدور ، يعرف المرء أن أحداً قد تُوُفِيَ أو ما هـو أبشـع . إمـا أن أحداً قد تُوُفِيَ أو سَيُطَلّقُ . أمـا طـلاق أبـي وأمـي فـهذا لم يتسـنَّ لـي معرفتـه إطلاقاً. لابد أنه كان شيئاً مهماً ، بشكل لا يصدقه العقل ، بحيث لم يجرؤ أحـد على البدء في الحديث عنه .

لم أحضر أبداً تشييع جنازة جدي . ربما حضرتها أمي ، لكنني لا أعـرف ذلك بشكل جازم . حضرها أبي بكل تأكيد ، إلاّ أنني ما عـدت أراه إلا الـنزر اليسير. فكرت ، ذات مرة ، أنه كان حزيناً حتماً لأن أبـاه قـد مـات . فكـرت : عندما يكون المرء حزيناً لربما عليـه أن يكـون وحـده لكننـي في الحقيقـة لم أكـن أُصَدِّق ذلك.

سألتُ أمي ، مرّة ، كيـف يكـون الحـال عنـد تشـييع جنـازة . قـالت إن الجنازة تكون مَهيبَة جداً ومحزنة جداً . بدا قولـها لـي صادقـاً. كـان في ودي أن أُشَيِّعَ جدي . لكنني عوضاً عن تشييعه كنت آخـذ ورقـة غـير مكتوبـة وأطويـها لتكون « كطير الجنة » مقدّراً بأنني قمت بذلك من أجل جدي . كنت أفكر:

- انظر ، الآن يطير ...

لكنني لم أتوصل إلى أبعد من ذلك . لم أكن أعرف مَن طـار : جـدي أم الورقة . لكنني فكرت في كل الأوراق حول سرير جدي وحتمـاً فـهم شـخصٌ مـا قَصَدْتُهُ. أنا فهمتُ ما قَصَدْتُهُ ، على الرغم من أنني لم أدرك كيـف فـهمتُ . إنمـا هذا يسري على كثير مما نفعله حتماً. لا ندركه ، ومع ذلك نفعله ولربما كـان في هذا عبرة بشكل ما. كنت أتصور: لربما أبي يدرك . لكن أبـي لم يكـن ليـدرك ، بكل تأكيد ، أكثر من شخص آخر. لا يدرك أي شخص أكثر من شخص آخـر. بعد ذلك أقلعت عن التفكير في أبي .

عندما اجتمعت بجدتي ثانية ، بعد موت جدي ، كـان شـخص قـد نقـل سريره من غرفة نومهما. كان لدى كل من جَدَّتي وجدي سرير كبير خشبي أسـود ذو صنوبرات كبيرة مضحكة عند زوايا حمّالاته . كـان السـريران قـرب بعضـهما بعضاً قبل أن يُتَوفّى جدي وكانا وكأنما قد مـلآ الغرفـة كلـها. كـانت المكتبـات

وطاولة الكتابة الصغيرة كما لو أنها انتصبت متزاحمة على امتداد الجدران وزوج سجادات صغيرة يتلمس طريقه تحت المفروشات التي تتخبط محاولة التماس دائرة ضوء ضئيلة .

أما الآن فقد اختفى سرير جدي وغدت الغرفة فارغة بشكل موحش غريب . انطرحت السجادتان الصغيرتان على أرضية الغرفة وكأنهما كانتا تخشيان أن تُحدَجا بنظرة . كانتا وكأنهما تبغيان الدخول تحت المفروشات لتتواريا عن الأنظار ثانية . انتصبت المكتبات تتلوى على امتداد الجدران ، كما لو أنها لا تعرف تماماً إلى أين مصيرها. أما طاولة الكتابة فهي لا تزال أمام النافذة ، لكن لم يعد ثمة أوراق أو كتب على وجه الطاولة . بدت الغرفة وكأنها لا تدري ما ستفعله بذاتها ، أو كأنها لا تستطيع نسيان رائحة الغبار وماء الصودا .

مكث ذلك الخواء فترة في الغرفة ، لكنني لا أعرف بالضبط كم دام مكوثه . ولكن في النهاية بدت الغرفة كأنها قد ملأت نفسها ثانية . نُثِرَتْ فيما بعد مجلات أسبوعية وكتب على الطاولة وقُرِّبَ سريرُ جَدَّتي من النافذة لمزيد من الضوء . وتتكىء الآن الكتبُ بعضها على بعض وكأنها تتسامر بعد أن كان كل منها منتصباً لوحده في المكتبة . وتأقلمت الغرفة في آخر المطاف ونسيتْ أن طعم الماء الغازية ليس أكثر من غبار وعدم .

ارتدت جَدَّتي سِلاباً في الشهور التي تلت موت جدي . كنت أعرف أن الأمر على هذا النحو عندما يموت شخص مُقَرَّبٌ في الأسرة . السِلابُ هي ملابس سوداء يرتديها المرء ليتسنى للآخرين معرفة أنه حزين. كنت قد قلت لأمي إنني أريد ملابس سوداء أيضاً ، لكنها قالت إنني لست مرغماً على ذلك . لا أعرف إن كانت تعني أنه من الصعب أن يحزن الأطفال بالقدْر نفسه الذي يحزن فيه الكبار . كانت جَدَّتي ترتدي حُلَّةً سوداء و«بلوزة» بيضاء . فكرت : كأنها كانت ترتدي مِبْسَمَ سجائرها . قابلتها مرة واحدة وهي ترتدي سِلاباً. وعندما قابلتها في المرة التالية كان الخواء ما يزال في غرفة جدتي وجدي ولكنها كانت ترتدي إحدى حللها العادية . أعتقد أنها كانت حلة فضية أو بنية

أو أنها كانت بنية وفضية اللون في الوقت نفسه . جَلَسَتْ وأمي في المطبخ تحتسيان القهوة . كانت جَدَّتي قد أقلعت عن التدخين . حكت لي أمي ، فيما بعد ، أن ندبة داخل رأس جدتي تجعلها تغفو أحياناً دون إرادتـها وأنـها تخـاف أن تغفـو وهي تدخن وحيدة بعد موت جدي فينشب حريق . كانت أمي قـد أقلعـت عـن التدخين أيضاً لكنها فعلت ذلك بمحض إرادتـها. أمـا جَدَّتـي فقـد أقلعـت عـن التدخين لأنها عرفت أنها مرغمة على ذلك .

كانت جَدَّتي تجلس على ذات الكرسي الذي جلست عليه وقـت تشـاجرت وجدي ذات مرة . كثيراً ما حدثتني عن ذلك الشجار . كانت قد تشـاجرت مـع جدي ونَعَتَهَا بأمور عديدة بشعة ، بشعة لدرجة أنها لم تذكرها . كانت قـد لاذت بالمطبخ وجلست على الكرسي ذاته ، حيث تجلس الآن ، لتبكي قليلاً . وبعد قليل دخل جدي المطبخ وتساءل إن كانت سَتُحَضِّر الشاي عما قريب .

أجابته جَدَّتي :

- إنها في الحقيقة لم تكن تفكر في الشاي بعد كل ما نعتها به .

- إنك حقاً مُغِلَّةٌ بشكل لا يُصَدَّقْ ، كان جدي قد قال لها .

بدت جدتي ، وهي تقصُّ علـيَّ ذلـك ، كمـا لـو أنـها تعتـبره مجحفـاً في حقها. لكنها تعتبر ذلك لأنها تحبه أيضـاً. فكـرتُ : أن يتمكـن المـرء مـن محبـة الآخرين لأنهم أغبياء وغير منصفين أيضاً فهو أمر مثير للغرابة . لكن لربما لأنه عندما يحب الإنسان شخصاً يصبح لكل شيء قيمة بشكل أو آخر. لذلك يستطيع المرء أن يقول ما يشاء.

جلست على الأرض أمام الفرن وفتحت حجيرته السفلية . كان هناك علبة خبز مجفف وعلبة رقاقات خبز مسطحة كلياً. ذات مرة كان هنـاك علبـة « كعـك قرنفل pepparkakor » أيضاً. تكاد تلك الرقائق المسطحة كلياً أن تكون عديمة الطعم . ولو وضعتُ إحداها في فمي وقضمت قطعـة لكـاد أن يكـون هـذا مثـل قضم الهواء ، ولأصبح فمـي جافـاً ولسـاني أكـثر جفافـاً عنـد مضغـها. كنـت أحسب أحياناً أن تلك الرقائق مثل أوراق جدي غير المكتوبة . كانت مصنفـة في

العلبة لِصْق بعضها ولم يكن لها طعم تقريباً ، لكنها كانت ألذ من الخبز المجفف .

أما الخبز المجفف والرقائق فقد كانت لديّ كي أبيعها غالباً. جلست جَدَّتي قرب طاولة المطبخ وتولّيتُ أمر بيع القهوة . كانت تريد قطعتَيْ سكر ولا مانع لديها في مزيد من القهوة . ومن ثم ستأخذ خبزاً ورقائق وبعد ذلك ستدفع القيمة . كان ثمن القهوة خمسين « كرونة » مما جعلها تتساءل إن لم تكن باهظة الثمن قليلاً. ضحكت جَدَّتي وأمي لكن هذا لم ينفع في تبديل رأيي . قيمة القهوة والخبز والرقائق خمسون « كرونة » . فتحتُ كفي وقبضتُ النقود الوهمية .

قلت :

- شكراً جزيلاً.

بعد ذلك أودعتُ النقود في الفرن وأغلقت باب الحجيرة .

كانت جَدَّتي تشرب القهوة في منتصف النهار دائماً. وإن لم تشربها في هذا الموعد فقد كان يحل بها صداع رهيب وترغم على اللوذ بالفراش . وفي أسوأ الحالات كانت تلك الندبة في دماغها هي ما يصيبها بالصداع . وكانت تتناول عدداً من الحبات لتتخلص منه . كما كانت الندبة تُسْهِدُها ليلاً ولذلك كانت تستلقي وتفكر في أشياء شتى . كانت تتذمر من أنها لا تنام بشكل مريح ، لكنها مع ذلك كانت تقضي وقتاً ممتعاً . قالت إن لديها الكثير ممّا تفكر فيه وإنها عندما كانت تستلقي أَرِقَةً في الليل كانت تستنتج أموراً كثيرة .

كان هناك ممر خدمة يمتد بين المطبخ وغرفة الطعام . وفي منتصفه كان هناك باب لغرفة إضافية فارغة دائماً . كانت الغاية من الغرفة أن تكون سكن لوصيفة ، في حال وجودها ، وكان عليها الدخول والخروج من الشقة عبر مدخل المطبخ الذي يؤدي بابه إلى درج لم أطأه إطلاقاً. وبذلك كان على الوصيفة أن تسكن في الغرفة لِصْقَ المطبخ . ولكن لم يكن لدى جَدَّتي وصيفة . لذلك كانت الغرفة مثل غرفة ضيوف ، غرفة ضيوف شاغرة دائماً . قالت جَدَّتي إنها ربـ

تؤجرها.

كان هناك ، حيث ينتهي ممر الخدمة ليؤدي إلى غرفة الطعام ، ثمّة خزانة مبنية في الحائط يسكنها بائع الزهور . كان رجلاً ذا شاربين صفراوين يرتدي سُتْرَةً مُزَهَّرةً وسروالاً مُخَطَّطاً ويعتمر قبعة زرقاء لو أُقْصِيَت لأصبح كزجاجة . درجت جَدَّتي على ملء بائع الزهور بالكحول عندما تقيم حفلاً . قالت إنه لم يكن ليعترض على فعلها هذا . كان يمد إحدى يديه دائماً في مِحْجَنٍ وكأنما يتوقع دائماً صُحْبَةً .

كان ثمّة تمثالان داخل خزانة في غرفة الطعام ، كنت أطلب رؤيتهما دائماً. كان أحدهما صبياً بصحبة حمار أشهب والآخر فتاة بصحبة خروف . كانا من الخزف الرقيق وسريعي العطب كثيراً . وعندما تخرجهما جَدَّتي كانت تقول إنهما نديمان جداً بحيث لو أمسك المرء بهما بقوة لَتَقَصَّفَا. تساءلت إن كان من الضروري أن يبقيا في الخزانة دائماً .

قالت جَدَّتي:

- لا ، ولكن لربما يختفيان عن الأنظار فجأة لو أخرجهما المرء مراراً وتكراراً .

كانت جَدَّتي في غرفة الطعام عندما أُصيبَتْ بتلك النَّدْبَةِ في دماغها ، وعلى الرغم من أنني لم أكن قد وُلِدْتُ آنئذ فقد شاهدت ذلك يحدث أمامي مرات عدة . كانت جَدَّتي تذكر دائماً أن هذا قد حدث قبيل نهاية الحرب . ربما لهذا السبب تراءى لي أن ذلك حدث عندما كانت جَدَّتي وجدي قد تشاجرا. وقفا في غرفة الطعام يصرخ كلاهما في وجه الآخر وفجأة يُغْمَى على جَدَّتي ويرتطم رأسها بحدّ طاولة غرفة الطعام .

لا أعرف إن كانت جَدَّتي وجدي قد تشاجرا حقاً كما لا أعرف إن كان جدي معها عندما أصيبت بالنَّدْبَةِ . تحضرني صورة أخرى أن والدي كان معها وحده . إنه صبي صغير ، ربما في الثامنة من عمره . فجأة تنكفئ جَدَّتي ويرتطم رأسها بطاولة غرفة الطعام . إنها تنزف من صدغها وتستلقي على الأرض مغمياً

عليها. بعد ذلك تستقيم وتجلس على كرسي. ينقط الدم من الصدغ على الأرضية وعلى ردْنِ حلتها. تُخْرِجُ منديل أنف وتكبسه على صدغها لتوقف النزيف . إنها خائرة القوى وشاحبة الوجه تماماً. تَشْخَصُ ببصرها إلى أبي وتطلب منه أن يذهب ويُحْضِرَ أخاه الكبير .

يقول :

- حاضر ، ماما .

إنه خائف . تحاول جَدَّتي أن تبتسم . بعد ذلك تضطر إلى الإقامة في المستشفى أسابيع عدة .

كان كلبي في غرفة الطعام أيضاً . كان يستلقي على الأحجار السوداء أمام المدفأة الحجرية . أُضْطُرِرْتُ إلى تنبيه الكبار كيلا يدوسه أحد . لا أذكر من أسماه قزماً . على أي حال لا يعقل أن أكون من خلع عليه هذا الاسم . فوقع الاسم يعني بأنه لا يمكنني ابتداعه . لو تيسر لي لأسميته اسما أقصر ، لكن وبما أنه سُمِّيَ قزماً فقد كنت أعتقد أنه يليق به . بعد ذلك أعطتني جَدَّتي دُمْيَةَ كلب حقيقية فخلعت عليها الاسم نفسه . قالت أمي إنه سَيُمَثِّلُ « كوكرسبانييل cockerspaniel » لكنه في رأيي مثل كلبي الوهمي تماماً .

لا يحضرني من أين أتى ذلك البحار الصغير. كان أكبر مما أستطيع إخفاءه في يدي . كان يرتدي زياً أبيض وعَمْرَةَ بَحَّار بيضاء . وكان لقميص الزي ياقة تتدلى على الظهر وعلى رفْلِها شريط أزرق . كان البحار وكأنه يقف على أرجوحة أو ركيزتين وعندما يكبس المرء الركيزتين على بعضهما بعضاً كان يثب وثبة قصيرة ، ثم يقلب قلبة وكأنما يُمَوِّرُ نفسه على ذراعيه عالياً.

استلقيت في سرير جَدَّتي ممسكاً به . لا أعرف لماذا استلقيت في سرير جَدَّتي مُدَثَّراً وقد أُلْبِسْتُ مناماتي . لربما كنت مريضاً. لا بد أنني كنت مريضاً لأن الوقت كان منتصف النهار وسماء شهباء ملبدة بالغيوم تَجُوحُ متقدمة فوق هضبة المرصد والمكتبة العامة . استلقيت على جنبي ووجهي نحو الغرفة والباب المؤدي إلى الحمام . استلقيت ومعدتي تُقَرْقِرُ تحت الدثار. وحيث كنت استلقي

تحت الدثار جعلت مغارة صغيرة وأمسكت بتمثال البحار الصغير في يدي. لربما كان البحار يدعى « إريك Erik » . ضغطت على الركيزتين فمَارَ مَوْرَةً صغيرة من أجلي . كاد رأسه يرتطم بسقف الكهف . كان في وسعه أن يمور مرات لا تحصى دون أن يصاب بالدوار ولكن الحرص عليه مطلوب كيلا يرتطم رأسه بسقف مغارة اللحاف .

أحضرت جَدَّتي كأس شراب فواكه ووضعتها قرب السرير. قالت لا داعي لأن أشرب فوراً ، لكن الشرب مفيد عندما يُحَمُّ المرء . كنت مريضاً بالفعل . جلست في السرير ومططت نفسي أبتغي الكأس . قدمته لي وشربت الشراب كله بجرعات كبيرة . عندما فرغت من الكأس كلها اضطررت إلى الجلوس لوهلة لاهثاً أستعيد أنفاسي ، بهذه السرعة شربت . أخذتْ جَدَّتي الكأسَ وجلستْ على حافة السرير.

قلت :

- « إريك » غير عطشان .

رددتْ جَدَّتي أسم « إريك » متسائلة . سندتُ البحار الصغير على حافة اللحاف .

قلت :

- لقد شرب لِتوِّه .

أومأت جَدَّتي برأسها .

قالت :

- احتسيتُ والساحرة قهوة في المطبخ . وهي تجلي الأواني الآن .

قلت :

- إن في وسع البَحَّار أن يساعدني على شيء أريده . لديه قارب خاص يمكنه الإبحار به حيثما يشاء .

- إن في وسع الساحرة أن تَسْحَرَهُ .

قلت متشككاً ومندهشاً في آن :

- لا!

- بالطبع ، إنما تُحَوِّله إلى قضيب فقط .

قلت :

- لا ، لا يمكنها. إن ساحراً قد رَصَدَهُ . لقد قام بأمر يقيه من السحر.

وضعت جَدَّتي الكأس أمام بضعة كتب في المكتبة واستندت على حمَّالة السرير. ارتاحت إحدى ساقيها على أحد قدميّ تحت الدثار. لم يكن هناك ما يؤذي . جعلني ثقل ساق جَدَّتي على اللحاف أحس أن ليس ثمّة خطر.

قلت :

- جَدَّتي ، تلك الساحرة ؟

- نعم ؟

- إنها ليست كبيرة جداً، أليس كذلك ؟

- بهذا القدر ، قالت جَدَّتي ووضَّحَتْ بيدها. بعض متر ، ربما.

- أين التقيتِ بها ؟

- كانت تسكن هنا عندما انتقلنا إلى البيت . كانت غاضبة جداً في البداية عندما انتقلنا، إلا أنها تعودت الآن . إن سئمتْ منّا فيمكنها أخذ المكنسة في مدخل الخدمة والطيران إلى مأواها في مزرعتها في « هاريه دالن Harjedalen » . إنها تفعل هذا أحيانا .

أومأت برأسي .

– ويَحَّارُك « إريك » ، كيف التقيت به ؟ ، تساءلت جَدَّتي .

تسللت تحت اللحاف ونظرت إلى البحار المستلقي على أحد أطراف كهف اللحاف يستريح . فكرت : لقد كانت عاصفة في الليل ، لابد أنه تعب . رفعت رأسي من فوق حرف اللحاف ثانية ونظرت إلى جَدَّتي.

قلت :

- لن أبوح بذلك . إنه سرٌ بيننا. إنما في وسعي البوح بقليل منه . إنه لم يكن على أي قارب .

وترنحتُ على الوسادة ثانية . كان الكهف حاراً وبارداً جداً . ضممت يدي على البحار وأغمضت عينيّ . قال البحار شيئاً لا أتذكره عن البحر. بعد ذلك أحسست كيف اهتز السرير عندما نهضت جَدَّتي وسمعت أنها غادرت الغرفة .

وقبل أن تمشي قالت :

- لأرى كم أنهتْ الساحرة من الجلي .

فتحت عينيّ ونظرت حولي في الكهف . كان الضوء الذي تسرب عبر الفتحة قرب الوسادة شاحباً . تثاءبت قليلاً . قدّرت أن الغيوم بدأت تضجر لعدم عناقها المطر إطلاقاً. ضغطت على ركيزتَيْ البحار لكنه لم يَمُرْ. بدّل من وضعه في السرير وكأنما يريد الاستلقاء بشكل أكثر راحة له . حررته من قبضتي وتركته يستلقي وحده . فكرت : كفَّ عن الحديث . بعد ذلك أغمضت عينيَّ ثانية .

وعندما قَدَّمَتْ لي جَدَّتي، فيما بعد ، شاياً خفيفة وشطيرة جبن نزعت حوافها تساءلتْ إن البحار قد نام أيضاً. بدا لي أن السؤال فارغ ، وأجبت طبعاً أنه قد فعل ذلك . قالت جَدَّتي إن الساحرة قد طارت تُطَوِّفُ فوق المدينة بعد فراغها من الجلي .

قالت جَدَّتي:

- كانت بَرِمَةً بالجلي .

أومأت برأسي . كان الشاي أبيض كالحليب تقريباً. كان هناك شفافية لون بني فاه تدلُّ على أنها كانت شاياً . ومع ذلك لم تكن مثل شاي الفضة التي كانت حلوة كثيراً . مددت يدي تحت اللحاف وسحبت البحار الصغير . رفعته ونظرت إليه . عندما ضغطت قليلاً على ركيزتيه طفر جسمه قليلاً. لم يكن قد صحا من نومه تماماً. وسَّدتُه على وسادة الرأس وقضمت لقمة أخرى من الشطيرة .

قلت :

- إنه يتسلق أحياناً حتى أعلى نقطة في بناية ، حتى سطحها حيث يمكنه رؤية الدنيا كلها .

- إذن يمكنه استطلاع إلى أين تطير الساحرة الآن !

- بالطبع . لديه حبل يمكنه أن يتسلق به أيضاً .

- من المؤكد أنه حبل طويل جداً ، كما أعتقد ؟

- بلى ، إنه طويل جداً .

لم أتمكن من أكل شطيرة الجبن كلها ، بل أعدت الباقي إلى الطبق على الصينية . ترنحت على الوسادة ثانية وأمسكت بالبحار بينما جَدَّتي ترفع الصينية .

قلت :

- إنه مسن جداً . ربما أربعة وعشرون عاماً .

قالت جَدَّتي مستغربة :

- بهذا العمر حقاً ؟

قلت :

- بلى .

- الساحرة تزيد على المئة .

قلت :

- بلى .

استلقيت صامتاً برهة أراقب كيف يُمَوِّرُ البحار على ركيزتيه مرة تلو الأخرى . كان قد تسلق إلى أعلى الصواري على قوارب عديدة . كان يهوى التسلق عالياً في الهواء والإحساس بالريح تشد ثيابه وشعره . طارت عَمْرَةُ البحار عن رأسه عدة مرات ، لكن هذا لم يضره . أرخيتُ يدي قليلاً فجلس على راحتها يستريح لحظة . لم يكن ثمة قبطان يُحَتِّمُ عليه ما يفعله على القوارب . كان يعرف واجباته . لا بد أن الساحرة مثله . إن لم تكن ترغب في الجلي فلم يكن ليجدي الطلب إليها أن تفعل ذلك . كانت تفعل ما تشاء لكنها كانت تريد أن تجلي

في غالب المرات .

كانت جَدّتي تقف قرب النافذة وكنت أنظر إلى المكتبات مقابل الجدار الطويل . كانت هناك تلك الكتب المفضلة لديها التي تدور حول اغتيال أناس ومحاولة شخص اكتشاف القاتل . لم تكن تلك الكتب تُوضَعُ في مكتبة غرفة الجلوس إطلاقاً . كان لها ثمة مكتبة خاصة في غرفة النوم . كانت هذه الكتب من نصيب الليل وسهاد جَدّتي . كانت تنتمي إلى تلك الندبة داخل رأس جَدّتي والتي تؤلمها ليلاً .

نظرت إلى جَدّتي قرب النافذة . كانت تقف ساكنة تماماً وتدلك أحد صدغيها بأنامل إحدى يديها . رأيت من فوق كتفها وعبر النافذة كيف تجري الغيوم مبتعدة . كانت مثل بواخر كبيرة ذات أشرعة تتجشأ . فكرت : لابد أن البَحّار قد أبحر على بعض منها .

قالت جَدّتي تردد لنفسها رغما :

- ألن يهطل مطر أبداً ؟!

كانت جَدّتي تريد أن يهطل المطر ، وأن يثبت الطقس على حال ، فقد كان تقلّبه هو ما يصدع رأس جدتي . نظرتُ إلى الغيوم في الخارج . تدل سرعتها الحثيثة على أنها في طريقها إلى مكان ما حتماً .

قلت :

- لا !

التفتتْ جَدّتي إليّ .

قالت:

- ألا تعتقد ذلك ؟ لماذا لا تعتقد ذلك ؟

قلت :

- لن يهطل المطر .

كانت جَدّتي تعاني تقلب الطقس منذ الصباح . سببت ندبة رأسها لها ذلك الصداع ، وقالت إنها تعاني أيضاً ألماً في مفاصلها بسبب الطقس .

في إحدى زوايا الغرفة كانت تنتصب خزانة طويلة ذات باب غريب مصنوع من قِدّاتٍ خشبية رفيعة . لو أراد المرء فتح الخزانة فقد كان عليه أن يسحب الباب إلى الأسفل حتى يختفي كله في داخلها. كان ينفلتُ في غالب الأحيان محدثاً صوتاً مزعجاً. أعتقد أن كل أوراق جدي غير المكتوبة موجودة داخلها. قلّما كانت جَدّتي تفتح هذه الخزانة . كانت تنتصب في الزاوية لا غير تتنفس الدفء والبرودة .

جلست جَدّتي على السرير ثانية .

قالت :

- أتعرف يا « كريستيان » . أعتقد أنك تتحمل سماع قصة الآن .

أومأتُ برأسي ، وبعد ذلك حكت شيئاً عندما كانت طفلة . حكت عن والدها الذي كان قسيساً في كنيسة ليست مثل الكنائس العادية . لم تكن مثل تلك الكنيسة التي كان يرتدونَ فيها اللباس الموَحّد ، مثل الجنود تقريباً. كان والد جَدّتي قسيساً في كنيسة غير الكنائس العادية . هذا كل ما أعرفه عنه تقريباً. زد على أنه كتب كتابين يتحدثان عن الله والكنيسة . ذات مرة رأيت أحدهما لدى جَدّتي ، لكنني لم أَطّلعْ عليه إطلاقاً. أمّا أم جَدّتي فإنها لم تكن سوى أم جَدّتي . أعتقد أنها كانت ترتدي الأثواب الكاشفة دائماً .

تحدثت جَدّتي عن أخوتها أيضاً. تحدثت عن أخيها الصغير الذي ذهب إلى الصيدلية وحده واشترى كيساً فيه نوع من الفستق أو النُوَى التي يأكلها المرء إن كان مقبوض المعدة ولا يستطيع التَغَوُّط . كان قد جلس على الرصيف خارج الصيدلية وأكل الكيس كله وبعد ذلك جلس على المرحاض لمدة أسبوع تقريباً. لابد أنه حَسِبَ الفستق لذيذاً .

كانت جَدّتي ورفيقاتها يغنّينَ دائماً بينما هن يتنزهن أو يقمن بعمل ما. كنّ يغنين دائماً ومع ذلك لم تكن جَدّتي تستطيع الغناء . كانت تردد دائماً أنها لا تستطيع الغناء .

كانت تقول :

- لا يمكنني غناء أي لحن .

لكنها كـانت تسـتطيع الغنـاء في طفولتـها. بعـد ذلـك اختفـى الصـوت الغنائي . قالت إنها تنعق في الوقت الحاضر . ولكنـها وهـي طفلـة كـانت تغنـي دائماً مع زوّار الكنيسة حيث كان والدها قسيسـاً . كـانوا يغنـون دائمـاً مـهما كانوا يفعلون .

حَلّ الغَشاشُ في الخارج ولم يهطل المطر أبداً . تسـاءلت جَدّتـي إن كنـت جائعاً . هززت رأسي نافياً فقط وسحلتُ في السرير أكثر . استلقيت على طـرفي وضممت البَحّار إلى صدري . كان في وسـعي النظـر مباشـرة عـبر بـاب الحمـام المفتوح والباب المقابل لأرى ممر الخدمة . كان الباب جانب غرفة الطعام مواربـاً فتلمَّسَتْ حزمة ضوء شاحب طريقها إلى ممر الخدمة المعتم .

بعد سقوط جدتي في غرفة الطعام أصبحت مجبرة على تناول بضـع حبـات يومياً وُصِفَتْ لها كي لا تسقط ثانية وألاّ تنام عندما لا تريد ذلك . لربما كـانت الحبات سبب قلقها ليلاً. غير أنها كـانت وكأنمـا تخطـيء وتنـام ، مصادفـة ، في النهار. كانت تلفُّ قدمي بأحد كفّيها. كانت راحتها ، وهي تضغـط برفـق علـى قدمي ، دافئة وباردة في الوقت نفسه . كانت تمر بإبهامها على باطن قدمي أحيانـاً مما يجعلني أرمح قليلاً، وكنت أشعر كيف يطفر البحار في يدي .

حدث ، ذات مرة ، أنني كنت على وشك السقوط في غرفة الطعام أيضـاً. لا أعرف إن كدت أسقط إلى خارج الغرفـة أم داخلـها. كـان ثمّـة بضعـة عمـال يُغيِّـرُون سقفاً ، في مكان ما ، داخل حدائق الأبنية الداخلية ، وكنت أقف علـى كرسي وأنظر إليهم عبر النافذة . كانت جَدّتي وأمي ما تزالان تجلسان في المطبـخ تحتسيان القهوة . كنت قد أغلقت حجيرة الفرن السفلية لأن الخـبز نفـد أو ربمـا لأن مزاجي لبيع الخبز قد نضب .

لما لم يعد في وسعي رؤية ما يفعلـه مصلحـو السـقف ، أوقفتنـي أمـي أو جَدّتي على إفريز النافذة العريض . لصقتُ وجهي على زجـاج النـافذة وشـعرت بالبرودة على وجنتي . كان إحساساً حلـواً ورسـمَ تنفسـي علـى زجـاج النـافذة

غيمات صغيرة . كان في وسعي الإحساس بالبرودة على بطني أيضاً من خلال « كُسوتي العلوية » . بدوتُ كما لو أنني أقف ما بين البناية والعَدَمْ ومع ذلك لم يكن ذلك خطراً .

فتحت فمي وزفرت فخطَّ بخار تنفسي شكلَ غيمة على صفيحة الزجاج . محوت بسبابتي ثقباً صغيراً في الغيمة لأنظر عبره إلى العمال على السقف . ومن ثم انتقلت إلى جزء صافٍ من الزجاج . رسمتُ بزفراتي غيمة جديدة وعلى الغيمة رسمتُ شكلاً صغيراً ، وتنقلت متابعاً الرسم على طول الزجاج البارد. رفع العمال أنظارهم ولوَّحوا لي بأيديهم ، ثم عادوا إلى طَرْقَ الصفائح الكبيرة على السقف .

شعرت فجأة كيف انزلق شيء ما على قصبة ساقي . صرختُ لدى رؤيتي سقوط مزهرية من فوق الإفريز على الأرض . عندما ارتطمت على الأرضية الخشبية بقيت واقفة لحظة قصيرة ثم تكسرت ، وإثر ذلك تبعثرتْ آلاف القطع في الوقت نفسه الذي سُمعَ فيه دَوِيُ فظيع . خفتُ . تناهى إليَّ كيف صاحت أمي أو جَدَّتي اسمي في المطبخ كما بلغني صوت هرولتهم في ممر الخدمة . فكرت : عما قريب سيدخلون غرفة الطعام . وقفت ملتصقاً بزجاج النافذة أحس ببرودته على بطني وأنظر إلى المزهرية المتهشمة على أرضية الغرفة . كانت من خزف أبيض وعليها صورة زرقاء . شعرت كيف تنبعثُ الدموع لتملأ عينيّ.

دخلوا الآن غرفة الطعام . كانت جَدَّتي في المقدمة فاتجهت إليّ في الحال وضمتني إلى حضنها . رأيت من فوق كتفها كيف بدت أمي مفزوعة ومن ثم هلعة مطمئنة ، وأخذتني جَدَّتي إليها . نشجتُ قليلاً .

قلت :

- لم أعرف ... لم أر ... المزهرية ... لم يكن قصدي ... لم أعرف ...

ضمتني جَدَّتي إليها بقوة أكثر وشعرت بخدها اللين البارد على صفحة خدي . مسكتني بإحدى يديها وأنا في حُجْرِها وبالأخرى ضَمَّتْ رأسي إلى رأسها . كان في وسعي شمُّ رائحتها . كانت رائحة صوف نظيف ومسحوق

تجميل . مدت أمي يدها إلى خَدّي الآخر. أمسكتُ بياقة رداء جَدّتي وسـحبتُها إليَّ أكثر فقالت :

- لا أسف على الزّهريّة ! لكننا خفنا كثيراً . حسبناك وقعت .

3

لا أعرف أين اختفى البَحّار . لربما أقام عندي بضعة أيــام فقط . لربما حطَّ على أحد الرفوف عند جَدّتي وفي النهاية رُمِيَ بعد أن استقر بين جريدتين قديمتين . لربما تـاق للإبحـار ثانيـة . ويكاد يبدو غير مهم سبب اختفائه . عاجلاً أم آجلاً ، وبصورة أو بأخرى ، يزول كل شيء . لا يعرف المرء أين مضـى الشـيء أو إلى أين يمضي المرء ذاته . وعندما كنت صغيراً ، ربما لأننـي لم أستطع التهجئة أو لسوء فهم ، خلعت اســماً علـى شـيء مـا وفجأة استرد الشيء اســمه الحقيقـي وكأنما هـذا الشـيء الـذي خلعت عليه الاسم سابقاً لم يكن موجوداً على الإطلاق . وبكـل بساطة عزفت عن التفكير بمثل هذه الأمور . شـببتُ أكـثر وغـيّر الزمن مجراه وعاد البَحّار إلى الملاحة .

بدأت جَدّتي تأجير تلك الغرفة المجاورة للمطبـخ والتـي لم يسـكنها أحـد قط. في البدء كانت قد أجرت الغرفتين تلو البـهو إلـى مجلـة الأطفـال في بـادئ الأمر وأجرت الآن الغرفة المجاورة للمطبخ أيضـاً. كـانت تلـك الغرفـة دائمـاً في الظل . لا أعتقد أن الشمس دخلتها قط . كانت الغرفة كأنمـا لـو أنـها دون أي نافذة . عندما اجتزت ممر الخدمة وكان بـاب الغرفـة مفتوحـاً رأيـت بنفسـي أن

للغرفة نافذة . لكنني إن وقفت قرب النافذة ، في غرفة الطعام ، ونظرت فقد كـان بإمكاني رؤية نافذة المطبخ دون رؤية نافذة تلك الغرفة . كانت النتيجة نفسـها إن علوتُ رخام المجلى البارد ونظرت إلى نافذة غرفـة الطعـام . كـانت تلـك الغرفـة وكأنها ثوَتْ في جيب خفيّ من البناية .

كان مستأجرو الغرفة رجالاً دائماً. كانوا في الغالب طلاباً. كان أحدهـم غوّاصاً ، وذات مرة كانت مواسير الغوص الصفراء في البهو ، ولما لمست إحداهـا كانت باردة مثل الجليد . بل كانت أكثر برودة مـن رخـام المجلـى في المطبـخ . لم ألمس المواسير بعد تلك المرة قط . درج الغواص على أن يحكـي لجَدَّتـي حكايـات وعندما روتها عنه ، فيما بعد ، قلّما كنت أفهمها . أما الغوص فقد كان يقـوم به في العطل ، وفي غيرها فقد كان تلميـذاً فقـط . كـانت جَدَّتـي تفضـل تأجـير الغرفة إلى تلاميذ . قالت إنهم يلازمون كتبـهم حتـى وقـت متـأخر مـن الليـل مثلما تفعله هي . وكان يصدف أنهم يلتقـون في المطبـخ ، في هزيـع مـن الليـل ، فيأكلون شطيرة سوية . واستأجر الغرفة ، فترة ، إطفائي ساعد جَدَّتي على تعليق بعض الستائر . كان يرتدي « كسوة ذات زِناقٍ » سوداء وكان يحرك يديه طـوال الوقت وهو يتكلم ، لكنه كان ينام الليل كلّه ، ومن ثم انتقل .

كان هناك مخبز كعك وقوالب حلوى مشهور مجاوراً لمدخل بناية جَدَّتـي . لم أدخل هذا المخبز إطلاقـاً ، إلا أن جَدَّتـي اعتـادت توصيتـهم بتسـليم كعـك وخبز قهوة في شقتها عندما تكـون لديـها دعـوة . كـانت حـرارة الأفـران تدفّـئ مدخل درج البناية دائماً حتى في أوج الشتاء . وكان دفء مدخل الدرج يولّـدُ إحساساً شاذاً محبباً . كان دخولي الباب الرئيسي كافياً فقط لكـي أحـس بـأنني أصبحت في بيت جَدَّتي . لذلك لم يخطر في بالي احتمال وجود سكان آخريـن في البناية وكأنما لم يكن فيها سوى شقة جَدَّتي وذلك المخبز المشهور .

كان هناك دائماً زوج من الأعلام ملفوفاً حيث أدخل . لا يمكنني تذكـر أن شخصاً علق العَلَمَيْن في مكان . كانا دائماً ملفوفين على حامليهما مُخلَّفَيْن في الزاوية قرب الباب الكبير ذي المصراعين المؤدي إلى ساحة البنايـة الداخليـة .

كان أحدهما العلم السويدي ، وكنت أميز اللونين الأزرق والأصفر فيه . أما العلم الآخر فقد كان لونه أحمر أرجوانياً . كان يخال لي أحياناً أن هناك ثلاثة أعلام ولكن لم يكن في وسعي إطلاقاً معرفة لون العلم الثالث . تحسستها ذات مرة ولكن هذا بدا لي وكأنه إثم . لا يجوز لأحد لَمْسَ الأعلام . الأعلامَ لا يمسها بشرٌ أبداً .

كنت أرى بناء المخبز الخاص الموصول بمحل البيع عبر زجاج الأبواب المؤدية إلى ساحة البناية الداخلية . كنت أرى أحياناً كيف يقف الخباز على الدرج القصير ويتمطى . كان يرتدي ثياباً بيضاء ويداه العريضتان برقشهما العجين ووجهه معفّر بالطحين الذي كان يتخلل شعره أيضاً . كان يتمطى ويتثاءب .

قالت جَدّتي آنئذ :

- بدأ عمله الساعة الرابعة صباحاً وذهب إلى بيته الساعة الحادية عشرة قبل الظهر لينام .

وسألتها :

- متى كان يقابل أولاده ؟

قالت جَدّتي :

- ربما ليس لديه أولاد.

وقلت :

- لا ، حتماً لديه أولاد .

لم أدرك إطلاقاً كيف يدفئ مخبز يقع في مبنى خاص بهو درج البناية . لكن هذا كان هو الواقع ولا غير سواه . كان دفء درج بناية جَدّتي يضفي عليه رائحة مختلفة عن رائحة غيره من الأدراج . كان لمعظم الأدراج رائحة رطوبة ودهان ، أما رائحة درج بناية جَدّتي فقد كانت دفئاً وخبزاً طازجاً . عندما كنت أجلس على المقعد الخشبي الصغير في مصعد جَدّتي كان في وسعي دائماً أن أحس كيف تفوح رائحة خبز طازج .

درجت جَدَّتي على القول أن مصعد بنايتها أبطأ مصعد في كل استوكهولم . كان بطيئاً لدرجة تَضْطَرُ المرءَ ، وهو داخله ، إلى التفكير في شيء ما. وبما أن جَدَّتي تسكن الطابق الأخير فقد كان في وسع المرء التفكير في كثير من الأمور .

كانت جَدَّتي تقول :

- بما أن المصعد بطيء بهذا القَدْرِ فقد كان مفيداً أن يستخدمه الإنسان .

كان هناك من لم يحتملوا انتظاره ولذلك كانوا يهرولون نازلين عوضاً عن ذلك .

وكانت جَدَّتي تقول :

- إن حياة هؤلاء الذين ليس لديهم وقت لانتظار المصعد في خطر. إنه من المضر أن لا يمنح المرء نفسه الوقت الذي يستغرقه استخدام مصعد .

بعد ذلك كانت تجلس إلى جانبي على المقعد وتريح رأسها على الخشب المدهون بلون قاتم في قفص المصعد وتنظر حالمة إلى سياجه ونفق المصعد الذي ينساب مبتعداً . كان المصعد أحياناً يبدو وكأنه في طريقة إلى مكان آخر. كان هناك متسع من الوقت بحيث يتسنى لي تخيل أنه في طريقه إلى أيما مكان . كانت الطوابق تمر بنا مبتعدة ولم يحدث قط أن رأيت أي إنسان اللهم إلا موزع بريد ينزل الدرج بلا صوت . وعندما كنت أراه أتساءل إلى أين كانت وجهته عندما ركب المصعد .ويشخص ببصره نحونا عندما يمر به المصعد ومن ثم يغيب ، كما ينظر المرء إلى فضاء في ليلة معتمة ويتساءل أين سيخر الشهاب التالي .

كانت جَدَّتي تتسوق الطعام في دكان بقالة صغيرة تقع بالضبط حيث « أودنغاتان Odengatan » أصبح « أودنبلان Odenplan » . كان اسم مالك دكان البقالة « فاللين Wallin » وكان ينادي كل الصبيان الذين بدؤوا المدرسة بالْمُرَشَّح . لم يكن يخلع عليّ اسما ، وفي أقصى الحالات يخاطبني بالصديق أو الشاب . ذات مرة أخذت جَدَّتي معها سطل الزبالة إلى دكان بقَالَة « فاللين » . نسيت فقط إفراغ السطل في حجرة الزبالة في الحديقة قبل أن تذهب

لتتسوق .

- لا ، شكراً . قال السيد « فاللين » . لا أعتقد أننا نريد شيئاً .

كانت جَدَّتي تناديه دائماً بصديقي « فاللين » ، تماماً مثلما تنادي بائع الكتب المستعملة صديقي « جونس » Jones وبائع التبغ العجوز بصديقي « آكهولم Ekholm ». كنت أعرف دائماً لو رافقتُ جَدَّتي إلى دكان بقالة « فاللين » فإن إناء كراميلا زجاجي سيدفع أمامي لآخذ منه . بعد ذلك حدثتني جَدَّتي أنها دخلت دكان البقالة ذات يوم فرأتها تغص بالزهور وصورة السيد « فاللين » على دكة البيع .

- كم المكان جميل ! قالت جَدَّتي . هل هناك من يحتفل بعيد ميلاده ؟.

لم تدرك جَدَّتي كم كان تعليقها غير لائق قبل أن تنظر البائعتان إلى بعضهما بعضاً وتخفضان نظرهما وقد بدا عليهما حزن شديد .

- السيد « فاللين » قد لبى الدعوة . قالت إحدى البائعتين بصوت تخنقه العبرات ، غير أن جَدَّتي كانت في طريقها إلى خارج المحل .

كانت تضحك عندما حكت لي هذا . قالت إنها كادت تضحك آنذاك أيضاً . لم تضحك بالطبع لأن السيد « فاللين » قد مات . كانت تعز السيد « فاللين » كثيراً . إلا أنها كانت مضطرة إلى أن تضحك لتصرّفها. ربما كانت تخشى أن تسأل أيضاً : لبى دعوة من ؟ . كانت تقول دوماً : إن قال شخصٌ إن فلاناً قد لبى الدعوة فعلى المرء عندئذ أن يسأل إلى أين كانت الدعوة .

- إن مات شخص فإنه قد مات . درجت جَدَّتي على قول ذلك . وإن لبى الدعوةَ شخص فإنه يكون قد لبى دعوة إلى وليمة في مكان ما .

حكت جَدَّتي حكايات كثيرة عن جنازات حضرت تشييعها وجرت أثناءها أشياء مضحكة . كانت حاضرة في كل ما حدثتني به . صدّقت أنها قد حضرت تشييع جنازات كثيرة . في إحدى الحكايات كان ثمة عاصفة ثلجية هبّتْ وقت إنزال الميت في حفرته وتزحلق حاملو النعش وكاد النعش نفسه ينزلق عن التل ، وفي النهاية طارت قلنسوة القسيس ووقعت في القبر . كانت قلنسوة كبيرة

حمراء حطت على غطاء النعش مثل وردة حمراء إلى جانب الورود التي ألقى بها المشيعون . عندما نزل القسيس ليحضرها كاد ألا يتمكن من الخروج من الضريح . عندما تحكي جَدَّتي مثل هذه الحكايات كانت تبدو دائماً وكأنها تظن أن الميت يجد ذلك مضحكاً حتماً مثل تعليقها الذي تقتبسه من حكاية أخرى عندما تدعو ضيوفاً على شرب القهوة وتقدم لهم الكعك قائلة :

- تفضلوا كعكة أخرى ، « صِنْوَتها لحدتها بذاتي».

ومن حكاية دفن أخرى تقدم طفل ويال على الأكاليل قرب النعش . ومن حكايات أخرى روت كيف كان بعض المشيعين يلبسون ملابس خرقاء . ومن تشييع جنازة أخرى كانت عجوز قد حضرت التشييع وقد ارتدت خيمة سوداء كبيرة وعلى صدرها صليب خشبي كبير يتأرجح ، وكيف كانت ترتدي جوارب زرقاء بخطوط حمراء وصندلاً أسود . كان وكأنما جَدَّتي تعتقد أن هناك بعض حزن يشط تطرفاً ليصبح وكأنما هو مجرد عَرْضٍ . ومع ذلك أعرف أن جَدَّتي كانت حزينة جداً أحياناً . ولكنني أعتقد أنه يحق لها الضحك على الملابس السخيفة التي يرتديها الناس أيضاً .

كانت في غرفة الطعام أريكة ذات وسائد اتكاء مدورة مثل أنبوب . كانت تبدو مثل تلك الأنابيب الطويلة التي رأيت فَنَّاني السيرك يدورونها بأقدامهم . كانوا يتمددون على ظهورهم فوق منصة ويرفسون عالياً في الهواء مكعبات وأنابيب وأحياناً أناساً كي يموروا . لو أخذت إحدى وسائد أريكة غرفة الجلوس ، التي تشبه موجات بحر ، ووضعتها على أرضية غرفة الطعام ، لكانت مثل دعامة للظهر. كانت الوسادة تعينني على رفع عجزي عن أرضية الغرفة لكي أصبح في وضع مناسب ولكي أقلِّبَ بقدميّ . لكن تلك الوسائد المدورة كانت مرتخية غالباً لا تمكنني من تقليب أي شكل كان . كنت أعرف أن من المفروض أن يَسْهُلَ الأمر عليّ . أنه ممكن . أنني قمت بتلك الحركات البهلوانية فعلاً. في الحقيقة كان كل ما أقرره يُنَفَّذْ .

كنت قد مرضت مرة أخرى . لم أكن محموماً إنما مبحوح الصوت قليلاً

وأحسّ بصداع ، وكنت مستلقياً في سرير جَدّتي التي كانت قد فرغت من القراءة في كتاب الغـابة . كانت قد فرغت لتوها مـن قـراءة تلـك الفقـرة التـي تُنَـوِّمُ الحية« كآ Kaa » القرود وتجعلهم يجلسون بـلا حـراك بانتظـار أن يُفْتَرَسـوا . فكرت في رأس الحية الضخم الذي يتأرجح فوق جسد ملفوف على شاطئ النهر . كان أكثر خبثاً من النمر « شيري خان Shere Khan » ومـن كـل المخـاوف الأخرى . ومع ذلك لم تكن تلك الحية الكبيرة أكثر ما يخيف . كانت تلك القرود التي وقفت بلا حراك وينظـرات فارغـة وأطـراف متصلبـة تخشـى ألا يتسـنى لـها الهرب .

سألت جَدّتي :

- هل هو صحيح ؟ هل هو صحيح أن في وسع الحيات تنويـم مـن ينـوون افتراسه مغنطيسياً ؟

تركت جَدّتي الكتاب يسقط على ركبتـها ونظـرت أمامـها تمعـن التفكـير. رفعت أحد حاجبيها فخرت نظارتها لتستقر على صدرها.

قالت :

- بلى ، ربما صحيح .

-هل رأيتِ مثل تلك الحية ذات مرة ؟

أومأتْ برأسها. أنهضتُ جذعي عن السرير أنتظر أن تبدأ الحديث .

قالت :

- حدث هذا قرب جزيرة قصية في البحر الهادي حيث كان علينا إحضـار كنز مدفون هناك .

قطعت عليها الحديث :

- إذن كان هذا عندما كنت ملكة القراصنة .

- طبعاً كان هذا عندما كنت ملكة قراصنة البحر .

وضعت إشارة في الكتاب وأغلقته وأقصته عنها فوق اللحاف .

تابعت الحكاية :

- كان الغروب قد حلّ ، حيث رسونا ، وأمواج البحر تتقصف على السفينة الخشبية . أخذت معي بعض طاقم السفينة وجدفنا إلى الشاطئ .

سألت :

-من كان بصحبتك ؟

- « جاك » و « غوستاف » جَذّفا وتولى قائد سفينتي « سيبستيان » أمر المقود وعلى مقدمة السفينة وقف « ساموبل » وفي يده طَبَنْجَة عتيقة .

- لماذا لا تقولين بندقية أو مسدس قراصنة ؟

قالت جَدّتي :

- لأنها لم تكن بندقية أو مسدس قراصنة . كانت طَبَنْجَة عتيقة .

أومأت برأسي وتراخيت على الوسادة ثانية .

تابعت جَدّتي :

- نزلنا اليابسة وبدأنا نتقدم بمحاذاة نهر صغير . كنا نحمل في أيدينا مشاعل ، لأن الغَبَش كان قد حلّ . كانت أول مرة منذ سنوات بعيدة يرى حيوان ناراً على الجزيرة .

وأكملتُ :

-عدا البرق ؟

قالت :

- طبعاً إن لم يكن البرق فصاعقة قد نزلت ذات مرة . على كل ، مشينا بمحاذاة النهر ومشاعلنا في أيدينا وكان في وسعنا رؤية عيون الحيوانات المفترسة تعكس شعاع النار نحونا في العتمة .

أومأت برأسي ثانية .

- كان في وسعنا رؤية القمر من بين ذرى الأشجار. لم يكن أكثر من شارة رفيعة وحادة ولكنه وهاج ساطع كما هو دائماً قرب خط الاستواء . وسُمِعَتْ من بين الأشجار أصوات وجلبة . كانت الحيوانات تُنْذِر بقدومنا . بعد ذلك ساد صمت مخيف رهيب . لم تسمع أية نأمة . لم يسمع إلا صوت خطواتنا على الرمل

الذي يَخْشَفُ قليلاً .

تساءلتُ :

- وخطوات « ساموبل » أيضــاً ؟ إن لديـه رجـلاً مـن خشـب ، أليـس كذلك ؟

قالت جَدَّتي :

- وخطواته أيضاً. لكن وقعها كان مختلفاً قليلاً طبعاً . توقفنـا في العتمـة نتنصت . كل شيء كان صامتاً ماعدا طنين البعوض وصفير صَرّار الليل. تابعنـا مشينا ولكن وقع خطواتنا تغير فجأة . لم يكن وقع خطواتنا خَشَفاً . انبثقـت مـن الرمل فجأة حية . ارتددنا على أعقابنا في الحال هاربين ، لكن حية أخرى انبثقت أيضاً. كانت حية ضخمة ذات رأس كبير وثقيل وعينين كبيرتين مثل أطباق شاي كانت ترسل في العتمة ضوءاً بارداً مقشعراً ذا شعاع أخضر.

سألتُ متوتراً :

-والحية الأخرى ؟

قالت جَدَّتي :

- كان ذلك ذنب الحية نفسها. تبين لنا أننا كنا نقـف علـى جسـم الحيـة الهائل .

سألتُ :

-وهل توجد حيات بهذه الضخامة ؟

قالت جَدَّتي :

- بكل تأكيد !

- ألم يكن في وسعكم اللجوء إلى الأشجار ؟

- كانت الغابة مليئة بنباتات آكلة اللحوم خطرة .

أومأتُ برأسي .

تابعت :

- نظرت الحية إلينا بعينيها الباردتين الخضراوين . أحسســت كيـف تـهتز

الأرض من تحت أقدامنا . كنا نقف على جسم الحية . كانت قد استلقت لتنام ، وهي الآن جائعة ، وكأنما انطلقت من عينيها أشعة جعلتنا في قبضتها مغنطيسياً. أحسست كيف تبرح القوة جسمي . انحنت الحية فوقنا وفتحت شدقيها الهائلين . كانت الأسنان داخل شدقي الحية مثل نوازل جليدية ذاتية الضياء . سمعنا صوتاً. كان ذلك فحيح الحية قبل انقضاضها .

قاطعتها :

-كم كانت ضخامتها ؟

- حسناً ! كان رأسها كبيراً مثل كيس بحارة . لم يكن لدى أي منا قوة للدفاع عن نفسه.ولكنني رأيت فجأة حركة إلى جانبي تبعها مشعل « جاك » مباشرة داخل شدق الحية فأطلقت صرخة أزال عنا تنويمها المغنطيسي . كان في وسعي رؤية تفيف الحية واستعار الدخان من فتحات أنفها وفمها. كانت نظرتها مفترسة . وحين سنحت لنا الفرصة هربنا .

– إلى السفينة ؟

- بلى ، هربنا إلى السفينة ، وفي اليوم التالي لم نر الحية .

-لكن لماذا لم ينم « جاك » مغنطيسياً ؟

– كان قرصان بحر على إحدى عينيه رقعة فنومت الحية إحداهما. ولما تمكن من خلع الرقعة استطاع الرؤية .

- ألم تكن عينه الثانية عمياء ؟

قالت جَدَّتي :

- لا، في الغالب يحمل قراصنة البحر الرقعة على عينهم لأنهم يعتقدون أنها أنيقة . كما تعرف ، القراصنة خيلا ئيون .

– ماذا تعني ؟

- متظاهرون . إنهم مجرد أدعياء !

أومأتُ برأسي .

- والكنز؟

– كان الكنز في مكانه . حفرنا وأخرجناه ومن ثم سافرنا إلى بيتنا.
استلقيت في السرير صامتاً برهة .
قلت :
– جَدَّتي !
– نعم ؟
– كونك ملكة قراصنة البحر فهذا شيء مثير لا شك ؟
- بلى ، ولكن من المحتمل أن أملَّ ذلك أيضاً .
– كيف ؟
- لأنني أريد العودة إلى بيتي لأرتاح قليلاً وأقابلك وأقابل أباك وأمك « سفن Sven » و « مود Maud » وأبويهما و ألعب « البريدج Bridge » مع العجائز وما يماثله من الأمور ...
- إذن أين سفينة القرصنة الآن ؟
- في خليج سري !
- أين يقع الخليج ؟
– لا يمكنني إفشاء سره . ولو فعلت ذلك لما بقي السر سراً.
فكرت برهة .
- لدينا في مزرعتي مغارة سرية .
أومأت جَدَّتي برأسها.
- ولا أنوي البوح بموقعها أيضاً.
قالت جَدَّتي :
- لا ، لا تقل . على المرء أن يترك بعض الأمور سراً .
كان لدي مزرعة رعاة بقر اسمها « Bar 20 » ، تماماً مثل تلك التي كان يملكها « هوبالونغ كاسادي Hopalong Cassady » . كان أسم أعز أصدقائي هناك « برونكو Bronco » ، وعُرِضَ في التلفاز مسلسل عنه أيضاً .
قلت :

- ولدينا أيضاً كنوز يجب أن تكون سرية . كنوز هنود حمر وما يماثلها.

أومأت جَدَّتي برأسها بجد ثانية .

قالت :

- إنني متفهمة للوضع .

قلت مرة أخرى :

- جَدَّتي !

– نعم ؟

– حقاً ، من أين حصلت على سفينتك ؟

قالت :

- عثرت عليها في وسط البحر. كانت هائمة وكل من عليها كان مريضاً. لكنني أسعفتهم .

- كيف ؟

- كان لدي دواء طبعاً ! بعد ذلك أصبحت ملكة القراصنة عليهم .

- أي بحر كان ؟

- ماذا ؟

- في بحر حيث كانت السفينة تطوف هائمة ؟

قالت :

- بحر « هومبولدت Homboldt ».

تساءلت :

- أين يقع هذا البحر ؟ قرب الصين ؟

قالت جَدَّتي :

- لا ، على القمر.

– على القمر؟

- بلى ، تماماً على الطرف الذي نراه من الأرض . تماماً حيث يكون القمر أكثر نحولاً عندما يكون في الأسفل.

- هل هناك بحر على القمر؟
- بكل تأكيد ، هناك بحار كثيرة على القمر.
- لكن كيف وصلت إلى هناك ؟
فتحت جَدَّتي كتاب الغابة ثانية وقالت :
- تلك حكاية أخرى . الآن سنفرغ من قراءة هذا الفصل .

كانت جَدَّتي قد حضَّرت كرات اللحم للعشاء في هذه الليلة . كرات لحم مع مرق وبطاطا وحبات بازلاء محفوظة . كانت البازلاّء المحفوظة ألذ ما نعرفه. أن يترك المرء قطعة زبد تذوب فوقها فلا حاجة إلى أن يأكل شيئاً آخر تقريباً. تناولت طعامي في السرير على ركبتي وجلست جدتي على كرسي قرب النافذة وفي يدها طبق طعام.كان الوقت مساء ، وثمّة صمت وهدوء يخيّمان على البناية . كنت قد سمعت حديث جَدَّتي مع أحد المستأجرين برهة في مدخل الخدمة ، لكنه خرج الآن .

أنهت جَدَّتي قراءة كتاب الغابة بعد الطعام وحكت بعد ذلك عن أول مرة قرأته . بعد برهة قطع حديثها رنين الهاتف . بقيت مستلقياً في السرير أنظر إلى العتمة عبر النافذ ة. كنت أرى الغرفة كلها منعكسة هناك في الخارج : السرير، السقف ، المكتبات والجدران . تناهى إليَّ ، عن بعد ، صوت جَدَّتي تتكلم . بعد ذلك جاءت وقالت إن أمي على الهاتف . نهضت وتحدثت معها بضع كلمات . بردت وتقت إلى السرير. حيّا كلانا الآخر بتحية المساء ، ثم وضعت سماعة الهاتف على القاطع وعدت إلى غرفة النوم راكضاً وتكورت في السرير. غَطَّتْني جَدَّتي باللحاف . كنت قد رأيت أنها جهزت مكان نومها على الأريكة في الخارج . كنت متعباً فتثاءبت .

قالت جَدَّتي :
- ثؤوب و مُتْعَب وتمسّى .

كانت جَدَّتي تقول هذا دائماً. وهكذا كانت أمي تقول أيضاً . لكنني لم أكن أرغب في النوم بعد .

قلت :

- احكِ لي عن بحار القمر .

تساءلت جَدَّتي :

- البحار على القمر ؟

- بلى ، حيث عثرتِ على سفينة قراصنة البحر.

قالت :

- طبعاً ، طبعاً. بلى ، سأحكي عن ذلك . كان هذا منذ زمن بعيد .

- قبل أن تتعرفي على جدي ؟

قالت جَدَّتي :

- بلى ، قبل أن أتعرف إلى الجدّ .

وبعد ذلك بدأت تحكي. ولكن قبل أن تصل إلى بداية الرحلة إلى القمر قاطعتها.

قلتُ :

- توقفي ، توقفي قليلاً ...

تساءلت جَدَّتي :

- هل ستذهب إلى المرحاض ؟

قلت :

- لا ، أردت فقط ....

ولكنني توقفت عن الحديث . فكرت برهة . تثاءبت جَدَّتي ولمست بأطراف أصابعها « البروش » الفضي على سترة ردائها.

قلت :

- بلى يا جدتي . إنني أعرف أن كل هذا غير حقيقي . لكنني برغم ذلك أريد سماعه .

ابتسمت وأومأت برأسها.

- إنني أعرف . قالت وتابعت الحكاية .

4

كانت جَدَّتي تذكر أحياناً أنها تحدثت مع أبي في الهاتف أو أنها استلمت رسالة منه . كنت أتظاهر بأنني غير مهتم فعلاً . أذكر أنه قد وصلتني منه رسالة مرتين أو أكثر . كانت رسائل طويلة ذات رسوم وأشكال صغيرة . عندما قرأتها لي أمي عدة مرات أصبح في وسعي تصفحها وحدي وفهمها بمساعدة الرسوم . كنت أتصفحها أحياناً عندما كانت أمي لا تراني . لا أعرف لماذا أردت تصفحها بينما أمي لا تراني . كان ذلك العمل يبعث فيّ إحساساً جميلاً . كانت أمي قد وضعتها في الدرج بين رسائلها الخاصة ، وحدث أنني تصفحت رسائلها أيضاً ، لكنني لم أفهم شيئاً منها لأنها تخلو من رسوم .

ولكنني لم أقابل أبي غالباً . جاء مرة في زيارة ، لكنه لم يبق أكثر من برهة . أتذكر أنه لم يكن يخلع معطفه الخارجي ، وكأنه كان على عجلة من أمره دائماً ، أو كأنه كان دائماً مرغماً على المغادرة في أي لحظة . كان ما يزال يدخن . كان هو الوحيد الذي ما يزال يدخن . كان الجميع قد أقلعوا عن التدخين : جَدَّتي ، أمي ، الجميع . جلس أبي على الأريكة وهو مرتدٍ معطفه الخارجي ودخن وقرأ مجلة أسبوعية . كنت قد حصلت على عشرة « كرونات »

ورقية وفردتها أمامي وكأنها جريدة صغيرة . لم نتبادل الحديث سوية . بعد ذلك رفع أبي نظره عن الجريدة ونظر إلي .

قال :

- كريستيان .

كان هذا كل ما قاله . قال اسمي فقط . قال اسمي بحيث أن كلينا تمكن من سماعه .

أتذكر أن أبي وأمي وقفا ، ذات مرة ، يصرخ كلاهما في وجه الآخر . وقفا أمام النوافذ في غرفة الجلوس طويلاً وتحدثا. بعد ذلك انخرطا في الصراخ . كنت أقف في الباب المؤدي إلى القاعة وعندما انخرطا في الصراخ تراجعت عدة خطوات . كنت ما أزال أراهما عندما دفعت برأسي من خلف إطار الباب ، لكنني لم أسمع عمَّا يصرخان . كان أبي مرتدياً معطفه الخارجي وأمي مُتَخَصِّرة وكأنها تَدَعَّمُ جسدها. كان ذلك في فصل الخريف وأوراق الشجر في الزقاق صفراء . لربما كانت ستمطر أيضاً. لربما ما كانا ليصرخا لو أن أبي خلع عنه معطفه الخارجي . تقهقرت ودخلت غرفتي وأغلقت الباب عليَّ ، حتى إن أبي لم يودعني عندما ذهب .

كان أبي يكتب إلى جَدَّتي رسائل قصيرة فقط . كانت أحياناً مجرد بطاقة بريدية وعليها بضع كلمات . كان من المحتمل أن يكتب « بخير » ، وتحتها اسمه . كانت جَدَّتي تقول إن هذا يكفيها في معظم الأحيان إذ كانت تطمئن أن كل شيء على ما يرام . كان هذا كل ما تحتاج معرفته . لا أعتقد أن جَدَّتي احتفظت بتلك البطاقات البريدية . على كل لم أرها منذ ذلك الحين .

على أي حال ، عندما كان أبي يهتف فقد كان محتملاً أن تصبح مكالمة طويلة . قالت جَدَّتي إنَّ أبي درج على مهاتفتها قبل الظهر ويثرثر . كانا يتحدثان عن كل شيء . كان يحدثها عن معارف التقى بهم ومن ثم يبدأان في معاتبتهم . كانت جَدَّتي تستلطف حديث الهاتف دائماً ، وكانت أمي تقول إن جَدَّتي مكثارة في الحديث . لو هتفت جَدَّتي فسيعرف المرء أن المهاتفة ستستغرق

عشرين دقيقة على الأقلّ . كان أبي يستلطف ذلك حتماً ، وكنتُ أستلطف ذلك أحياناً كثيرة .

عندما يتحدث المسنون فقد كان متوقّعا أن يتحدثوا عن أشياء رووها مئات المرات سابقاً ، غير أنّ المرء يتركهم يروونها مرة أخرى . روت لي جَدَّتي عن أشياء كثيرة مئات المرات ، ومع ذلك كنت قد نسيت ما روته لي . لربما كنت أعرف أنه سيان إنْ نسيتُ حديثاً ، إذ إنها سترويه حتماً عما قريب مرة أخرى ، ومن ثم ، وذات يوم ، سيفوت الأوان ويبقى الحديث منسياً . من يدري ، لربما على المرء أن يحمل في حياته أشياء منسية ، وتلك الأشياء المنسية يحملها المرء معه في الحياة مثل ثغرات صغيرة خاوية تغدو صماء. وبصدف أحياناً أن أعتبر الإحساس بتلك الأشياء المنسية له أهمية الأمور التي أتذكرها، وكأنما النسيان يكاد يكون ذكرى ، وكأنما النسيان والذكرى لهما القيمة نفسها . لا أعرف !

كنتُ لدى جَدَّتي عندما عرفت ، بشكل ما ، أن أبي سيتزوج مرة ثانية . بدا لي الأمر غريباً ، ولكن لم يكن ثمة شيء في اعتباري . فكرت أن ذلك لا يعنيني . فكرت : حقاً ، سيتزوج أبي مرة ثانية . لم يكن ليهمني . قلما كنت قد قابلت أبي . كنت أعرف أن أبي وأمي لم يعودا زوجين على الرغم من أن أحدهما لم يذكر شيئاً عن ذلك ، وكانت جدّتي تقول إن المرأة التي سيتزوجها أبي لطيفة ، ولم يكن ذلك يعنيني . كنت أتساءل كيف هو شكلها .

كان عيد ميلاد جَدَّتي وكان هناك ناس كثيرون في الشقة . المرأة التي سيتزوجها أبي ستكون أحدهم أيضاً ، لكنني لم أرها قطّ . ربما مَنْ رأيته يجلس على أريكة غرفة الطعام ذات مساند العِكْسِ المدورة كانت هي ، لكنني لا أجزم بذلك . كانت أمي في غرفة أخرى ، ولم يكن أبي هناك . لربما كان ميتاً آنئذ ، ولربما أخطئ بالتذكر كلياً . كنت أجول في الشقة وكنت أرى أنّ ثمّة ناساً كثيرين جداً . كان على طاولة غرفة الطعام شطائر كثيرة وكعكتا عيد ميلاد . كان معظم الموجودين يعرفني ، وكنت أكاد لا أعرف أياً منهم .

في المطبخ كان ثمة بضع عجائز ينظفن الصحون . كنَّ موظفات لبضع ساعات للمساعدة في حفل عيد الميلاد . قلت لإحداهن إنني عطشان ، فقالت إنَّ هناك شراباً غازيّاً على طاولة الطعام . قلت مرة أخرى إنني عطشان فأعطتني عندئذ كأساً من شراب الفواكه . شربت وأنا جالس على أحد كراسي المطبخ قرب طاولة الطعام الصغيرة . نظرت حولي ، كان ثمّة ورق وكرتون تعليب منتشر في المطبخ كلّه . لَوَّحْتُ برجليّ إلى أمام وخلف . كانت إحدى السيدات تنظف الأواني طوال الوقت والأخرى تتردد بين المطبخ وغرفة الطعام عبر ممر الخدمة وهي تحمل أطباق القهوة وفناجينها . سألتني السيدة التي كانت تنظف الأواني عن اسمي ، فأجبتها . نظرتُ إلى الخارج عبر النافذة . كانت السماء صافية مشمسة كما في صيف مُبَكِّرٍ برغم أن عيد ميلاد جَدَّتي يكون في منتصف كانون الأول . نظرت إلى فرن جَدَّتي وفكرت في ذلك اليوم الذي كنت أجعل من حُجَيْرَتِه السفلية دكان بيع خبز بعيد . لم يعد ذلك الفرن هناك . كان هناك فرن لا غير. لم يكن أكثر من فرن عادي .

بعد فترة جاءت « مود Maud » و « سفن Sven » ، ولدا عمي. أكاد ألاّ أكون قد قابلتهما من قبل . كانت جَدَّتي تتحدث عنهما بين وقت وآخر ، غير أنني أكاد ألاّ أكون قد قابلتهما . لا أعرف لِمَ ذلك . كنت أعرف أنهما يسكنان خارج المدينة كما كنت أعرف أن أباهما ، شقيق أبي ، يعمل بكتابة أرقام في دفتر وهو مستلق على سرير معلق ، كما تخيّلت ، ولم أكن قد قابلته إلا لُماماً . كنت أعرف من هو وكيف كان شكله وكنت أعرف اسم أم أولاد عمي ، غير أنني أكاد أيضاً ألاّ أكون قد قابلتهم إلا لُمَاماً .

كان « سفن » يعدو في ممر الخدمة ذاهباً وآتياً وفي يده مصباح يد . كان ضوء ممر الخدمة مطفأً وكانت دائرة ضوء مصباح اليد تتراقص على جدران الممر البنية من التدخين . كانت « مود » تكبرني بعدة سنوات غير أنني كنت و« سفن » بالسنّ نفسها . وعلى الرغم من ذلك فقد كنت أرى أنه يبدو أصغر سناً بشكل ما. أعارني مصباحه برهة .

كان المصباح مسطحاً يضيء بنور أبيض ساطع إلى الأمام ونور أحمر خافت إلى الخلف . كاد طرف المصباح الأحمر أن يشبه صورة عين قطة على مؤخرة دراجة هوائية . كنت قد رأيت مثل هذا المصباح سابقاً. كان فتحه صعباً وفي داخله ثمة بطارية مسطحة تماماً ذات نابضين يشبهان عودي « أيس كريم » قصيرين . كان التيار يسري فيهما ، ولو وضع المرء لسانه على كليهما في الوقت نفسه لشعر برعشة خفيفة وبطعم ملح في فمه . تفحصت مصباح اليد قليلاً لكنني لم أشأ أن أعدو مثل « سفن » في ممر الخدمة . كنت أشعر أنها سخافة بشكل ما. واستعاد « سفن » مصباحه .

قلت :

- إنه جيد !

أومأ برأسه وركض إلى طرف ممر الخدمة الآخر. بعد ذلك أصبحت أمي على عجل من أمرها لكي تغادر الشقة . أعتقد لأنها لم ترغب في لقاء المرأة التي سيتزوجها أبي . كانت غرفة الجلوس تغص بالناس عندما ذهبنا. كانت الشمس قد تسربت عبر النوافذ العالية وباب الشرفة كان موارباً على الرغم من أن الوقت كان منتصف شهر كانون الأول . ونحن في طريقنا لمغادرة بيت جَدَّتي رأيت أحداً يلوح لي بيده ، عن بعد ، من بين الناس . لم يكن شخصاً أعرفه . أو لربما لم أره بوضوح في الزحام . ربّما كانت جَدَّتي ، أو أبي . وقف « سفن » في عتمة البهو ومصباحه في يده تحت علاقة المعاطف . عندما ذهبنا أومأتُ له برأسي مودعاً فردَّ بإيماءة وأنار مصباح الجيب .

كانت أمي مضطربة وقلقة ونحن داخل المصعد في طريقنا إلى الأسفل. ولولا أنها قد أقلعت عن التدخين لأشعلت « سيجارة » . كانت تنظر إلى الطوابق التي تغيب عنا ببطء وكأنما تحثها على العجلة . لكن المصعد ، كعادته دائماً ، كان يتحرك ببطء . تهاويت على المقعد المكسو بالجلد وتساءلت عمَّ سأفكر فيه . فكرت في ورق مرحاض جَدَّتي . كان من أوراق صقيلة مُقَطَّعَة . كان لدى جَدَّتي وجدي ، والدا أمي ، مثل هذا الورق أحياناً. كان صعباً أن يجفف

المرء قفاه به . كان كما لو أنّه ينزلق على القفا فقـط ، دون أي نفـع . وليكـون مفيداً في التجفيف ، فقد كان على المرء أن يَفْرُكَ الورقة بعضها ببعض عدة مرات أولاً ومن ثم يبسطها ثانية وعندئذ تصبح أفضل . كان جـدي قـد حصـل علـى صناديق من هذا الورق من أحد دور التحرير. لابد أنهم قد سئموا استعماله ، كما أظن ، وكانت جَدّتي بَرِمَةً به أيضاً . لكنها قالت إن لديها الكثير منه بحيث إنَّ نفسها لم تطاوعها على رميه . قدّرت أن في وسع المرء أن يصنع منه « عصافير الجنة » ، لكنه بدا لي رقيقاً لمثل هذه الغاية . خبطت أمي بقدمها أرضية المصعد بقلق مرات عديدة وشزرت بنظرها سقف المصعد عـدة مـرات . بعـد ذلـك وصـل المصعد إلى الأسفل . فتحت أمي الباب وسحبتني وراءها أخيراً .

في المرة التالية التي ركبت فيها المصعد كنت في صحبة جَدّتي . كنـا قـد تسوقنا في بقالية « فاللين » وقالت جَدّتي إن المحل سيُغْلَقُ نهائياً عما قريـب. لم يكن السبب موت « فاللين » فقط إنما مثل هـذه المحـلات الصغـيرة لم تعـد تـدر ربحاً. قالت جَدّتي إن هذا محزن ولكن والحال على هذا الشكل فمن الضـروري إغلاقه . بعد ذلك حدثتني جَدّتي مرة أخرى كيف دخلت البقالـة ومعـها سطل الزبالة وكأنني قد نسيت . ضحكت في هذه المرة أيضاً وفكرت أن المصعد لم يُتِحْ لها الوقت الكـافي بحيث تتمكن جَدّتـي من سرد حكايـة اليوم الذي مات فيـه « فاللين ».

كنت وجدتي وحدنا في الشقة . كان الوقت شتاء والثلـج ينـدف بكثافـة حول تلِّ المرصد و « أودنبلان » . كانت جَدّتي قـد فرغـت لتوهـا مـن تحضـير شاي فجلسنا في غرفة الجلوس ننتظر أن ترسب أوراقه وتبرد قليـلاً. كـانت صـور كل أفراد أسرة جَدّتي منتصبة على الطاولة الصغيرة أمام المكتبة . كان ثمّـة صُوَرُ لجدي وأبي وعمّي وأولاد عمي ولي وكذلك صُوَرُ لآخرين لا أعرف أسـماءهم . كانت جَدّتي تحدثني أحياناً عن أقـارب لم أقابلـهم قـط . كـانت تحدثـنـي عنـهم وكأنهم جزء مني ، ومع ذلك كنت أعرف أنني لن أقابلهم قـط . وعلـى الطاولـة كان كتاب « الكونت مونت كريستو » الذي تقرأه لي جَدّتي ذلك الوقت .

تَرَجَّلْتُ وتقدمت إلى النافذة ونظرت إلى الثلج في الخارج . كان الناس يتعثرون ويَزْلِقون على طين الثلج الذي نزل كثيفاً بحيث أن عمال التنظيف لم يتمكنوا من جرفه عن الأرصفة . كانت السيارات تتزحلق على الطريق وبدا أن بعض السائقين يواجهون مشكلة في صعود تلّ « أودنغاتان » المتجلد . كانت إطارات سياراتهم تدور حول نفسها وترشق كتلاً صغيرة على غطاء الإطارات الخلفية ، وتزحلقت سيارات أخرى على سكة القطار الكهربائي . كنت أسمع كيف يتناهى إليّ صوت جرس القطار خفيفاً عبر الثلج الكثيف . كانت سيارة نقل عامة قد تزحلقت على السكة وسَدَّتْ الطريق . تطاولت بأصابع قدميّ لأتمكن من النظر إلى الأسفل بشكل أفضل .

كانت ثمة شرفة أمام زوج من نوافذ غرفة الجلوس ، لكنني لم أر أحداً عليها إطلاقاً. كان يصدف أن أقف في فتحة الباب عندما يكون باب الشرفة مواربا أحياناً ، لكنني لم أجرؤ على الخروج إلى الشرفة إطلاقاً. كان السياج قصيراً ويبدو لي غير محكم التثبيت فكنت أخشى الميلَ والسقوط على رأسي في الشارع . إنني مصاب بالدوار دائماً . كانت جَدَّتي قد حدثتني أن أبي مصاب بالدوار أيضاً . قالت كان يكفي أبي رؤية أحد يخرج إلى الشرفة لكي يصيبه الدوار. لم يكن بحاجة إلى الخروج بنفسه إلى الشرفة بل يكفيه خروج غيره ، وهكذا كان حالي أيضاً ، لكنني كنت لا أخاف لو وقفت أمام الزجاج .

بلغني سؤال جَدَّتي من خلف ظهري :

- ألم تصح السماء بعد ؟

شخصت ببصري نحو السماء . كانت جملة واحدة من ندف متلولبة لا يكاد المرء يرى من خلالها البنايات على تلّ المرصد .

قلت : لا ، لا أعرف . لا أعتقد ذلك

قالت جَدَّتي :

- إن صحت السماء حتى المساء فسيمكننا رؤية خسوف القمر.

رجعت إلى الأريكة وجلست ثانية . كانت جَدَّتي تجلس على متكئها وقد

بدأت صبَّ الشاي . كان ثمّة مصباح واحد يضيء الغرفة . كان ذا قاعدة معدنية صفراء من الرخام الذي ينتصب على الطاولة أمام المكتبة ، وكـان يرسـل ضـوءاً أصفر خافتاً دافئاً . صبّت جَدّتي حليباً في كوبي ووضعته أمامي .

تساءلتُ :

- ما الخبر ؟

قالت جَدّتي :

- خسوف القمر. يصبح قاتماً لأن الشمس تحجبه . القمر نفسـه لا يضـيء بل أشعة الشمس هي التي تنعكس ... أو ، أعني ، أن الأرض هي التي تحجب الشمس بحيث أنها لا تنير القمر ولذا فإنّه لا يضيء الأرض ...

لم يكن لدى جدتي موهبـة لشـرح أمـور فنيـة . ألقيتُ بقطعتـيّ سـكر في الشاي وحركته .

تابعتْ :

- على كل يصبح القمر ، أو جزء منه ، قاتمـاً معتمـاً. القمـر يسـتقر في الظل . يخبئ نفسه في الظل ، وقلما يحدث هذا . أعتقد أنّه يحدث كل سنتين أو ما يعادلهما. كان هذا مكتوباً في جريدة « أخبار اليوم » عدد هذا اليوم .

رشفتُ قليلاً من الشاي الحار .

سألتُ :

- متى إذن ؟

قالت جَدّتي :

- هذا المساء .

- بلى ، ولكن متى ؟

قالت جَدّتي :

- في وقت متأخر. ولكنني لا أعتقـد أن في وسـعنا رؤيـة شـيء في هـذه العاصفة الثلجية .

كان هناك كعك مدهون بالزبدة والمربى في صحن علـى الصينيـة. أخـذت

واحدة وغمستها في الشاي قليلاً. كان غير مستحسن أن تُغْمَسَ طويلاً. من المستحسن أن تُغْمَسَ بحيث يتسنى للكعكة امتصاص قليل من الشاي الساخن قبل أن تبدأ الزُّبْدة بالذوبان .

كانت جَدَّتي تجد دائماً صعوبة إزاء الأمور الآلية ، وكان يصدف أن تعكف دهراً على غطاء علبة تعتقد أنها مدوّرة إلى الطرف المعاكس . كان ممكناً أن تقضي نصف يوم لتستنتج كيف تُسْتَخْدَمُ إحدى آلات المطبخ . أتضايقُ دائماً عندما لا يستطيع الناس فتح علبٍ الغاية منها أن تُفْتَحَ . بعضهم يمزق علبة كرتون يمكن فتحها بكل سهولة ، على المرء أن يتبع التعليمات فقط . لم تستوعب جَدَّتي إطلاقاً كيف تفتح علباً بشكل صحيح . لكنها لم تكن تيأس ولذلك فقد كانت تمزق العلبة الورقية .

أَوَّلَتْ جَدَّتي سبب عدم حذقها بأمور آلية بأنها عسراء ولم يُسْمَحْ لها أن تكون عسراء عندما كانت طفلة . أُجْبِرَتْ في المدرسة على الكتابة باليد اليمنى . وكيلا تخرج يدها اليسرى وتُعينَ في إنجاز عمل فقد كانت تضطر في البيت أحياناً إلى إخفائها تحت الطاولة . وعلى الرغم من هذا فقد كان يصدف أحياناً أن ترسم بيدها اليسرى ، أما أن تكتب شيئاً فإنها لم تجرؤ على ذلك . وإن كتبت بيدها اليسرى فقد كان في وسعهم اكتشاف غشّها. لكنها كانت تجرؤ على الرسم باليد اليسرى . قالت إنها عندما كانت ترسم بيدها اليسرى فقد كانت ترى الأمور بشكل أوضح ، وقد اكتشفوا ذلك أيضاً ، فأرغمتْ على الرسم بيدها اليمنى ثانية .

حكت جَدَّتي أنها أحسّت بالروعة عندما أمسكت لأول مرة بمقص مخصص للعسراء . أحسّت كما لو أنها كانت ستطير تقريباً. كانت كل الحركات وكأنها قد أُخْرِجَتْ من مخبئها. لكن الفرصة فاتت . لم يكن في وسعها الآن استخدام أي من يديها بشكل صحيح . زد على ذلك أن أصابعها بدأت تتصلّب . لم يكن في وسعها مثلاً ثني سبابتها كاملاً. قالت إن سبابتها والندبة في الرأس يغدوان قريني ألم عندما لا يتمكن الطقس من الثبات على قرار . قالت

إن جسدها كلّه يتأثر بالطقس . ولما قالت ذلك فكرت في جـدي ، والـد أمـي . كان أحد إبهامي رجليه يتأثر بالطقس . كان يطلق على ذلك الإبهام اسم نبيذ ، لكنني لم أستوعب أبداً الصلة بين الاثنين .

حلَّ الغروب أكثر وعما قريب ستطلب مني جَدَّتي أن أشعل مصابيح أكثر في الغرفة . جلست صامتاً أرشف الشاي الحارة الحلوة . كنا سنتعشى فتـائل لحم خنزير مع بطاطا ومرق . هيأت جَدَّتي مرقاً خاصـاً بالفتـائل مـن فِطـرٍ وقشـطة ، وحبٍّ « الصويا » وقليلاً من لَبَأة البقر.

درجت على القول :

- قليلاً فقط . لا يجوز أن يكون كثيراً من لَبَأة البقر كيلا يطغى طعمها .

وطبعاً ، بعد ذلك ، حب البازلاّء المحفوظة . كنت وجدتي نأكل البازلاّء المحفوظة دائماً عندما نتعشى سوية . كان مكتوباً على الصفيحة « Petit Pois » كانت الكلمات فرنسية وتعني حبات صغيرة . قالت جَدَّتـي إن البـازلاّء هـي الخضـرة الوحيدة التي اخترعها الإنسان ، غـير أننـي لم أكـن واثقـاً فيمـا تعنيـه بذلك .

لم يكن لدى جَدَّتي مانع في احتساء النبيذ ونحن نأكل . وكانت تعتقد أن مرارة النبيذ الأحمر أكثر مما يجب فلذلك كانت تضع قطعة سكر في الزجاجـة . وإن كان بارداً أكثر مما يجب فقد كـانت تضعـه علـى المدفـأة وقبـل أن تقدمـه كانت تصبه في قارورة . قالت إن ذلك كي يتنفس النبيــذ قليـلاً . وكـانت تقـدم إلى جانب القهوة « عنبرية كرز » تُصَنِّعُها بنفسها . كانت تحب شرب كأس نبيذ وهي تتناول الطعام . وفي هذه الحال كانت تضع كـؤوس الكريسـتال التـي حُفِـرَ على جوانبها رسم صليب ، ولو نَقَرَ المرء على حرفـها بملعقـة أو سـواها لانبعـث منها رنين فخم رخيم .

كانت الطاولة إلى جـانب الأريكـة تنتصـب علـى سـاق واحـدة وثـلاث دعامات تبرز إلى الخارج . كانت مثل زلاّجات صغيرة . عندمـا كنـت أجلـس ، دون جوارب ، على الأريكة في شقة جَدَّتي كنت أضع قدمي أعلى ما يمكـن علـى

الزلاّجة وأرقب إن كان باستطاعتي تثبيت قدمي . لكن قدمي كانتا تنزلق فوراً فأعيد وضعها مرة أخرى . وبذلك كانت قدماي دائمتي الحركة تحت الطاولة عندما لا يكون هناك شيء آخر أقوم به لدى جَدّتي . درجت أمي على سؤالي لماذا لا أستطيع الجلوس هادئاً ، ولم تكن لديّ إجابة .

تساءلت جَدّتي :

- هل قصصت عليك حرب قوارب الأرخبيل* قرب « فوروسُند Furusund » ؟

كانت قد روتها لي عدة مرات ، لكن الحكاية كانت إحدى تلك الحكايات التي تعمدت نسيانها كي تتاح لي فرصة سماعها ثانية .

- لا . قلت وتوقفت قدمي تحت طاولة الأريكة .

كانت الحكاية تدور حول بضع شركات ملاحة في الأرخبيل تتخاصم بشأن خطوط ملاحة معينة . تعودت جَدّتي وجدي استئجار بيت صيفي قرب « شوبمانهولم Kopmanholm » ، وهنالك نشب نزاع كبير بين شركتي الملاحة . أفضل ما أذكره أن إحدى شركات الملاحة مُنِعَت من أن ترسو سفنها قرب رصيف الميناء ولذلك بدأت ترسو قرب صخور منبسطة ، وعندما علمت الشركة الأخرى بذلك دهنت الصخور بمعجون تنظيف مما جعل الركاب يتزحلقون ويهوون إلى الماء ، غير أنّ النزاع حُلّ بطريقة ما ، لا أتذكرها بالضبط .

درجت على التفكير بأن معجون التنظيف هو شمع التلميع الذي تدعك به جَدّتي أرض الغرفة الخشبية أحياناً . كان ثمّة آلة كبيرة لديها تدعك وتُلَمِّعُ بها أرض الشقة . كانت كبيرة وفضية ذات مقبض ولها ثلاث فراشٍ على طرف سفلي يدور عندما تشتغل . عندما سألت إن كانت تسمح لي بتجريبها ، قالت جَدّتي إنها ثقيلة لدرجة أن طفلاً لا يمكنه التحكم بها ، لكنها سمحت لي على كل حال . كانت جَدّتي على حق ، لم يكن التحكم بها ممكناً. انطلقت الآلة بسرعة نحو المكتبات ولولا أن جَدّتي قطعت تيار الكهرباء لسحبتني معها. كانت تفوح

دائماً رائحة متميزة عندما تكون الأرضية حديثة التلميع. لم تكن رائحتها مثل رائحة الغسيل عندما يُغْسَلُ ويُعَلَّقُ ليُجفَّف . ولم تكن رائحتها تشبه رائحة غرفة مطلية بالدهان أو ملصَق عليها ورق جدران جديد . عندما كانت الأرض حديثة التلميع كانت رائحتها رائحة مكان مأهول . كنت أحب هذه الرائحة في شقة جَدَّتي .

زد على ذلك أن شمع التلميع يجعل الأرضيات ناعمة يسهل الانزلاق عليها. ولو تحفز المرء واندفع على ركبتيه لتمكن من التزحلق عليها. وبعد قليل تصبح أقدام الجوارب لَمَّاعة . كنت أُحَفِّزُ نفسي أحياناً واندفع على ركبتيَّ فتصبح ركب السروال لَمَّاعَة من شمع الأرض . لم تكن أمي تستلطف ذلك ، لكنها لم تزجرني أيضاً. لابد أنها كانت تعتبر الأمر قد حصل وانتهى. اعتادت جَدَّتي أن تقول : إن لم يمسك المرء الآلة بإحكام فمن المحتمل أن تنطلق وحدها بشكل عشوائي. وعندما كانت تقول ذلك فقد كنت أتخيل حال الشقة فيما لو انطلقت آلة التلميع وحدها وقلبت أرائك ومكتبات وطاولات .

بعد ذلك حدثتني عن كلب كانوا يقتنونه وأصاب معدته الدود واضطروا إلى أن يسقوه « كونياك » . كان الكلب يتقَلَّبُ على السجادة إلى الأمام والوراء دون أن يعرف ما يفعله بحاله ، ثم وقف وبصق وتخلص من الدود أخيراً . كانت هذه إحدى تلك الحكايات التي أنساها بين حين وآخر. بعد ذلك طلبت مني أن أشعل بضعة مصابيح في الغرفة ومصباحاً في غرفة الطعام أيضاً . مَطَّت جذعها نحو كتاب « مونت كريستو » وهي تسأل إن كنا سنقرأ قليلاً قبل الطعام . جلست على الأريكة ، بعد أن أضاءتُ المصابيح ، وأنصتُّ إلى جَدَّتي وهي تقرأ. كان الثلج ما يزال يندف في الخارج ، قدّرت أن النُدَفَ لم تكن كثيفة وأن في وسع المرء رؤية السماء القاتمة الزرقة وأضمومات النجوم البراقة الصغيرة من بين النُدَفِ . قدّرت : لربما يتحسن الجو بحيث نستطيع رؤية خسوف القمر على كل حال .

استلقيت على سرير جَدَّتي وانتظرت . كنا قد فرغنا من أكل العشاء

وتنظيف الأواني وقرأنا من « مونت كريستو » مرة أخرى . استلقيت انتظر خسوف القمر . كانت جَدَّتي مشغولة بإعداد فراش لها على أريكة في غرفة الجلوس . كان في وسعي سماعها تدندن قليلاً . فكرت : قريباً يصبح الليل أسود عندما يختبئ القمر في الظل .

ناديت :

جَدَّتي .

- ماذا ؟

- متى خسوف القمر ؟

- يتأخر بعض ساعة أخرى.

تثاءبت وقلت :

- سأكون صاحياً .

تقدمت جَدَّتي إلى فتحة الباب ووقفت . أومأتْ برأسها وضحكتْ ومن ثم تقدمتْ إلى النافذة . هيئ إليَّ أنني أرى بضع ندف ثلج تتلولب على ذاتها في الخارج . قدّرت أنه ربما كان بعض ثلج رماه الهواء عن السقف . انحنت جَدَّتي إلى الأمام داخل هيكل النافذة ونظرت إلى السماء القاتمة .

قالت :

- لربما تصحو السماء قليلاً .

سألت :

- هل كان خسوف القمر أيضاً عندما عثرتِ على سفينة القراصنة ؟

- ماذا ؟

- سفينة قراصنة البحر. هل كان خسوف القمر أيضاً عندما عثرتِ عليها ؟

قالت وقد فطنت :

- بلى ، بلى ، كان خسوف قمر جزئي . ليس كلياً. استرح الآن ريثما أفرغ من تحضير فراشي على الأريكة في الداخل .

تثاءبت مرة أخرى وسحلت بين الوسائد . قلت :

- ولكن إن نمت ؟. لا أريد أن أنام .

- لو نمتَ فإنني سأوقظك عندما يحين الوقت .

تقدمت إليَّ وسحبت الدثار فوقي .

تساءلت :

- هل تعاهدينني ؟

- بكل تأكيد . لنرَ إن صحت السماء .

استلقيت صامتاً برهة بينما كانت جَدَّتي تلتقط ثيابي عن أرض الغرفة وتضعها على كرسي .

تساءلت :

- كيف استطعت رؤية شيء على البحر وقد كانت الليلة بهذه العتمة .

قالت جَدَّتي :

- سوف أقص عليك . إن بحر « هومبولد » في الحقيقة بحر يضيء نفسه بنفسه ، كما تعرف .

تتلاطم الأمواج بشعاع براق باهت . كل شيء مثل مسودة صورة فوتوغرافية . كما تعرف عندما يكون الأسود أبيض والأبيض أسود. إلا أن الأبيض ليس أبيض فقط ، إنه أصفر وأخضر مختلط ببعض قطرات من أزرق غامق أيضاً. كانت سفينة القراصنة مثل ظل قاتم أسود على سطح البحر الأبيض . وعندما تمخر مقدمة السفينة الماء الوامضة كانت المويجات تلمع .

قلت مستغرباً :

- لا ، غير معقول !

قالت جَدَّتي :

- بلى .

تساءلت مستغرباً :

- أليس البحر ذاتي الإضاءة ؟

قالت جَدَّتي :

- بكل تأكيد . استرح الآن .

رفعتْ كأس ماء فارغة عن خزانـة السـرير الصغـيرة وخرجـتْ إلـى غرفـة الجلوس . كان في وسعي سماع نقل مساند الظهر ووسائد الاتكاء عن الأريكـة . وكان في وسعي رؤية ظلها يتحرك فوق إطار الباب أحياناً. ولطرفة عين ، وبينمـا هي تهمُّ في بسط الشرشف على الأريكة ، بدا الضوء في كل غرفة الجلوس وكأنـه يتبدل . عندما فرغتْ من إعداد الفراش خرجتْ إلى المطبخ . فكرت: الآن تضع جَدَّتي كأس الماء الفارغة فوق المجلى . سمعت كيف يجري ماء الصنابير وكيـف أطفأتْ النور في المطبخ وكيف مشت بعد ذلك عـبر ممـر الخدمـة . أُغْلِـقَ البـابُ الخارجي في الطرف القصي من الشقة . كان المستأجر لدى جَدَّتي قد حضـر إلـى البيت وكان في وسعي سماع تحيتها له وكيف تبادلا بعض الكلمات . بعد ذلـك عادت إلى غرفة الجلوس وجلست علـى متكئـها. سـعلتْ ، ثـمّ سـاد الصمـت . حدّثت نفسي : الآن تقرأ جَدَّتي كتاباً .

عندما نظرت نحو السقف كان باستطاعتي رؤية كيـف يطـوف ارتـداد نـور مصابيح السيارات عليه قرب حرف النافذة العلوي . لكن الصمـت كـان شـاملاً . كان صوت إحدى عربات القطار الكهربائي وهي تحـاول جَـرَّ نفسـها إلـى أعلـى هضبة « أودنغاتسباكّه Odengatsback » ولولا هذا الصوت الذي يُسْمَعُ لكان الصمت مطبقاً . بدا لي أن الثلج يقتنص الأصوات كلها ويبتلعها، أنه يخفي كل شيء ، وفي داخله يمكن أن يوجـد كـل شـيء . وتذكـرت كيـف سـألت ، ذات صيف ، شخصاً عمّ يوجد في السحابات البيض السابحة في سـماء تموز الزرقـاء الصافية ، وذاك الذي سألته قال إنه ثلج ومطر . بدا لي غريبـاً أن يكـون هنـاك ثلج في السحاب ونحن نرتدي سراويل قصيرة ونحتذي صنادل .

- الثلج موجود دائماً ، كان جواب الذي سألته . الثلـج موجـود في كـل مكان ، في كل السحب .

- وفي السحب في أفريقيا أيضاً ؟ كنت قد سألت .

- بلى ، لربما هناك أيضاً ، كان جواب من سألته .

ربما كان أبي من سألته . لم أعد أذكر .

دخل الثلج غرفة نوم جَدَّتي أيضاً . أصبح كل شيء من حولي أبيض ببطء . لهنيهة لم أكن أعرف إن كان الثلج أم أوراق جدي غير المكتوبة ما يتساقط . كانت الغرفة تبيضُّ أكثر فأكثر وكنت أغطس تحت اللحاف أكثر وأكثر كيلا أبرد . حسبت الثلج يتساقط ببُطء لدرجة أنه كاد أن يقف في الهواء . بعد ذلك أدركت أنه لم يكن الثلج ما يتساقط إطلاقاً. كانت أوراق جدي غير المكتوبة حقاً . لكنني أستطيع الآن رؤية شيء مكتوب على كل واحدة منها. كان الصمت مطبقاً على الغرفة والأوراق تتابع تساقطها ببُطء .

بعد ذلك وقفت جَدَّتي منحنية فوق السرير وهزتني برفق من كتفي . كان في استطاعتي سماع ترديدها اسمي مرة تلو الأخرى . كانت ترتدي معطف جدي الصباحيّ المبرقش فوق منامتها الزهرية الفاهية وكانت تحتذي نعال جدي القماشية الكبيرة .

قالت :

- كريستيان ، كريستيان ، إنه خسوف القمر. لقد خُسِفَ القمرُ الآن .

جلست متنبهاً وعركت عينيَّ. مسكتني جَدَّتي من يدي وسحبتني من سريري . تقدمنا إلى النافذة .

أشارت نحو السماء وقالت :

- أنظر! لقد تحسن الجو والغيوم قد انجلت . أترى ذلك ؟ الآن ليس القمر أكثر من خيط خارج ظل خيمة الكرة الأرضية .

تساءلت :

- خيمة الكرة الأرضية ؟

– هكذا تدعى . أجابت جَدَّتي .

رأيت خطّاً من القمر رقيقاً يضيء نحونا. أما باقي قبة السماء فقد كانت تنضح شعاعاً عميقاً يشوبه لون نحاسي .

قلت :

- الظلُّ ليس معتماً ؟

قالت جَدّتي :

- ليست هناك عَتَمَةٌ حقيقية .

كان القمر كله تقريباً قد اختفى الآن في الظل وهو يرسل شعاعاً خافتاً مثل صحن نحاسي قاتم . أخذت جَدّتي بطانية ملقاة فوق كرسي ولفتها حولي .

قالت :

- أترى ؟ ليس هناك الآن أية موجة فوق بحر القمر.

تساءلت :

- هل هي عتمة شاملة على القمر الآن ؟

قالت جَدّتي :

- لا ، البحار تنام وتتنفس وتحلم . تفتمُ ألوانها فقط. ألا تعرف أن ألوان كل شيء تصبح قاتمة عندما تحلم ؟

سألت :

- بماذا تحلم بحور القمر ؟

بحر « هومبولدت » يحلم بقعر سفينة قراصنة مستدير. بحار أخرى تحلم أحلاماً أخرى . رُبّ بحر يَحْلُمُ لو أنّ العاصفة لم تكن .

جلست على كرسي قرب النافذة ولففت البطانية حولي أكثر. تثاءبت وشخصتُ نحو القمر. بدا لي ما فوق القمر هادئاً جداً. نام كل شيء. كانت النجوم تتلألأ نائمة وسحابة وحيدة تبحر نائمة والليل يغني نائماً. وعلى الرغم من أن ثمّة سيارة ما كانت تمر بين الفينة والأخرى في « أودنغاتان » فإن كل شيء نام . نام كل شيء .

سألتْ جَدّتي :

- هل تريد الاستلقاء في الفراش ثانية ؟

هززت رأسي نافياً وقلت :

- لا !

بعد ذلك نظرتُ حولي في الغرفة . كانت أوراق جدي غير المكتوبة منشورة في كل مكان ، وكان في وسعي رؤية كل سطر منها مكتوباً بخط جميل رفيع .

قلت :

- إنها حقاً أوراق جدي .

التقطت جَدَّتي بعض صفحات عن الأرض وقالت :

- بلى .

إنهم سيرحلون الآن . القمر يدخل ظل خيمة الكرة الأرضية لِيُحْضِرَ إليه كلَّ ما ليس له مكان على الأرض بعد . لقد أزف الوقت .

تساءلت :

- إذن كيف يعرف القمر متى يأزف الوقت ؟ كيف يعرف القمر هذا ؟

وقفت جَدَّتي وبصَّت بعينها بضعة سطور على إحدى الصفحات وعندما أجابت بدت وكأنها غافلة .

قالت :

- لا يعرف القمر ذلك . **القمر لا يعرف.**

بعد ذلك قرأت بصوت عال من إحدى الأوراق التي تمسكها بيدها. قرأت وهي تبتسم :

- هنا عندما سافرنا إلى [هَرنُساند Harnasand] وكنا مخطوبين حديثاً. كانت لدى الجد قبعة جديدة وقتئذ ، وعندما ركبنا عربة القطار من المحطة طيرها الهواء .هنا عندما كان يهبط درجاً في [سُندسْفال Sundsvall]. أعتقد أنه كان مخموراً بعض الشيء .

رفعتْ بعض صفحات أخرى عن الأرض .

- هاهي ذي ، إحدى اللواتي خانني معهنّ . وهنا وهو يزجر صبيانه . هنا المعطف الذي أهداني إيّاه في أحد أعياد ميلادي . هنا يستلقي محتضراً . هنا يقف ويصطاد السمك في [فوروسُند] .

نظرتُ إلى الأوراق ذات النصوص البنية القاتمة المشعة .

تساءلتُ :

- هل كلُّ ما قُلْتِهِ مسجل في الأوراق ؟

قالت جَدَّتي :

- بلى ، والآن ضاق المكان بهم .

بعد ذلك فتحت النافذة فانداحت حفنة ثلج إلى داخل الغرفة . تلولبت بضع ندف في فتحة النافذة ومن ثم تابعت نحو الشارع . رفعت قدميَّ عن الأرضية وتكورت على نفسي تحت البطانية . كان الجو بارداً ، ومع ذلك غير بارد. كان الهواء ينسم ، لا أكثر. تلولبت الأوراق على نفسها ببُطء وتأنٍّ متناثرة في الغرفة وكانت الستائر ترفرف بهدوء مستجيبة للريح .

قالت :

- لم يعد هناك متسع لهذا بعد .

وبعد ذلك رمت الأوراق ، واحدة تلو الأخرى ، عبر النافذة . جلستُ على الكرسي متكوراً على نفسي أنظر كيف كانت الأوراق تحط متهادية على القمر ذي اللون النحاسي .

5

بعد ذلك لم ألتق جدتي كثيراً خلال سنة تقريباً ، وعلى النقيض من ذلك فقد قابلت أبي بضع مرات . تزوج أبي مرة أخرى ومكثتُ لديه أسبوعاً في الصيف وخلال عطلة الشتاء . كانت زوجة أبي لا بأس بها. جلسنا في ذلك الصيف سوية يومين أو أكثر على رصيف القوارب وقرأنا [هكلبري فين] . ولم يكن في ذلك ما يُشَارُ إليه .

ذات مرة كان مقرراً أن يقابلني أبي ونحضر [يوم الأطفال] في [فاساباركن Vasaparken] لكن أبي لم يحضر ، بل حضرت زوجته بدلاً منه . اشترينا عدداً لا يحصى من أوراق اليانصيب وربحتُ تسعة [حيوانات أليفة] ذات أحجام مختلفة . أكلتُ نقانق ساخنة وسكراً مغزولاً وركبت الإطار الدوّار ، لكن أمي غضبت عندما رجعتُ إلى البيت . قالت أن لا يحضر أبي بذاته بل يرسل زوجته الجديدة فهذا أحد خصاله المُعتادة .

ولو أتيحت الفرصة لجدتي لربما قالت :

- بالطبع ، مثل بائع الجملة..

قالت أمي إن وَعَدَ المرء بصحبة ابنه فعليه أن يَصْدُقَ وعده وألا يرسل شخصاً آخر بدلاً منه . أدركتُ ما كانت تقصده ، لكن الأمر ما كان ليضيرني

كثيراً . لقد ربحت تسعة حيوانات أليفة . كان كـل شـيء حسـناً. لم يحـدث أي شيء. لكن أمي قالت إن من واجبه ألا يتصرف على هذا النحو.

على كلٍّ كنت ذات أحد في زيارة جَدَّتي . كان ذلك في يوم خريفي ولون ورق الأشجار على هضبة المرصد أصفر وأحمر. كنا قد تناولنا طعام الغذاء وفي نيتي الذهاب عصراً إلى السينما في [سفيبيافيغن] . كانت هذه أول مـرة أذهـب فيها إلى السينما وحـدي . كـان اسـم الفيلـم [الريشـة البيضـاء] ، بـالألوان والشاشة العريضة و يدور حول الهنود الحمر وبضعة من البيض الذيـن يتحـاربون للاستيلاء على ريشة بيضـــاء. كان مثيراً للغايـــة . اشتريت حلوى وبسـكويت [شوكو] بالنعناع لآكلهما خلال عرض الفيلم إلا أننـي أتيـتُ عليـها قبـل أن تنتهي الإعلانات التي تسبق الفيلم عادة .

عندما خرجت من السينما كانت تمطر قليلاً فأغذذت الخطا للوصول إلـى [أودنغاتان] . كنت بحاجة إلى أن أبول لكنني لم أشأ العودة إلى السينما تحت المطر ولم أكن متأكداً مـن أن ثمـة مرحاضـاً أيضـاً . قـدّرت بـأنني سـأتمكن مـن الصعود إلى جَدَّتي . كان خلف عضوي تماماً يحرق قليـلاً فضغطـت سـاقيَّ علـى بعضهما بعضاً وأنا أركض صاعداً [أودنغاتان] . فكرت مرة أخـرى أن الفيلـم كان جيداً للغاية وأنني سأحكي لجدتي قصّته . ضغطـت علـى الـزرّ قـرب إطـار الباب فانبعثت طَقَّةٌ في القفل . دفعت الباب فشممت رائحة الخـبز السـاخن علـى الرغم من أن اليوم أحد والمخبز مغلق . ركضت إلى المصعـد وسـحبت السـياج بشدة وأقفلت بعدي . ضغطت زر الطابق الخامس .

تمكنت من تمالك نفسي حتى باب جَدَّتي. فكرت وأنا في المصعد في أحـد مناظر نهاية الفيلم . كانت ثمة فسحة على حقل أخضر واسع في غابة الهنود الحمر وكان هناك رئيس لهم ينازل رجلاً أبيض . كـان الأخـير مرتديـاً ملابـس جلـد غزال مثل تلك التي تعَوَّدَ [دافي كروكت] ارتداءها. انتهى النزال بقتل الـهندي الأحمر ، ولكن وعلى الرغم من موته فقد بدا وكأنه قد انتصر. رفع جثتـه أحـد الهنود الحمر الآخرين وهو مـا يـزال يمسـك بيـده المسـجاة علـى صـدره الريشـة

البيضاء وقطع به الحقل . قُتِلَ ولكنه برغم ذلك انتصر. لم أفهم ذلك بالضبط .

ضغطت زر جرس الباب . سمعت كيف فتحت جَدَّتي الباب بين صالة الطعام والقاعة كما سمعت صوت عبورها القاعة ، لكنني بالرغم من ذلك لم أستطع تمالك نفسي . أحسست بالبول أولاً دافئاً وناعماً في سروالي ومن ثم حرقة في باطن ردفيّ . هزّتني رُعشة عندما تراخى عضوي . قلت لجدتي مباشرة عندما فتحت الباب إنني لم أتمكن من تمالك نفسي . دخلتُ وخلعتُ الحذاء وخلعت جوربيّ والسروال الداخلي . اضطررت إلى غسيل نصفي السفلي في حوض الاستحمام بينما جَدَّتي كانت تغسل السروالين الداخلي والخارجي . اضطررت إلى استعارة المعطف الصباحي لجدي . نشرتْ جَدَّتي السروال الداخلي والخارجي على المدفأة في غرفة الطعام .

قالت :

- سيجفان عما قريب . وبالمناسبة كيف كان الفيلم ؟

- جيداً ! قلت وحكيت لها عن المعارك التي دارت من أجل الريشة البيضاء .

ولكنني قلّما زرت جَدَّتي في مناسبات أخرى . لا أعرف لماذا ، أعتقد أن ذلك قد حدث فقط.فكرت ، ذات ليلة ، في الحلم ، أن هذا مثل لعبة المدى . حلمت أنني أقف تحت فضاء واسع ، لانهاية له ، وكان الوقت ليلاً والنجوم تتراقص . أيما نظرت من حولي كانت ثمة مسافة بلا نهاية. صُوِّرَ لي أن بضعة أنوار صغيرة تومض بعيداً وكأنها قد حطت على خط الأفق تلعب مع بعضها بعضاً. كان هدف اللعبة أن تحاول كل نجمة اقتناصي داخل هالتها. وقفت حائراً دون مرشد أتساءل أين مقرّي ؟ . كانت جَدَّتي في زاوية ما ضمن الحلم أيضاً لكنها لم تسعَ إليَّ . كانت تنتظر فقط . كان كل شيء آخر بعيداً بعداً سحيقاً والمسافات بدون نهاية .

ربما لم ألتق جدتي لأنني بدأت المدرسة وانشغلت بالتفكير في أمور أخرى كثيرة . كأنما أصبح للأيام نظام آخر عندما بدأت المدرسة . كان الوقت ينقضي

ببطء أكثر وبسرعة أكثر في نفس الوقت . ربما سألتُ أمي مرة ما عن حال جَدَّتي ، لكنني لا أتذكر الجواب المحتمل الذي أكون قد حصلت عليه .

أعتقد الآن أنني لم ألتقِ بجدتي لأن أبي كان يحتضر. لم يقل لي أحد إنه يحتضر. آخر مرة كنت في زيارته كانت في عطلة شباط وقصصت آنئذ مسدساً من ورق قرب طاولة كتابته ، وكان قد أقلع عن التدخين ويتناول نصف حفنة من حبوب دواء ثلاث مرات يومياً. كان نحيلاً جداً أيضاً. كان أحياناً وكأنما يُرَقُّ إلى لاشيء تقريباً. ولكن لم يخبرني أحد أنه يُحْتَضَرُ. لابد أنهم اعتقدوا أنني سأدرك ذلك وحدي . عندما أفكر في هذه الحكاية التي أحاول حكايتها يخطر في بالي أن معظمها يدور حول أناس يُحْتَضَرون . لكن ليس في اليد حيلة والوضع كذلك . كان الحال هكذا لا غير .

عندما علمت بوفاة أبي كنت في زيارة جَدَّتي وجدي ، والدَي أمي ، في [سمولاند]. رنَّ جرس الهاتف وسمعت من نبرة صوت جَدَّتي أن أمي هي من يهتف . اضطربت نبرة صوت جدتي لشيء قالته أمي وبدت وكأنها تتحاشى النظر إليَّ . كنت جالساً ألعب بمكعبات كثيرة وبأعواد لعبة قديمة . كنت قد نويت بناء سيرك . بعد ذلك قالت جَدَّتي إن أمي تريد التحدث معي . نهضت وأخذت سماعة الهاتف على الرغم من رغبتي في الفراغ من بناء المكعبات . خرجت جَدَّتي إلى البهو حيث جدي وهمست له بشيء .

فهمت الخبر فوراً برغم أنني لم أعرف أن أبي يُحْتَضَرْ. قالت أمي إنها ستحكي شيئاً مزعجاً ، لكنها لم تذكر ما هو هذا الشيء . كما ذكرت سابقاً فبمجرد أن يقول الكبار إنَّ ثمة أمراً مهماً دون ذكر عما يدور هذا الأمر فسيفهم المرء ما يفكرون فيه . خطر في فكري فوراً : تُوُفِّيَ أبي . وبرغم هذا فقد تمنيت لو أنه لم يُتَوَفَّى . تمنيت لو أنني أسأت فهم نبرة صوت أمي . لكنها بدأت تقول إنني كنت أعرف أنَّ أبي كان مريضاً جداً لفترة طويلة ، مع أنني لم أكن أعرف ذلك . عندئذ فكرتُ : الآن تقول أبوك قد تُوُفِّيَ . وبعد ذلك قالتها.

لم أبكِ على الهاتف . أقصيت السماعة من يدي ليتسنى لجدي الحديث مع

أمي . بعد ذلك ذهبت إلى غرفة التدخين أولاً ، ومن ثم إلى غرفة الطعام وبعدها إلى البهو وأخيراً إلى غرفة نوم جدي الصغيرة . كنت أحس طوال الوقت وكأنما ثمة تشنج في الحلق قد أصابني . أغلقت باب غرفة نوم جدي ووقفت قرب طاولة الكتابة الصغيرة . كان لدى جدي ، والد أمي ، أوراق غير مكتوبة منثورة أيضاً ، وفكرت أنه عندما يموت شخص فثمّة دائماً أوراق غير مكتوبة ، وبعد ذلك حضرتني الدموع . هزَّ البكاء كل جسدي . صرخت : بابا ، بابا . فتح باب الغرفة كل من جدتي وجدي ، ووقفا في مدخلها. وقفا في فتحة الباب ينظران إليَّ . كان الخوف بادياً عليهما. كانا يدركان ألا حول لهما ولا قوة لذلك تركاني وحدي ثانية . كان تصرفهما حكيماً . عندما يحزن المرء لموت أبيه فيجب ، رغم الخَطْبِ ، أن يبقى وحده لفترة . لم تكن لدي رغبة في التقاط المكعبات عن الأرض . التقطها أحد اثنين : جَدَّتي أو جدي ، أما أنا فلم أمَسَّها بعدئذ قط .

كنت وأمي سوية في تشييع أبي في كنيسة منيرة كبيرة تغص بالمشيعين . كدت ألا أعرف شخصاً من الحاضرين . كانت أمي تذكر اسم شخص يمر بنا بين فترة وأخرى فكنت عندئذ أتذكر الاسم دون الشخص . عُزِفَتْ موسيقى من مكان لم أستطع رؤيته ووقف شيخ قرب النعش يلقي شعراً . لم أفهم كلمة مما ألقاه .

كان من العسير عليَّ استيعاب أن أبي يرقد في النعش . حاولت تخيل كيف يمكن أن يبدو وهو ميت . قدّرت أن شكله كما هو عادة ، بغض النظر عن أنه ساكن ، وأن إغلاق غطاء النعش عليه أمر فظيع . وإن خلَّفَ الموت بصماته وبدا أبي مختلفاً بشكل ما فلم يكن في وسعي تخيُّلَ تلك البصمات . لربما يَتَقَصَّفُ جسد الإنسان عندما يُتَوَفَّى . لربما يتلاشى كل ما كان ضرورياً في الإنسان وينكمش ويصبح دقيقاً رقيقاً .

جلست وأمي ، منفردين ، على مقعد ، وجلس بعض منهم على المقاعد خلفنا ، لكن لم يشاركنا أحدُ مقعدنا. وبعيداً جداً عنا ، على مقعد قرب التابوت ، جلست جَدَّتي - أم أبي - وزوجة أبي الجديدة ، وآخرون . استطعت

تمييز بعضهم ، لكن معظمهم جلسوا ورؤوسهم بالاتجاه المعاكس . كما لم يكن في وسعي ، في البداية ، معرفة أيٍّ منهم . غير أنّ أمي دلّتني على جدّتي . بعد ذلك عزف شخص موسيقى مرة أخرى من مكان لم أره . كان ثمة كراسة صغيرة في يدي كُتِبَ اسم أبي عليها . إن نظرت إلى الكراسة فلربما عرفت ما سيحدث . مِنَ الأسماء الغريبة وكلمة غير سويدية عرفتُ أن موسيقى ستعزف . وحيث كان اسم ونص طويل ، عرفت أن شخصاً ما سيلقي قصيدة . كانت القصائد مطبوعة في الكراسة . كان عليَّ الاحتفاظ بالكراسة لكي أعرف فيما بعد عمَّ دارت القصائد ، لكنني لا أعرف أين آل مآلها . لابد أنني غفلت ، بشكل ما ، عن شيء في الكراسة إذ أن كل شيء كأنما انتهى فجأة . نهض الناس واحداً تلو الآخر وتقدموا نحو التابوت . توقفوا أمامه ووضعوا زهرة محيين بإيماءة خفيفة . بعد ذلك ألقوا التحية على جَدَّتي أيضاً . تساءلتُ : متى سنتقدم . كانت معنا زهرة أيضاً. لكنها لم تعد هناك . لربما وضعناها لدى دخولنا الكنيسة . لا أعرف . شخصتُ ببصري نحو أمي . كانت الدموع تترقرق في عينيها . ابتسمت نحوي ابتسامة خفيفة . بعد ذلك انسحبت باتجاه المخرج .

عاد الجميع إلى مقاعدهم ثانية . نظرت إلى الكراسة الصغيرة . عرفت فوراً وقبل سماع موسيقى أنَّ ثمة موسيقى ستبدأ . بدا لي أن جسد أبي لا يمكن أن يكون مُمَدَّداً في التابوت . لا يمكنهم وَضْعَ جسدٍ مَيْتٍ في صندوق وسط جمع من الأحياء . كان جسد أبي في مكان آخر وفيما بعد مددوه في التابوت . لربما ما يزال جسد أبي في المستشفى . كنت أعرف أن هناك براداً في قبو المستشفى يحفظون فيه الموتى . وهناك كان جسد أبي . لا بد أن يكون الأمر كذلك .

بعد ذلك بدأ التابوت ينحدر فجأة . انحدر بطيئاً وكأنما على مصعد بينما الموسيقى تعزف من مكان لم تسعني رؤيته . عندئذ أيقنت أن جسد أبي ممدد في التابوت فعلاً وأن أوان كل شيء قد فات خلال لحظة . نظرت بعيداً نحو المقعد حيث جلست جَدَّتي والآخرون . جلس الجميع ورؤوسهم في الاتجاه المعاكس . جلسوا ينظرون إلى التابوت الذي يختفي في باطن الأرض . التفتُّ أنظر إلى

الجالسين خلفي . مال رجل نحو امرأة تجلس قربه وهمسَ . ابتسمت عجوز لي وأومأت برأسها . لم أعرفها ولكنها بدت وكأنما عرفتني . كنت أعرف أن الجثث تُحْرَقُ غالباً . لم أكن متأكداً إن كانت تُحْرَقُ مع التابوت وكل شيء.تساءلت إن كان أبي عارياً في التابوت أم كان يرتدي بزّة . لربما كان يرتدي منامة المستشفى التي كانت على جسده عندما تُوُفِيَ . كنت أدرك أنهم أنزلوا التابوت في القبو كي يحرقوه . لم أرغب في التفكير فيما يحدث للجثة عندما تُحْرَقُ . مَنْ ألقى القصائد فوق منبر جلس وتنحنح قليلاً وكَمَّ فمه بمنديل .

لم يعد الآن في وسعي رؤية التابوت . تساءلت فيما إذا كان باستطاعة المرء سماع اضطرام النار التي تحرق التابوت ، وكيف كان في وسعهم تمييز ما كان تابوتاً وما كان جثة وما كان وقوداً للنار التي تحرق الجثة . لربما استعملوا لهباً غازيّاً . عندئذ يبقى رماد الجثة و رماد التابوت . تساءلت عما فعلوه بالمقابض والمفصلات الحديدية التي رأيتها على التابوت ، وما الذي سيحدث لو نزعوا عن أبي ساعة معصمه قبل أن يمدّدوه في التابوت . لم أعد أرغب في التفكير في أن جسد أبي ممدد في التابوت . لقد اختفى التابوت ولم أعد أراه .

وفجأة حلت عجلة . نهضت أمي وجرتني خلفها. لم يبدأ الآخرون بالمسير لكننا كنا على عجلة من أمرنا . أمسكت الكراسة بقوة . كنت أخشى ضياعها. كنت قد سمعت كيف فتح شخص بوابات الكنيسة المؤدية إلى الحديقة . فُتِحت عندما انقطع صرير المصعد الذي يُهْبِطُ التابوت تحت الأرض . لكن الموسيقى كانت مستمرة . اتجهنا نحو الأبواب . كانت الشمس ساطعة في الخارج وخضرة مرج الحديقة تبهر النظر. وبرغم الموسيقى فقد بدا كل شيء كما لو كان صامتاً . ما كنت أسمع إلا خطواتي وخطوات أمي . استدرت قبيل خروجنا ونظرت نحو جَدّتي . كانت تعتمر قبعة ذات نِقاب شبكي وترتدي معطفاً أسود وتنتعل حذاء أسود وتلبس جوارب سوداء . حجب عني رؤية وجهها نِقَابُ القبعة الكَبَز . تساءلتُ فيما إذا كانت قد بكتْ . تساءلتُ إنْ كانت قد رأتني .



كانت زيارتي التالية إلى جَدَّتي في الشتاء بعد نصف عـام تقريباً من دفن أبي . كانت قـد انتقلـت مـن « أودنغاتـان » إذ أصبحت الشقة كبيرة عليها . وكان التلميـذ ، مستأجر الغرفـة قرب ممر الخدمة ، يثير جَلَبَـةً لـدى عودتـه بـاكراً وكـانت إدارة تحرير مجلة الأطفال حصلت على مكاتب أخرى . لكن جَدَّتـي لم تنتقل بعيداً جداً . انتقلت إلى شقة داخل « أويسرفَتوريغاتان » الواقع موازيـة للجانب الثاني من « أودنغاتـان » وفي أعلـى « نورتُلغاتان » . كانت الشقة في الطابق الثاني ومؤلفة من ثلاث غرف ومطبخ . لم يكن هناك ما تفتقده في شقتها الجديدة فبقالـة « فاللين » قـد أُغْلِقَـتْ ، كمـا قـالت جَدَّتـي ، والطريـق إلـى صديقها « جونس » لم يكن أبعد مما كان عليه سابقاً .

كانت صورة أبي منتصبة على طاولة في غرفة الجلوس الجديدة . كـان ، في الصورة ، نحيلاً مثلما رأيته آخر مرة . عندما نظرت إلى الصورة تأكدت من أنـه كان مريضاً ، لكنني لم أدرك ذلك في حينه . كان يجلس إلى طاولـة منخفضـة في شقة جَدَّتي وأمامه إحدى كؤوس نبيذها ممتلئـة بالمـاء . كـان يُقَلِّبُ كتاباً أو جريدة وبالضبط عند تصويره رفع رأسه ونظر في آلـة التصويـر . كـانت الوحـدة ظاهرة في عينيه يكاد يكون خائفـاً . لكنه كان أبي ، ذاته ، برغم أنه بـدا نحيـلاً

ومنهكاً . لقد حصلت على تلك الصورة وهي الآن مودعة في دُرْج مكتبي .

كان واضحاً أن أشياء كثيرة قد اختفت أثناء الانتقال ، وبكل تأكيد لم يكن لها متسع في الشقة الأصغر ، لكنني عندما حاولت تَذَكُّرَ ما اختفى لم أستطع ذلك . اختفت طبعاً الخزانة التي تضمّ أرشيف جدي ، والتي كانت تنتصب في غرفة النوم لأن الأوراق اختفت أيضاً. واختفت كذلك مفروشات غرفة الطعام الكبيرة إذ لم يعد لدى جَدَّتي غرفة طعام خاصة . لم أكن متأكداً تماماً أية أشياء أخرى اختفت . انتهى المطاف بالأريكة ذات الوسائد المدورة في بيتي وبيت أمي . ومنذ ذلك الوقت باتت الأريكة وزوج من الكراسي في سقيفة البيت . لدي متكأ في غرفتي ، لكنني لا أتذكر مكانه في « أودنغاتسان » . لربما كان شيئاً خلفته مجلة الأطفال .

عندما كنت صغيراً وأزور جَدَّتي في « أودنغاتان » كنت أوقن بحق أنه لا يمكن أن يتغير شيء في أي زمان أو حال . عندما يكون المرء صغيراً جداً لا يمكن لشيء أن يكون أكثر اختلافاً عما هو عليه . عندما يكون المرء صغيراً جداً فكل شيء مختلف . فيما بعد يدرك المرء أن عليه أن يألف أن كل شيء يغدو مألوفاً . لا يدوم شيء على حال . تختفي عن النظر أمور وأشياء دائماً . حكت لي جَدَّتي أنها زارت ، ذات مرة ، الأسرة التي انتقلت إلى شقة « أودنغاتان » ، والتي اتخذت مِنْ إحدى غرف تحرير مجلة الأطفال غرفة نوم . وعند رأس سريرها المزدوج علقت دمية إسبانية ضخمة ذات شعر بلاستيكي أسود هائل ومُجَعَّدْ وترتدي ثوباً ذا رِفْلٍ مُخَرَّمْ وطبقات من التنُّورات . كان رأي جَدَّتي ، وهي تحكي لي ضاحكة ، أن الدمية شنيعة . لم أفهم بالضبط لماذا كانت تضحك ، لكنني أدركت أن الدمية كان شيئاً جنونياً حتماً .

سألتْ جَدَّتي فيما إذا كانت شقتها الجديدة قد أعجبتني ، فقلت لها إنها ، حسب رأيي ، جيدة جداً . قالت إنها بالطبع ليست مثل [أودنغاتان] . قلت :

- إنها لم تكن مثل [أودنغاتان] ولكنها جيدة جداً .

شربنا شاياً من إبريق الشاي نفسه والأقداح ذاتها كما في [أودنغاتان] .
وكان نفس نوع كعك القمح في نفس السلة لمّا كنا نشرب الشاي في [أودنغاتان].
كان كل شيء بالفعل كما كان ، إنما بدا مختلفاً تماماً .

سألتْ جَدَّتي :

- كيف حال الدراسة ؟.

قلت :

- إنني لا أعرف بالضبط .

عندئذ عدَّدَتْ بضعة أسماء ، وقالت إن هؤلاء الأشخاص لم يتمكنوا من إنهاء المدرسة بشكل جيد ، لكنهم وُفِّقوا في حياتهم بالرغم من ذلك وعليَّ ألا أقلق . بعد ذلك حكت لي مرة أخرى عن تلك المُدَرِّسة التي منعتها من استعمال يدها اليسرى .

في الحقيقة كانت رغبة جَدَّتي ، ذات يوم ، أن تصبح مُدَرِّسَة . عندما كانت جَدَّتي صبية كانت حرفة التدريس إحدى الحرف الحقيقية القليلة المُتَاحة للمرأة . لكن والدها منعها من أن تصبح مُدَرِّسة . في الحقيقة لم يمنعها بل أخذ عليها عهداً ألا تتزوج إطلاقاً في حال أصبحت معلمة أو اتخذت لنفسها حرفة حقيقية . كان قصد والد جَدَّتي أنه لا يرغب في أن يكون لأصهاره زوجات تعملن ولسن في البيت تُعْنَيْنَ بهم . عندما حكت جَدَّتي ذلك كانت نبرة صوتها حزينة يشوبها تعب وكأنها ما تزال ترغب في ألا يفوتها القطار .

وهكذا حكت أنها عندما التقت جدي أدركت أنها مرغمة على الوفاء بعهدها لأبيها . أرادت حقاً الزواج منه ، ولذلك اضطرت إلى التخلي عن حرفة التدريس . كان جدي الطفل الرابع عشر في أسرته . قالت جَدَّتي إنه كان يرتدي معطفاً أكبر من قياسه وقبعة أصغر من قياسه عندما تَنَزَّهَا في [سُندسفال] . ولكن ذلك كان سيان . مثل هذه الأشياء لا تضير إن كانت تخصُّ الرجل الذي تود المرأة الزواج منه ، وأن تصبح مُدَرِّسَة فقد كان هذا سيان أيضاً .

ذات مرة حكت لي جَدَّتي عن جدي بحيث كان في وسعي تخيله أمامي

على درج فندق في [سُندسفال] . إنه يضحك ويمسك الباب بيد والقبعة باليد الأخرى . إنهما يقفان وينتظران أحد أصدقائهما . يتأخر الصديق قليلاً ، لكن لا بأس في ذلك . ويحدث شيء ما ، ولكنني لا أعرف ما هو. يقضيان سوية وقتاً ممتعاً ويضحكان وأضحك برغم أنني لا أعرف عما يضحكان . أحياناً لا يستطيع المرء أن يُمْسِكَ نَفْسَهُ عن الضحك برغم أنه لا يعرف ما الذي يضحكه . لا أعرف ماذا يفعلان هناك ، ولا أعرف وِجْهَتَهُما. أعرف اسم من ينتظرانه ، لكنه لا يأتي أبداً . ويتابعان الضحك . كان هذا منذ ستين سنة وفي مدينة لم أزرها إطلاقاً .

بعد فترة أجَّرَتْ إحدى غرف الشقة الجديدة أيضاً . كان المستأجر رجلاً كانت جَدَّتي تذكر اسمه مرات عديدة . يكاد أن يكون أحد الذين عرفتهم وعرفني ، لكنني لم أقابله إطلاقاً . هذا غريب ، أحس أحياناً أن حياتي ممتلئة بأناس يبدو من حديثهم معي أنهم يعرفونني ولكنهم هم من جملة الذين لم أقابلهم إطلاقاً .هذا المستأجر لم يكن لديه مسكن لأنه كان عازماً على الطلاق . كان أصلع ذا نظارات ولا يمكنني تذكر سَحْنَتَه . لا أعرف لماذا سيُطَلِّق .

ربما كانت تلك المرأة التي رأيتها تزوره ، ذات مرة ، سبباً في طلاقه . في الحقيقة لم أرها بل رأيت ساقيها . كانت ترتدي تُنُّورَة فضية وجوارب شفافة وأحذية سوداء . كانت تدخن أيضاً وتنفض طوال الوقت رماد السيجارة في منفضة على مسند المتكأ الذي تجلس عليه . أعني طوال الوقت فعلاً. كانت سبابتها تنقر على السيجارة باستمرار وكأنها ساعة ، ماعدا تلك المرات التي تدفع بالسيجارة إلى فمها وتمج منها مجّة طبعاً . كان هذا كل ما رأيت منها . هذا كل ما أعرفه عنها بشكل عام . ربما كان سيُطَلِّق بسببها . وعلى كل لم يحدث هذا الأمر . عاد إلى زوجته ثانية وقالت جَدَّتي إن هذا أفضل . وبعد مرور بضعة سنين مات الرجل . لا أتذكر ما اسمه .

كانت لدى جَدَّتي رغبات كثيرة . ولكن ، كما يبدو ، وكأنما هناك دائماً مَنْ لا يستسيغ هذه الرغبات . كان والدها ، في البداية ، هو الذي ارتأى أنه

ليس مناسباً أن تصبح ابنته معلمة . ومن ثم جدي ، الذي كان محرر جريدة ومُؤَلِّف بضعة كتب ، لم يستسغ فكرة أن تكون جَدَّتي مؤلفة أيضاً . اضطرت إلى انتحال اسم مستعار ، وكما يبدو فإن جدي كان يستحسن لو أنها لم تفعل ذلك .

أَلَّفَتْ على كل حال كتابين للفتيات ومسلسلاً غرامياً لمجلة أسبوعية . كما أَلَّفَتْ عملاً آخر لمجلة عيد ميلاد . كانت تفخر بهذا العمل بشكل متميز. ذات مرة أرتني ما أَلَّفَتْهُ للمجلة ، لكنني لم أفهم معظمه . أتذكر أن الشيء الوحيد الذي أثار اهتمامي هو اسمها الأدبي المُنْتَحَلْ . كان اسمها كأحجية تدل على اسمها قبل زواجها . كلا الاسمين المنتحلين ، الشهرة والكنية ، اشْتُقَّا من اسمها وهي عَزَبُ . كان رأيي أن ذلك حِذْق . وبشكل ما كان اسمها قبل الزواج صحيحاً عندما كان جدي يستحسن ألا تصبح مُؤَلِّفَة .

أما الآن فإنها لم تعد تؤلف طبعاً . لم تعد تكتب قطّ ، ماعدا رسالة ما وحَلّ كلمات متقاطعة . كنت أعثر أحياناً على وريقة فوق طاولة الأريكة بخطها المائل الغريب . كانت تأخذ دائماً مني تلك الوريقات وتدسها في جيوب جاكيت ردائها ، وعندما كنت أسألها ما هي تلك الوريقة فقد كانت تجيبني إنها ليست إلا مسودة لقائمة غسيل . بعد ذلك أقلعت عن السؤال .

لم يكن المقصود أن تسكن جَدَّتي كل هذه المدة في الشقة الجديدة . كانت تقول إنها ليست إلا محطة في الطريق . كانت في الحقيقة تنتظر دَوْرَها كي تدخل مؤسسة في [كُنْغْسهولمن Kungsholmen] . كان المرء يُعانُ هناك على قضاء أمور وحاجات كما كانت هناك ممرضة في البناية .

قالت :

- لا يوجد هناك إلا عجائز ولذلك يناسب هذا المكان مَنْ هو مثلي .

زد على أن أخت جَدَّتي كانت قد استقرت في المؤسسة . لم تكن شقيقة جَدَّتي مثل جَدَّتي أبداً . كانت دقيقة القامة ، سريعة وعملية بينما جَدَّتي ضخمة القامة جداً ، مَهِلَة وغير عملية . كان صعباً أن يصدق المرء أنهما شقيقتان .

ولولا خصامهما الدائم لاستحال تصديق أنهما شقيقتان . اكتشفتُ أنه لو صادف المرء مَنْ يتخاصمون دائماً ، ويرغم خصامهم يتلازمون ، فيمكنه عندئذ الجزمَ أنهم أشِقّاء . وكأنما حال الأشِقّاءَ هو أن يتناطحوا دائماً على احتلال الفُسْحَةِ نفسها وكأنهم يجهلون أن في وسع كل منهم أن تكون له فسحة خاصة .

أصبح النوم على أريكة غرفة الجلوس من نصيبي عندما أبيتُ لدى جدتي في شقتها الجديدة . يبدو أن الحال عندما يَشِبُّ المرء بهذا الشكل : يتخطى بعض الحدود . فالناس لا تلمس المرء بالطريقة المعهودة من ذي قبل . ليس لمجرد أنه شبَّ وأصبح أثقل وزناً ، إنما لأمر آخر أيضاً . إنه أمر لا يعرفه المرء قبل أن يشبَّ وعندئذ يكون قد نسي ما حُرِمَ منه .

أما في الوقت الحاضر فسأنام على أريكة غرفة الجلوس . كنت أحس بقماش الوسائد الصوفي من بين أغطيتها خشناً قليلاً . كان يدغدغ الجلد بشكل طفيف ولم يكن في الحقيقة مزعجاً قطّ . لم تكن حركة السير في الشارع كثيرة مثلما كانت في [أودنغاتان] ، إلا أن ضوء مصابيح السيارات كان ينعكس على السقف كلما مرَّتْ إحداها بين حين وآخر . لم يكن شعاع مصابيح السيارات في [أودنغاتان] يصل أكثر من قرب النافذة ، أما هنا فإنه يطوف بكل السقف . كان تلفاز جَدَّتي في غرفة الجلوس ، لذا كان في وسعي الاستلقاء ، تحت البَطّانية ، على الأريكة وأنظر إلى التلفاز بينما جَدَّتي تجلس على كرسي . إلا أن الشقة كانت هادئة ، هادئة مثل [أودنغاتان] .

كانت جَدَّتي تمازحني دائماً بأن تهيئ الفراش بطريقة غريبة . كانت تهيئه أحياناً بحيث يتعذر عليَّ فَرْدَ ساقيَّ تحت الغطاء . وكانت آنئذ تقف طويلاً وتصر على أن أنْدَسَّ كيلا أبرد. وكانت مثلاً ، في مرات أخرى ، تضع فرشاة خشنة عند طرف القدمين من السرير . وعندما أَرْمَحُ من وخز في باطن قدميَّ كانت تتساءل فيما لو كان هناك حيوان تحت الدثار . كانت تقوم دائماً بمثل هذه الدعابات . حتى إنها ذات مرة اقترضت من ابن عمي أداة يضعها المرء في باطن كفه وهو يصافح الناس ، فكان المُصَافَحُ يُرْعَشُ بِمَسٍ كهربي . ومع ذلك

كانت تتظاهر وكأن هذه الأمـور ، في اعتقادهـا ، غـير مضحكـة كثـيراً . لكنـها كانت تعتقد ، حتماً ، أنها أمور مضحكـة لأنني كنـت أعتقـد ذلـك . كـانت تعتقد أنَّ الدعابات مضحكة لأنها خاصّة بنا فقط .

ذهبت ذات مرة إلى دكان الجزار أقضي حاجة لجدتي . كان لديهم طيـور [الدُّرَجَة] كاملة وحيوانات برية أخرى . كانت المَجْزَرَة بيضاء ونظيفة وفي الوقت نفسه كأنها ممتلئة بالأطياف . كنت آنئـذ قـد أرسلتُ شعري قليـلاً فنـادتني السيدة من خلف دكة البيع بآنسة عدة مرات . وفي كل مرة تناديني بآنسة كان ثمة شيخ ، يقف خلف دكـة البيـع ، يضحـك لذلـك . عندمـا رجعـت إلـى جَدَّتـي حدثتها بما جرى . لبست ، في الحال ، معطفها الخارجي وصحبتني إلى المجزرة . عرفوها وألقوا عليها التحية . كانت لطيفة جداً . قدمتنـي إليـهم وقـالت إننـي حفيدها وإنني صبي يحب المساعدة وأفـاضت بأوصـاف أخـرى كثيرة . وكـانت وكأنها في كل مرة تذكر كلمة حفيدي أو صبي تـود تـأكيد أنني صبـي وأننـي حفيدها . أعتقد أن مَنْ في المجزرة خجل وبدا لي وكأنما وجه السيدة احمرَّ .

قالت بعدما خرجنا من المجزرة :

- مَنْ يتمادى مع حفيد الجدة فإنه يتمادى مع الجدة نفسها .

بعد ذلك جلستُ على سريرها ونظرتُ عبر النافذة .كانت تقف في المطبخ . كانوا يهدمون بناية في الخارج فكان الغبار ينتشر ويعج . كان ثمـة رافعـة تخبـط ، مرة تلو الأخرى ، بكرة كبيرة على جدران البناية حتى تتداعـى . قَرْفَصْـتُ علـى السرير أنظر . لم أكن مريضاً أو ما يشبهه لأنني قَرْفَصْـتُ . كنـت أسـمع أيضـاً كيف يهدمون خلف جدار غرفة نوم جَدَّتي بالضبط . فكرت : عما قريب سيلوِّحُ ذراع حَفَّارة في الغرفة مخترقاً الجدار .كنت أُقَرْفِصُ على السرير ، نصف المفروش ، قرب جدار يهدمون خلفه بناية كاملة . وعندما أضع يدي على ورق الجدار كنت أحس باهتزازات محرك الحَفَّارة .

تَصَوَّرْتُ فجأة ، وأنا أقرفص على سرير جدتي ، وكأني في بيت للدُمـى : البيتُ بلا جدار أشْرِفُ منه على الشارع وأرى كيف يهدمون البناية . تحسست

الجدار ثانية . أكاد أحس بمجرفة الحفّارة الكبيرة عبر ورق الجدران . الآن يتداعى جدار كامل في الخارج . الآن يقف رجل على طابق مُخَرَّبٍ يُكَسِّرُ مدفأة حجرية بعَتَلَةٍ . فكرت : لن يخترقوا إطلاقاً ورق الجدران بالمِجْرَفَةِ . لا أعرف لماذا فكرت بهذا الشكل . لربما مجرد حلمت . سمعت جَدّتي تنادي من المطبخ . لربما غمت ، أو ربما كنت حلمت . مسحت بيدي على ورق الجدران . لربما حلمت . لا أتذكر بعد .

عندما وقفت بعد ذلك في المطبخ مع جَدّتي سألتها مرة أخرى لتحكي لي حينما كانت متزوجة من جدي حديثاً وسافرا إلى [فِرملاند Virmland] ليزورا أبرشية . سألتْ جَدّتي أية حكاية أقصد . في الحقيقة كانت تعرف تماماً أية حكاية أقصد . لكنها بسؤالها كانت تريد أن تجعل من الحكاية حكاية جديدة وكأنما نسي كلانا الحكاية . قالت مستذكرة :

- حقاً هذه ، بالطبع ، سأحكيها لك .

جلست على الكرسي قرب النافذة . كان في إطار النافذة بضع صوانٍ مائلة خشخشت عندما سوّيتُ وضعها قليلاً . كانت جَدّتي تقف أمام المجلى وهي تقشر بطاطا. بدأت أصابعها تتصلب أكثر واثنتان منهما أصبحتا مثل النقانق . على كل كانت جَدّتي من قال ذلك .

جدّتي ما تزال تستطيع تقشير البطاطا. إنما كنت أعرف أنها لا تفعل ذلك دائماً. كنت قد سمعت عن أمي أن جَدّتي تهمل طعامها أحياناً. أظن أنها كانت تعتبر تحضير الطعام وأكله وحدها أمراً مملاً. عندما كنت أزورها كان الطعام دائماً حقيقياً . واظبنا فترة على أكل [قطع سمك Fiskpinnar] مع بطاطا ومرق سمك سلمون مُمَلّح . كنا نعتبر الوجبة ألذّ ما يمكن للمرء طهوه. كنت أُعِدُّ الوجبة لنفسي أحياناً وقت تسهر أمي خارج البيت . لكننا بعد تلك الفترة لم نستسغ قطع السمك ومرق السلمون المُمَلّحَ . أكلنا هذه الوجبة ، خلال سنة ، مرة في الأسبوع على الأقل ، ومنذ ذلك الحين لم آكلها إطلاقاً. هذا ما كان يحدث أحياناً. يَمَلُّ المرء ويبلغ السيل الزُّبى .

بدأت جَدَّتي تحكي . لا أتذكر في الحقيقة لِمَ كان عليهما زيارة أبرشية في « فرملاند ». لربما كان للزيارة علاقة بوالد جَدَّتـي. لكنـهما لم يـزوراه بـل زارا شخصاً آخر . ركبا القطار ووصلا في وقت متـأخر مـن الأصيـل. اسـتقبلهما في المحطة حوذي ضخم الجثة يركـب عربـة يجرهـا حصـان . كـان الحـوذي مُقِـلاً في الحديث . رفع قبعته تحية ووضع المتاع على حجيرة العربـة ومـن ثـم جلـس علـى مقعده بينما جدي وجدتي اتخذا مكانهما. أعتقد أن الفصل كان ربيعـاً. عندمـا أتخيل ذلك أحس بالربيع وهــم يقطعـون غابـة الصنوبـر الكثيفـة عنـد المغيـب . يجلس الحوذي صامتاً على مقعده وتنتصب الغابــة ممتـدة حـذاء الطريـق سـاكنة تغصُّ بالأطياف .

عندما وصلت جَدَّتي إلى هذا القدر من حكايتها أردت أن أتحرك قليلاً . نهضت وبدأت أساعد في ترتيب طاولة الطعام . كنت أعرف ما حدث بالتمـام . فرشتُ الصحون الفضية الكاشفة ذات الوردة المنقوشــة . وضعـت الصحـون علـى الصينية مع زوج من السكاكين و زوج من الشوكات ولكل منا كأساً. بعد ذلك عدت لأجلس على الكرسي ، قرب النافذة ، ثانية .

كان المساء قد حلَّ بعدما أوْصَلَ الحوذي جَدَّتـي وجـدي إلـى الأبرشية وحمل متاعهما إلى الداخل وانطلق عـائداً إلـى المدينـة . وكانـا قـد اسْتُقْبِلا استقبالا فخماً وأرْشِدا إلى غرفتهما وتعشـيا. وكـان القسـيس قـد حكـى شـيئاً أضحك الجميع واتفقوا على ما سيُنْجِزونه في اليوم التالي . بعـد ذلـك كانـا قـد أويا إلى الفراش مبكراً متعبين من السفر . وكانت جَدَّتي قد نامت مباشرة تقريباً . وكان جدي قد أيقظها في منتصف الليل .كل مـا سـبق ذكـره حـدث قبـل أن يُنْدَبَ دماغها ويُصْدَعَ رأسها وتُسْهَدَ .

أخذت جَدَّتي الصينية الموضوعة على طاولة المطبخ الصغيرة . كانت وجبة فتائل لحم الخنزير المغمورة بمرق الفطر جاهزة والبطاطا تهدأ على النار. وكنت قد فتحت علبة البازلاّء الصغيرة . ذهبنا إلى غرفة الجلوس ووضعت جَدَّتي الصينيـة على طاولة هناك . كان مقرراً أن نتناول الطعام ونشاهد برنامج تلفزيـون . كـان

ثمة برنامج لا نريد أن نُضَيِّعَ فرصة مشاهدته . لا أتذكر اسمه ، لكنه كان ضرورياً بحيث أننا لم نُضَيِّعَ فرصة مشاهدته .

كان جدي قد أيقظ جَدَّتي لأنه أحس بنفسه قلقاً. كان يرتعد وكأنه مقرور ويتصبب عرقاً. قال إنه قد أحس بنفسه معكر المزاج ويريد الاستلقاء في سرير جَدَّتي ويدفئ نفسه . ولما كان قد انسل قربها لاحظت أنه هَلِعٌ كلياً وسألته ما الخبر فأجابها إنه لا يعرف إنما كان يرى دماً أمامه فور ما يطبق جفنية . قال إن أمراً فظيعاً قد حدث ، لكنه لا يستطيع معرفته . كان يرى دماً يسيل وشخصاً يستغيث في مكان بعيد . سألته فيما لو حلم بشيء لكنه أجابها إن هذا مستحيل لأنه كان أرقاً . قال إنه ما إن أغمض جفنيه حتى رأى دماً أمامه .

رنَّتْ الساعة في المطبخ تُنَبِّهُ إلى أن البطاطا قد نضجت فقامت جَدَّتي تتدبرها. قبل خروجها من الغرفة قالت إن جدي هدأ في النهاية ونام . كانا قد اتفقا على أن ذلك لم يكن إلا حُلُماً مزعجاً .

سحلتُ حتى حافة الأريكة وفردتُ الصحون على الطاولة . ووضعت الواقي من الحرارة القاتم ذا النطاق المعدني في الوسط ليقوم عليه القِدْرُ. بعد ذلك ذهبت إلى المطبخ حيث تُسَخِّنُ جَدَّتي البازلاّء . أخذت طبق البطاطا وعلبة الحليب وذهبت بهما إلى غرفة الجلوس . ومن ثم جلبت البازلاّء ورشفة النبيذ الموجودة في قارورة . كنا قد فتحنا التلفاز ولكن بدون صوت كيلا يفوتنا البرنامج الذي نترقبه .

كانا ، جَدَّتي وجدي ، قد تأخرا في النوم صباحاً. وعندما نزلا لتناول الفطور كان الوقت قبيل الظهيرة . وهما ينزلان الدرج كان القسيس يقف مودعاً شخصاً قرب الباب الخارجي . تساءل القسيس فيما لو هَنَأ نومهما ليلاً وقال إن هناك فطوراً ما يزال بانتظارهما. لكنه بدا لجدتي سارح الفكر بشكل غريب . استماحهما وقتئذ القسيس عذراً وقال إنه قد علم لتوه أن شيئاً فظيعاً قد حدث في الليل .

حكى القسيس أن الحوذي الذي أقلهم في اليوم السابق قد قُتِلَ مساء وهو

في طريقه إلى المدينة . وأن سبب قتله عملية سلب مستهجنة إذ أن الجاني قد تركه في خندق ينزف دماً وقد شُجّ رأسه بشكل خطير وعندما عُثِرَ عليه ، في الضحى ، كان الأوان قد فات على إنقاذه . كانت جَدَّتي وجدي قد نظرا إلى بعضهما بعضاً وفكرا بما قد حكاه جدي ليلاً ، لكنهما لم يقولا شيئاً .

تساءلتُ مثلما فعلت في كل مرة حكتْ جَدَّتي القصة :

-هل هذا صحيح ؟

لكن جَدَّتي سألت إن كنت لا أعتقد أن ذلك صحيحاً. بشكل ما كنت أعتقد دائماً أن أفضل جواب عن سؤال هو طرح سؤال آخر. يخطر في بالي أحياناً أن الإنسان يعرف دائماً الجواب عن كل شيء ، إنما قد نسي معظم الأسئلة . كنت في السابق أفكر كثيراً بمثل هذه الأمور. كنت أسأل جَدَّتي أحياناً شيئاً ما عن النجوم ، فقط كي يُؤَكِّدَ لي البعد الهائل بين كل شيء. أتذكر أنني قلت إنني لا أدرك الغاية من كل هذه الأبعاد. قلت إنني في الحقيقة لا أدرك غاية وجود شيء . الآن يمكنني القول أنني مازلت لا أدرك الغاية ، لكنني أعرف الجواب ونسيت السؤال .

عندما كنت أسأل عن الغاية من البعد بين نجوم السماء ؛ كانت جَدَّتي تبدو لي قلقة قليلاً. أعتقد أنها ربما كانت تقلق لأن طفلاً يفكر في مثل هذه الأمور. قلت إنه يبدو كأنما النجوم تعيش متجمعة في السماء مكتفية بالمنظر الذي ترسمه على قبة السماء . ومن هنا تبدو قرب بعضها بعضاً لكنها هناك ، في السماء ، بعيدة عن بعضها بعضاً بقدر ما نحن ، هنا ، بعيدون عنها. لم أكن إلا صبياً ولم يكن قد مضى وقت طويل على دخولي المدرسة . وكان يخطر في بالي أنه لا يحق لي التساؤل عن الغاية وراء كل موجود. كان في وسعي رؤية جَدَّتي وهي تريد قول شيء في نفس الوقت الذي لم يكن هناك ما يُقَال . قلت إنني لم أفهم الغاية من أن المرء يُولَدُ ثم يعيش ومن ثم يموت . ولم يكن لدى جَدَّتي جواب عن هذا أيضاً .

في تلك الليلة كانت جَدَّتي قد وسَّدت فرشاة غليظة الألياف في نهاية

أريكة النوم . استلقيت في البداية وجلسنا نتسـامر قليـلاً دون أن أعـرف شيئاً. لكنني سحلتُ بعد ذلك أكثر تحت الدثار ورحتُ عندمـا شعرت بالفرشـاة علـى باطن قدمي . تساءلت جَدَّتي إن كان هناك « مَقْل » في السـرير. كـانت تقـول دائماً « مَقْل » وتعني القمل . كثيراً ما كانت تحكي أنها قد سألت أبي عندمـا كان يحكُّ رأسه وهو صغير السن فيما لو كان لديه « مَقْل » وكـان أبـي ينظـر إليها متعجباً ليسأل بعد وهلة ما هـو حجـم مثـل هـذه « المَقْـلات ». وكـانت جَدَّتي قد أجابت أنها لم تكن كبيرة الحجم كثيراً .

وكان أبي قد سأل وبَيَّنَ بيديه وكأنه أمسك كلباً صغيراً :

-هكذا تقريباً ؟

كانت تلك إحدى الحكايات التي حكتها لي جَدَّتي مرة إثر المرة . كـانت تسأل إن كان شعري قَملاً وبعد ذلك تحكي القصة . لكنني في هذه المـرة سحبت الفرشاة وسألت إن كانت هذه قملة . ضحكت جَدَّتي وهزت رأسها نافية . قلـت لها إن حجم الفرشاة على مناسب كـل حـال ، وعندئـذ ضحكـت جَدَّتـي مـرة أخرى .

بعد ذلك بدأ البرنامج المرتقب . كانت جَدَّتي تتكلـم دائمـاً وهـي تتـابع التلفاز. كانت تتحدث أحياناً معي وأحياناً أخرى مع التلفاز. كانت تجيـب عـن أسئلة يطرحونها وتعلق على أمر قاموا به في التلفاز . كانت تعرف كـل الأجوبـة وتنزعج عندما يخطئون . وبعد ذلك تحكي عما يرتديه الناس من ملابـس ، وعـن قَصَّات شعورهم ، وعما لو كانت على عيونهم نظارات غريبة .

جلسنا نتحدث طويلاً بعد انتهاء عرض التلفاز . كـانت تتحـدث بسـرعة أكثر وأكثر ، وفكرت لابد أنها تلك الندبة الصغـيرة في دماغـها مـن يتخـاصم الآن . حكت جَدَّتي كيف تجسست وصديقاتها ، عندما كـن فتيـات صغـيرات ، على واعظ في جيش الخلاص . كنَّ يعتبرنه وسـيماً فيتسـللن إلـى بنـاء الأبرشـية حيث يجلسن على المقعد الأخير ويُهْلِسْنَ في الضحك . كانت جَدَّتي قـد تحدثـت عن ذلك مرات عديدة من قبل ، لكنني كنت قد نسيت هذه القصة أيضاً. كـانت

تختم حديثها دائماً بقولها : كم الفتيات الصغار سخيفات .

بعد ذلك تحدثت عن أمها. كنت أرى أم جَدَّتي ، بطريقة ما ، تطوف بالبيت صامتة وترتدي رداء كاشف اللون منمنماً بأزهار صغيرة وتكاد تكون سعيدة دائماً. لكنها لم تقل شيئاً . وحكت جَدَّتي بسرعة مُطَّرِدَة عن أشياء جديدة ، لكن لم يسعني متابعتها. فكرت أن جَدَّتي ستنام قريباً. عما قريب ستتحدث بسرعة بحيث لن يتسنى لها متابعة نفسها فتغفو ساهية عن ذاتها. كان يصدف مثل هذا أحياناً بسبب الندبة الصغيرة في الدماغ . وتحدثت جَدَّتي أكثر فأكثر وفي النهاية لم يعد في وسعها سماع نفسها وعندئذ غَفَتْ . بعد ذلك استيقظت ولم تعرف وقتئذ أنها قد غفت . لقد عايشت مثل هذا من قبل . لم يكن أمراً خطيراً .

كان التعب قد حلَّ بي أيضاً. أرحت ظهري ونظرت عبر النافذة نحو السماء المظلمة . برغم انعكاس إنارة الطريق على الزجاج رأيت بضع نجوم تسطع بعيداً في السماء . كنت أدرك أن القمر كبير والسماء صافية برغم تعذر رؤيته . كانت حافة صفيح السقف في البيت المقابل والمدهونة بالأسود تعكس حزمة من شعاع القمر . كانت حافة الصفيح ترسل شعاعاً باهتاً مثل حدِّ سكينة مُثَلَّمَة . كانت جَدَّتي ما تزال تحكي عن شيء قامت به والدتها. في الحقيقة لا أعرف إن كان لدى أمها أردية كاشفة وأنها كانت تطوف في البيت صامتة . لربما كانت صورة استحضرتها من مكان آخر. يمكنني تصورها أحياناً كإمرأة من الكتب التي تدور عن [هكلبري فين] و [توم ساير] . يخطر في بالي أحياناً أن شخوصاً قد عاشوا فعلاً في كل الكتب الموجودة . بدأ التعب يحل بي أيضاً .

بعد ذلك تحررت جَدَّتي من كلماتها وغفت . فأقت قليلاً ومن ثم بدأت تشخر بثقل . استلقيت صامتاً أترقب استيقاظها ثانية . ولسبب ما بدأت أفكر في كلمة دورة القمر . كنت أعرف أنها تعني القمر وأنها تصف كيف يدور القمر مرة حول الأرض.

لكنني أتذكر وقت كنت وأمي نشاهد السفينة القديمة التي أُخْرِجَت من

« السترمن ». كانت ألواح خشبها قاتمة مُتَحَلِّبَةً وكانوا يرشونها بخراطيم المـاء .
كانت هذه السفينة قد رست على طين والآن وأنا مستلق أترقب اسـتيقاظ جَدَّتـي
فكرت « بدورة القمر » . كان من العسـير علـيَّ أن أقـرر فيمـا لـو أن « دورة
القمر » هي ميناء ينساب إليه القمر لِيُشَـدَّ بمرسـاة تحـت جنـح الليـل ، أم هـي
ميناء على القمر حيث يمكن إدخال سفينة قراصنة جَدَّتي مثلاً لترميمـهـا . مجرد
فكرت: " دورة قمر، دورة قمر". وبعد ذلك استيقظت جَدَّتي .

سألتْ :

-هل نمتُ ؟ لا أدري إن كنت قد نمتُ . عمَّ كنت أتحدث ؟

7

هتفت جَدَّتي وحدثتني عن شيخ تعرفه صعد إلـى شقتها ونام على الأريكة . كنت قد سمعت به سابقاً . كـانت جَدَّتـي قد أخبرتني أنه يشرب الخمر كثيراً ، بحيث ينسى ، في النهايـة ، أنه يشرب . بات الشرب بالنسبة إليه مهماً جداً لدرجة أنه كان يذهب إلى السيد « جونس » ويبيعه كتبه القيِّمَة كي يدفع ثمـن الخمر. لكن جَدَّتي رتبت الأمر مع السيد « جونس » بأن تشتري زوجة الشيخ الكتب ثانية . ولولا ذلك لما بقي لديهم أي كتـاب قطّ .

حكت جَدَّتي أن الشيخ صعـد إلـى شقتها وطلـب منـها شـراباً. لكنـها أخبرته أن ليس لديها شيء في البيت . فأجابها عندئذ أنه لابـد أن لديـها مـاء على كل حال . وبينما هي تحضر له كاس ماء مـن المطبخ كـان قـد غفـا علـى الأريكة . وتركته عندئذ نائماً. إلا أنـها رفعـت السـجادة وجعلـت سطلاً إلـى جانبه ، في حال تَهَوَّعَ واضطر إلى التقيؤ. قـالت إنـه كـان يتحـدث في نومـه ، لكنها لم تتمكن من معرفة عما يتحدث . كانت لا تعتقد أنه نفسـه سيتسـنى لـه معرفة ما تحدث عنه فيما لو سئِل عندما يستيقظ .

بعد ذلك قالت جَدَّتي إنه لم يطرف لها جفن طوال الليلة ، إلا أن ذلك لا يضير. في حدود الساعة الثانية اهتدت إلى ما ستفعله فيما لو حصلت علـى مئة

مليون . كانت جَدَّتي تتحدث دائماً عما ستفعله لو ربحت مئة مليون . في كل ليلة تقلق فيها يخطر في بالها أفكار جديدة عما ستفعله بالنقود. أولاً ستعطي جزءاً للدولة لقاء أن تُعْفى من دفع الضريبة طوال حياتها. بعد ذلك ستستأجر جناحاً في فندق [غراند أوتيل Grand Hotel] وهناك ستقيم حتى مماتها. أنا وأبناء خالتي لن نحصل على الكثير. في اعتقاد جَدَّتي أنه غير مناسب أن يكون لدى الأطفال مال كثيراً. ربما نحصل على بعض منه بعدما نشبُّ . وبعد ذلك تشتري فراء جديداً .

بعد ذلك حكت عن ناس عزفوا موسيقى في التلفاز في الليلة السابقة . قدّرتْ أنهم عزفوا بشكل جيد لكنهم كانوا يرتدون ملابس غريبة . زد على أن الطبَّال تصرف بشكل سخيف . لم أجب كثيراً . تركت جَدَّتي تتحدث . كانت أمامي مجلة مصورة أقلبها بينما هي تتحدث . كنت أغمغم بين الفينة والأخرى وكأنما أوافقها الرأي على أمر. وكان يصدف أحياناً ألا أستمع إلى كل ما تقوله في الهاتف . ذات مرة صمت الهاتف فأدركت أنها سألتني عن أمر. لم أكن قد سمعت السؤال . لم أعرف بما سأجيب .

سألتُ :

–وما تعنيه بذلك؟

بعدئذ تابعتْ الحديث دون أن تجيبني . أعتقد أنها كانت تحس بالوحشة في أوقات العَصْرِ . كانت تشعر بالوحدة ولذلك كانت تهتف إليَّ . لابد أن الأمر على هذا النحو عندما يَسُنُّ الإنسان . عندما يكون الإنسان طفلاً فالأيام كلها متماثلة ، إلا أن كل يومٍ يكون جديداً. ولكن عندما يَسُنُّ فربما الأيام كلها تبدو رتيبة . لكنني كنت أستحب الإنصات إلى صوت جَدَّتي ، برغم أنني لم أكن أسمع كل ما تقوله . وبشكل ما فلربما لم يكن كل ما تقوله كان مهماً أيضاً.

كانت جَدَّتي تسأل كالعادة كيف جرت الأمور في المدرسة وأجيب كالعادة أنها بين بين . كان في رأي جَدَّتي أن ذلك كافٍ. بعد ذلك تساءلت كيف الحال

وقد بدأتُ عزف البيانو. كنت قد بدأت في أخذ دروس في العـزف علـى البيـانو، وكانت تلك فكرة أمي . وقلت إن هذا أيضاً بينَ بَيْن . أعتقد أن جَدَّتـي كـانت تدرك أننـي أعنـي أن الذهـاب وتعلـم العـزف علـى البيـانو كـان صعبـاً. كـان مسموحاً لي مغادرة المدرسة مبكراً مرة في الأسـبوع كـي أحضـر دروس العـزف . كان كثير من رفاق صفي يعاكسونني ويتسـاءلون مـا أفعلـه في الحقيقـة . إلا أن معاكستهم لم تكن سيئة جداً . كانت دروس البيـانو أسـوأ. كـانت أسـوأ شـيء لأنني لم أكن أعرف ما أقوم به . كـان يصـدف أن أجلـس إلـى البيـانو وأبكـي لأنني لم أكن أدرك ما الذي أقوم به . لم تسأل جَدَّتي بعـد ذلـك . لم يكـن لـدي رغبة في الحديث عن دروس العزف على البيانو .

كنت أذهب وحدي إلى جَدَّتي ، بعد المدرسة ، أحيانـاً. أركـب الحافلـة عبر المدينة وأنزل بالقرب مـن شـارع [أويلاندسـغاتان Upplandsgatan] . كنت قد تعلمت مسار الحافلة ولم يكن هناك مشكلة في الاهتداء إلى بيت جَدَّتي. ذات مرة ضللتُ الطريق فَجبْتُ في المدينـة باحثـاً دون أن أهتـدي إليـه . بعـد وهلة أدركت أنني ركبت الحافلة خطأ وانتهيتُ إلى طرف ، مـن المدينـة ، مغـاير كلياً. لم تكن لدي الجرأة على سؤال أحد إذ إنني لم أكـن أعـرف أيـن أنـا. وفي النهاية عثرت على حديقة صغيرة فدخلت بين الأشجار وبكيتُ قليـلاً. بعـد ذلـك استَصْوَبْتُ برجاً فصَوَّبْتُ نحوه . كان البرج غير الذي اعتقدت أنني اسـتصوبته ، لكنه كان يقع قرب شارع فَرَّقْتُ سمه وبذلك تيسَّـرَ أمـري . لم أصـل إلـى بيـت جَدَّتي إلا قبيل وقت العشاء . أعتقد أنها أدركت أنني ضللتُ الطريق لكنـها لم تقل شيئاً . لم تقل أكثر من أنها سعيدة بأنني وصلت في الوقت المحدد للعشاء.

كدت أحس أحياناً ببعض مَضَضٍ أن يطيب لرفـاق صفـي الذهـاب معـي إلى بيت جَدَّتي بعد المدرسة . كان من عادتها أن تقدم لنـا الشـاي مـع الكعـك وتتحدث عما يستهوينا دون أن تعرف مثقال ذرة عنه . لم يـدرك رفـاقي إطلاقـاً أن جَدَّتي لم تكن ، في الحقيقة ، تعـرف مثقـال ذرة عمـا نتحـدث . كـان رأيـهم حتماً أنه يكفي أن تبدو مهتمة . على الأقل لم تكن تَتَصَنَّع ذلك . لم تكن تتصنع

الفهم عندما لا تفهم أمراً بل تسأل عنه . وبعد ذلك كانت تحكي عن شيء تعرفه وكأننا نتحدث عن نفس الأمر . لا بد أن هذا ما جعل رفاق صفي يستلطفون صحبتي إلى بيت جدتي .

كنت وجدتي نتحدث أحياناً عن أشخاص نكرههم فعلاً . لم نكن نغتاب أشخاصاً نعرفهم . لم تكن جَدَّتي تتحدث بهذه الطريقة أبداً . كان يصدف ، حتماً ، أن تَذُمَّ شخصاً ، لكن لم يكن ذلك جدياً بشكل مطلق . أولئك الأشخاص الذين كنا نَذُمُّهم كنا نستحضرهم من كتب أو أفلام . كان محتملاً ، مثلاً ، أن تقول جَدَّتي إنها تكره فعلاً [آن على الهضبة الخضراء] . لربما لم تكن تكره [آن] ذاتها ، لكن دعنا نقول أنها كانت هي على كل حال . كان ذلك على كل حال من كتاب للفتيات لم أكن قد قرأته . كانت جَدَّتي تصف بعناية ودقة متناهية ما يتعذر عليها استلطافه لدى « آن » . ومع أنني لم أكن أفهم عمن تتحدث ، فقد كنت أفهم ما تعنيه .

أما أنا فقد قلت إنني أكره المفتش [سوليفان Sullivan]. كان المفتش شخصية من مجلة مصورة قرأتها حديثاً. سألتْني جَدَّتي لماذا كنت أكرهه فأجبتها إنه كان فظاً لا غير. لكن جَدَّتي لم تكتف بهذا الجواب . قلت لها إنه يبدو غليظاً ، لكن الجواب لم يكفها . كانت تريد معرفة المزيد. قالت إنَّ عليَّ أن أصف ما يثير اشمئزازي بحق . عندئذ اضطررت إلى سرد حادثة تصرف فيها المفتش « سوليفان » بطريقة منفرة . عندما كنا نتحدث سوية بهذه الطريقة كانت الشخوص تبدو أكثر حياة .

بعد ذلك تساءلتْ جدَّتي إن كنا سنصف من نحب أيضاً. بعد ذلك قالت إنه لا داعيَ أن يعرف المُحِبُّ سبب حبه . تكفيه معرفة أنه يحب . قالت إن علينا فهم الأمور والأشياء والأشخاص الذين نكرههم ، أما مَنْ نُحِبُّ فعلينا أن نحس بالسعادة لمحبتهم .

كنت أذهب وجدتي مرة في كل سنة إلى [سكانسن Skansen]. كلما شاء المرء الذهاب إلى [سكانسن] فهناك من يصحبه . لكتنا كنا نذهب مرة

واحدة كل سنة . عندما كنت أصغر سناً كنت أحاول التحدث مع الحيوانــات . صفَرتُ لفرخ فُقْمَةٍ فجاء إليَّ سابحاً . كان وحيداً في حوضه . صَفَرْتُ فجاء إليَّ ســابحاً وصــاتَ مجيبــاً. اســتلقى أولاً في قعـر الحـوض ســاكناً ونظـر إلـيَّ بعينيــه السوداوين الواسعتين . بعد ذلك طفا على سطح المــاء ورفـع رأســه وأمالَـه إلـى طرف ومن ثم إلى الطرف الآخر. كان ينظر إليَّ وكأنما يريد التحدث عــن أمـر. وبعد ذلك صاتَ وِحْدَتَه عالياً. كان هناك رجل يقف ناظراً إلينا فسأل جَدَّتي :

-« هل هو يعرف هو » ؟

ضحكت جَدَّتي عندما نطقــت ذلـك . لم تجـب بـأكثر مـن لا، وإلا لكـان عليها أن تجيب هو لا يعرفه . كان دَأْبُ جَدَّتي تصحيحَ خطأ مَنْ يرفَعُ المنصوبَ ويَنصِبُ المرفوعَ . قالت جدَّتي إنها بعد أن تحدثتْ مع الشيخ قليلاً ذهــب وهـو يعتقد ، حتم اً، أنَّ « هو يعرف هو ». لا أعرف في أي مكان ظــنَّ الشيخ أنني وفرخ الفُقْمَةِ قد أصبحنا أصدقاء .

وفي النهاية تناولنا الطعام في ذلك المطعم في قمــة « سكانســن ». أكلـت كالعادة النقانق المشوية وأصابع البطاطــا المقليـة ولا أذكـر مـا أكَلَـتْ جَدَّتـي . حكت جَدَّتي كيف كانت ترتاد المطعم بصحبة جدي عندما كانت أصغــر عمـراً. كانت تتحدث عــن أمـر لم يعــد في الوجـود . كـانت تتحـدث وكأنـها تســمع موسيقى فرقة رقص . كما لو أن المرء ما زال يسمع جرس حافلة الســكة في شارع « جورغوردسفيغن ».

كنت قد ركضت في لعبة المتاهات قبل تناولنا الطعــام . كـان رأيـي ، في الحقيقة ، أن لعبة المتاهات لأطفال أصغر منـي . لكننـي كنـت وحيـداً في تلـك الآونة فكانت هذه اللعبة وكأنها جزء من وحدتي. بـالضبط عندمـا كـدت أبلـغ المركز تَعَثَّرْتُ وكُشِطَتْ ركبتي وباطن يديّ قليلاً. كانت يداي تحرقاني ألمــاً لكـن ذلك كان سواء . انتصبتُ ونفضتُ التراب . كان الأمر سواء.

ربما لأنني كنت أحس كيف يحرق الألم راحتــيّ تعـذَّرَ علـيَّ سـماع فرقـة الرقص وحافلة السكة الحديدية والأصوات . شعرت وكأنني للمرة الأولى لم أكـن

فعلاً على وتيرة واحدة مع جَدَّتي . كانت أول مرة أدركُ أن جَدَّتي تَـهْرَمُ . لربما أدركتُ ذلك لأنني شببتُ . كنت قد عرفتُ أنني لن أبقى طفــلاً أبَـداً . عندمـا يكون المرء صغيراً جداً فإنه يعتقد أنه سيبقى طفلاً دائماً . لكنـــه يـدرك ، فيمـا بعد، أن هذه المرحلة ستنتهي . وعندئذ يدرك أيضاً أن هناك مسنين .

حكت لي جَدَّتـي كيـف كـان أبـي يرتـدي بـزَّة واسـعة وقُبَّعَـة عريضـة الأطراف وقد قصَّ شعره حسب زِيِّ « بولكا ». قالت إنـــه كـان مـن مُنَـاصِري رقصة « السوينغ ». هكذا كانوا يُسَمُّون . كنت قد سمعت هذا مرات عديدة من قبل والآن تَذَكَّرْتُ كل ما كنت قد سمعته. برغم أن الحديث كان يدور عن أبــي إلا أنني شعرت أن جدتي ثرثارة بعض الشيء . قدّرت بأنها بدأت تَخْرَفُ .

لكن تلك الأفكار كادت تتلاشى في الحال . فجأة قالت جَدَّتي شـيئاً ، لا أتذكر تماماً ما هو ، وبدأت جوقة الرقــص تعـزف ، ورنَّ جـرس الحافلـة وكـانت نفحة ربيع قبيل الحرب في الهواء. لم يعد الشهر هذا شهر أيار المتأخر ، بـل شـهر أيار قبيل الحرب . كان شهر أيار منذ أمد طويـل جـداً. لم أكـن أعـرف الحـرب فعلاً وإن كانت جَدَّتي قد حدثتني عن شقيق أبي الذي خَدَم في « فنلندا » ذات شتاء ووقف خفيراً. ولدتُ بعد سنين عدة من الحـــرب ، وسيان لـو أن الحـرب لم تنشب أصلاً. ومع ذلك فقد كأنّها منعطف في كل حكايات جَدَّتي أو كفُرْجَةٍ في غابة أو كغَيْطٍ في حقل .

حكت جَدَّتي عن قهوة لم تُصَنَّـعْ مـن حبـوب قـهوة و عـن أفخـاذ جـرذان وفتائل قطط قُدِّمَتْ في المطاعم . كانت قد عملت مع مجموعة كبيرة من السيدات في جمع ملابس وأشياء أخرى للجنود واللاجئـين . حكـت عـن سـيدة حـاكت كفوفاً كثيرة للجنود من خيوط صوفية زهرية اللون وسيدة أخرى غزلــت جـوارب سميكة تناسب أطفالاً بعمر ثلاث سنوات ولِفَاعَات رقبة طولها ثلاثة أمتار. عــن كعكات ميلاد عمرها شهر أرســلت في صنـاديق إلـى مراكـز تجمـع اللاجئـين في شمال السويد . عن أكوام الحطب في الشوارع وعن البنايات المُعَتَّمَة . كـان كـل شيء ذاته أثناء الحرب ومع ذلك فقد كان مختلفاً . وخلال الحرب كانت جَدَّتـي

قد وقعتْ في صالة الطعام وأصيبت بالندبة في الدماغ .

غادرنا المطعم وخرجنا إلى باحة الحصى في الخارج . كانت الريح تهب قليلاً والأرض تَعجُّ بالغبار . قالت جَدَّتي إننا سنجلس في المقدمة قرب السياج الحجري المحيط « بسكانسن » نشاهد البواخر. لو مشيت حتى السياج الحجري لتمكنت من رؤية الفِيَلَةِ وجبل القرود. تساءلت لو أن جَدَّتي ستتمكن من نزول الدرج إلى حظيرة القرود . جلستُ قربها فوق مقعد الحديقة . سألتني إن شبعتُ . أومأتُ برأسي . وضعتْ يدها على ذراعي وجلستْ صامتة برهة. وهبت ريح منعشة علينا. شعرت أنه من المضحك جلوسنا هناك ، ولكنني أفتدي الجلوس بأي شيء في العالم على أن أغادر ذلك المكان . كانت جَدَّتي متعبة. تحدثتْ عن لافتة كانت في حظيرة القرود سابقاً . كانت قد حكت عنها آلاف المرات . قالت :

- " لا تُطْعِمْ القرود . احرص على قبعتك ، قرد شره ".

رددتُ العبارة بينما جَدَّتي تقولها وضحكتْ لأنني تذكرتها. بعد ذلك نهضنا ومشينا إلى الدرج المؤدي إلى حظيرة القرود . تَوَقَّفَتْ وتَعَكَّزَتْ سياج الدرج . كانت متعبة ، وكان في ميسوري رؤية ذلك . اضطررنا إلى الذهاب إلى البيت . ربما كانت آخر مرة سنذهب فيها إلى « سكانسن ». كان الأمر سيان إذ أنني ، على كل حال ، شببتُ عن الذهاب إلى « سكانسن ». بلغت عمراً لا يتناسب والذهاب إلى « سكانسن ». برغم أن الغروب لم يحلّ والسماء صافية فقد كان في وسعي رؤية القمر أبيض شاحباً كغيمة مُعَلَّقَةٍ في السماء فوق منطقة [دانفيغستول Danvikstull] . سحبتْ جَدَّتي نفساً عميقاً فحسبت لوهلة أنها ستبدأ الغناء. لكنها دندنت قليلاً بصوت غير مسموع تقريباً. أو ربما أريد تَذَكُّرَها بهذا الشكل . أعتقد أنها ربما أرادت أن تحس نهاية ربيع قبيل الحرب .

قالت :

- لا مانع لدي أن تحتفظ بالقبعة على رأسك ، أيها القرد الشره .

وبعد ذلك شرعنا في هبوط الدرج.

ذات مرة سقطت جَدَّتي من على درج طويل قرب [أودنبلان Odenplan]. كانت قد زَلَّتْ في بداية الدرج وتدحرجت حتى الشارع . هرع الناس إليها يتجاذبونها ليساعدوها على النهوض . وكانت قد رجتهم أن يخففوا من روعهم ويدعوها مستلقية لترتاح قليلاً قبل أن تستقيم ثانية . خيّل إليهم أنها ماتت . قالت جَدَّتي إنها رجعت بعد أيام وعَدَّتْ الدرجات . قالت إنها تمكنت أن تعدّ حتى الثماني عشرة . وكانت ساقاها وفخذاها قد أصيبتا بكدمات كبيرة لكن حالها لم يكن أسوأ من ذلك .

أما أولئك الناس الذين هرعوا إليها فإنهم لم يرغبوا في تركها وشأنها. أرادوا إجبارها على النهوض ثانية . ولكنهم ، في النهاية ، تركوها وشأنها. كان أحد الرجال مستغرباً أنها نجت من هذه الزلّة بحيث جلس على درجة يلازمها. كانت الحادثة في منتصف الشتاء ، لكن الطقس كان صافياً ومشمساً. قالت جَدَّتي إنهما تحدثا عن بعض كتب كان كل منهما قد قرأها . وفي آخر المطاف ساعدها على الترجل . كانت قد استأجرت سيارة تُقِلُّها من « أودنبلان » حتى « أوبسرفاتوريغاتان » وساعدها الرجل حتى شقتها. قبل أن يمضي إلى غايته أخبرها أنه لم يُسْعَدَ بمثل هذا الوقت منذ أمد بعيد .

كنا قد فرغنا من تناول الطعام وسأنام لدى جَدَّتي . الآن حل الخريف ثانية . كانت جَدَّتي قد حكت عن [ماري سيليسته Marie Celeste] وكنت قد سمعتها مرات عدة من قبل . كانت « ماري سيليسته » باخرة قد عُثِرَ عليها دون بحارة هائمة في البحر وأشرعتها مستسلمة للريح . لم يكن ثمة مخلوق على ظهر السفينة . ولما صُعِدَ سطحُها شوهدت بعض أشياء مقلوبة وكل شيء آخر كالعادة سوى أنها خالية من أي مخلوق .

- انهض واخلع ما عليكَ إنَّ وَقْتَ النوم قد أزف ، قالت جَدَّتي .

جلستُ على حافة أريكة النوم المفروشة. كنت قد خلعت عني سُتْرَتي وفككت أزرار السروال وزرين من القميص. وعلى قرب مني كانت منامتي مُكَوَّمَة. وددت سماع الحكاية كلها لذا لم أستوعب لم العجلة في ذهابي إلى النوم.

قلت :

- أكملي الحكاية.

بدا وكأنما السفينة قد هُجِرَتْ فجأة دون إنذار مسبق. وكأنما البحارة قد تركوا أعمالهم لوقت ، وبعد ذلك تلاشوا في العَدَم . وفي سجل الملاحة دُوِّنَ آخر مسار للسفينة . وفي قَمْرَةِ القبطان كان الفطور قد قُدِّم لتوه وعلى الموقد هناك عصيدة والطاولة مهيأة . وفي بعض الأطباق سُكِبت العصيدة ، لكن كما يبدو لم يمس الفطور مخلوق . ولم يكن هناك أي دليل على أن مخلوقاً حاول اصطحاب شيء معه عندما هُجِرَتْ السفينة .

- والآن ، اخلع ما عليك والبس منامتك ، إن وقت النوم قد أزف .

بدت جدتي لجوجة لي . لم أدرك لم أصبح وقت نومي سريعاً بهذا الشكل.

تساءلتُ :

- لربما كانت عاصفة !

هَزَّتْ جَدَّتي رأسها نافية.

- لم تهبَّ عاصفة على مسالك الملاحة تلك منذ أسابيع.

- قراصنة إذن ، قلت محاولاً.

- لم يُسْرَقْ شيء.

- أيمكن أن يكون مرضاً؟

- لو كان ذلك لَدُوِّنَ شيء عن ذلك في سجل الملاحة إذن ، قالت جَدَّتي.

أومأت برأسي.

قالت :

- اخلع الثياب الآن والبس المنامة.

خطر في بالي فجأة أن جَدَّتي تَلَجُّ لأنها تَوَدُّ رؤية « زُبَيني ». لا أعرف لماذا حسبت ذلك . فقط دخل في روعي ذلك . فكرت أن عليَّ خلع سروالي دون إظهاره . سألت شيئاً عن الباخرة وحلَلْتُ باقي أزرار القميص . وعندما خلعت القميص كلياً وضعته على حِجْري بحيث أخفى « الزُّبَيْن » بينما كنت أخلع

السروال . لبست جاكيت المنامة وشددته على بطني . ويذا كـان في وسعي رفع القميص دون إظهاره . بدا لي أن اهتمام جَدَّتي برؤيته أمر غريـب . بعـد ذلـك لبست سروال المنامة وفكرت : مستحيل أن تكـون قـد رأت شيئاً. مستحيل أن تكون قد رأت شيئاً .

قالت :

- استلق الآن .

فكرت:

- إنها لم تر شيئاً .

تسللت تحت الدثار فشـعرت بدغدغـة ووخـز فرشـاة خشـنة علـى بـاطن قدميَّ. ضحكت جَدَّتي عندما رَمَحْتُ .

سألتُ :

- هل هناك خطأ في فرش السرير؟

سحبتُ الفرشاة .

سألت :

- هل درجتْ جَدَّتي على النوم مع الفُرُشِ أيضاً ؟

قالت :

- دائماً ، دائماً .

انسللت في السرير مرة ثانية.

- هناك في الحقيقة حل للغز « ماري سيلسته » ، قالت جَدَّتي.

كنت أعرف اللغز مسبقاً فقد سمعت الحكاية من ذي قبل.

قالت جَدَّتي:

- بعد سنين عدة كان ، في إنكلترا ، رجل يُحْتَضَرُ. حكى وهو على سـرير الموت كيف جرت حادثة « ماري سيلسته ». لم يشأ أن يحكي الحكاية من قبل إذ كان متورطاً في عملية تهريب وما شابه ذلك . بعد ذلـك كـان قـد عمـل خادمـاً لدى إقطاعي في إنكلترا. ولما كان على وشك الموت لم يرغب في دفن السر معه.

تساءلت :

- هل اغتالهم ؟

- لا، قالت جَدّتي.

كان في صحبة القبطان ابنة صغيرة وكانت تقف في مقدمة السفينة تشاهد خنازير البحر التي تتقافز على المويجات. لكنه كان يحسب وقوفها على هذا الشكل أمر خطر ويخشى أن تسقط في البحر. ولذلك أمر ببناء منصة من طاولتين مقلوبتين في مقدمة السفينة. كان في استطاعة الابنة الوقوف عليهما ومشاهدة خنازير البحر دون احتمال سقوطها في الماء.

- هل كان سبب غرقهم أنها وقعت في الماء؟

- لا، اسمع الآن.

كان القبطان وربّان السفينة ، ذات صباح ، يتجادلان عن الكيفية التي تمكّن المرء من السباحة وهو مرتدٍ ثيابه . كان البحر هادئاً كلياً وقال القبطان إن في مقدوره أن يسبح حول الباخرة كلها. تراهنا على ذلك وخرج الجميع إلى ظهر السفينة ينظرون . وتركوا كل شيء من أيديهم ، أطباق الفطور ، إصلاح الأشرعة ، غسيل سطح الباخرة وأعمال الصيانة ، وتجمعوا على ظهر السفينة للهتاف .

شعرت من تحت الدثار كيف تسري قشعريرة في بدني . كنت أعرف فعلاً ما سيحدث بالضبط . قرفصتُ تحت الدثار وشعرت كيف تهب ريح البحر عبر الغرفة .

تابعت جَدّتي:

- رمى القبطان بنفسه في الماء وبدأ يسبح . كانت السفينة تمخر ببطء شديد إذ تكاد الريح أن تكون ساكنة . لم يكن عسيراً عليه قطع طول أحد أطراف السفينة بسهولة . وكان أحد البحارة يتابع الرهان وقد هيأ سلماً من حبل يقذفه في الماء في حال جاء سمك قرش واضطر القبطان على الخروج من الماء بسرعة .

مالت بجذعها إلى الأمام وهي على الكرسي وضمت يديها إلى بعضهما بعضاً فوق ركبتيها .

- وسبح القبطان على مهل وبثقة نحو مقدمة السفينة وكان الجميع يهتفون . وجاءت اللحظة الحاسمة ، هل سيتمكن من الالتفاف حول مقدمة السفينة ويربح الرهان ؟ كاد أن يبلغ ظل مقدمة السفينة عندما اندفع البحارة كلهم فوق الطاولات التي سُمِّرَتْ هناك لتقف ابنة القبطان الصغيرة عليها. كانوا يهتفون ويتصايحون عندما بدأت الطاولات تَصُرُّ وأُفلِتتْ عن مقدمة السفينة فجأة وسقط كل من على السفينة في الماء . تابعت السفينة إبحارها ببطء وبعد قليل جاءت أسماك القرش وأكلتهم جميعاً .

سألتُ :

- وكيف استطاع النجاة هذا الذي بقي على قيد الحياة ؟

- استقرّ على إحدى الطاولات وطاف على سطح الماء مبتعداً دون أن تشم أسماك القرش رائحته. وبعد فترة طويلة قذفت به الأمواج إلى اليابسة ونجا. لكنه كان مهرّباً قد تَخَفّى على الباخرة فلم يجرؤ على قول شيء إذ كان يعتقد أنه سيقبض عليه ويلقى به في السجن.

قلت :

- جَدّتي !

- نعم.

- هل هذه قصة حقيقية ؟

قالت :

- أعتقد ذلك . يمكن أن تكون حقيقية .

- لكن المرء يريد معرفة إن كانت حقيقية أم لا.

قالت :

- لا تتاح للمرء معرفة الحقيقة دائماً. لا يمكن للمرء أن يعرف إن كان أمر ما حقيقياً فعلاً إن لم يصدقه هو نفسه . يمكن أن يعرف المرء أن أمراً ما

حقيقي ، ومع ذلك يدخل الشك إلى نفسه . ويمكن أن يعرف المـرء أن أمـراً مـا غير حقيقي ، ومع ذلك يعتقد أنه حقيقي. وأيهما أكثر حقيقة : ما يؤمـن المـرء به أم ما يعتقده ؟ إنني غير واثقة .

- ألا يتسنى للمرء معرفة ذلك أبداً؟

- لا، ربما لا تتاح للمرء معرفة ذلك.

نهضتْ وخرجتْ وأطفأتْ المصباح في المدخل. أطفأتْ المصبـاح المنخفـض وبعد ذلك اتجهت إلى المصباح الصغير قرب طاولة الأريكة .

قالت :

- سأطفئ المصباح هنا الآن.

أومأت برأسي. حلّتْ العتمة في الغرفة . كان مصباح السرير ، في غرفة جَدّتي ، يرسل نوره الأصفر الكَمِدْ. ومرت سيارة ، في الأسفل ، في شـارع « أويسرفاتوريغاتان » ومدّت ذكرى بيضاء يدها عبر الستارة الهفهافة الخفيفة .

قلت :

- جَدّتي!

وقفتْ في مدخل غرفتـها والتفتـت نحـوي. كـانت الآن بدينـة ، جَدّتـي . كانت حركتها بطيئة وثقيلة . وقفت ويداها قد ضُمّتا في جيوب معطف الصباح. أعتقد أنها آنئذ كانت ما تزال تستعمل معطف الصبـاح القديـم لجـدي . تحـت أحد إبطيها استقرت جريدة مطوية . بدت لي أنها ضخمة جـداً إلـى حـد أنـها ملأت فتحة الباب كلها.

قالت :

- نعم ، يا « كريستيان » ، ما الأمر؟

قلت :

- جَدّتي ، لا أعرف ما أريد أن أكون عندما أشب .

- لا حاجة أن يعرف الإنسان ذلك . أتعرف ، هناك مَنْ يستطيعون القيـام بأي شيء كان ، إلا أنهم لا يعثرون على شيء يودون القيام به.

شرعتُ في الحديث :

- لا أعرف.

- لا حاجة للمرء أن يعرف شيئاً. كن إنساناً يريد أن يكون ذاته.

لم أدرك ما تقصده . أعتقد أن ذلك لم يكن مهماً كثيراً. ألقتْ عليَّ تحية المساء ودخلتْ غرفتها. تناهى إلى سمعي كيف كانت تُحَدِّثُ ذاتها قليلاً وهي مستلقية في سريرها والجريدة أمامها. وبعد ذلك سحبت ذكرى أخرى يدها عبر الستائر . وربما كنت آنئذ قد غفوت في مكان لا مُعَيَّنْ داخل طيف باهت من لاشيء.

- كل شيء يزول ، سمعتُ جَدَّتي تقول.

لم أعرف فيما لو أنها قد نامت أيضاً. وعلى الجريدة التي تمسك بها بيدها اليسرى دخلت وخرجت ثلاث أو أربع كلمات من بعضها بعضاً. وفي الخارج أرذَّ نصف القمر الباقي أسْطُحَ البنايات والشوارع. مسست لوح زجاج النافذة وشعرت برذاذ القمر على أناملي.

- متى ينتهي لاشيء ؟ ، تساءلتُ.

قالت جَدَّتي :

- أبداً. لاشيء لا ينتهي أبداً !

8

انتقلت جَدَّتي بعد فترة وجيزة إلى تلك المؤسسة وعندئذ اختفت قطع أثاث أخرى أيضاً. أين اختفت وإلى أين مضت لا أعرف. بدا وكأنها قد احتفظت بكل الكتب لديها. يمكنني تَذَكُّرَ كعبيات كتب جَدَّتي وهي في مكتبتها بالوضوح ذاته الذي أتذكر وجهها. تنتصب بعض الكتب كذكريات ملأتها الأطياف، نصف منسية ولم تُقْرأ مرة أخرى أبداً. كِعَابُ مرجع [كتاب الأسرة الاسكندنافي Nordiska Familjebok] تنام وهي أكثر تشققاً وبلاءً. قصص بوليسية أتت عليها القراءة ومن حولها شريط مطاطي كيلا تَتَفَرَّق صفحاتها. وكتاب سيرة حياتية، يدور حول حياة القديسة [بيرجيتا Birgitta] ، لم تُشَقّ طَيَّات صفحاته. بعض دواوين شعرية مُهْداة من شاعر قد نُسِيَ . إنه لاشيء ، لكنه جَلِي كوجه .

كان لدى جَدَّتي ، في المؤسسة ، غرفة واحدة ومَخْدَعٌ يتلو المطبخ الصغير الذي تعوزه نافذة ، وممر طويل يكفي لاحتواء المكتبات . كان شقيق أبي موجوداً يساعد في النقلة . كان يقف في المطبخ ويشرب الحليب . كانت جَدَّتي قد حكت لي أنه عندما كان طفلاً شَرَّبَتْهُ زيت السمك ممزوجاً بالبيرة . ومنذ

ذلك الوقت لم يستطع أخو أبي أن يحتسي البيرة . وعندما كان يَعُبُّ الكحول الصافي يتبعه بالحليب . كنت أدرك أن هذا غير مألوف بعض الشيء . وكان في كل الشقة الفارغة علب ورقية صغيرة وأكياس . كان ما يزال لدى جَدَّتي مفروشات كثيرة وكانت الشقة الصغيرة محشوة بالأشياء لدرجة

تُضْطَرُّ المرء إلى تسلق الأشياء كي يصل . تلك كانت لوحة حقل القمح الكبيرة الصفراء الوحيدة التي عُلِّقَتْ على الحائط . كانت تتدلى فوق الأريكة مائلة قليلاً وتجلس جَدَّتي تحتها تماماً . وكانت صورة جَدَّتي وهي صبية في المدخل على علاقة الثياب . كانت تسميها بآنسة السيجار . لم أفهم تماماً ما تعنيه بهذه التسمية . لربما كانت تعني أنها تبدو مثل من تعمل في محل بيع التبغ .

جلست جَدَّتي على الأريكة متطامنة على نفسها وكان في وسعي رؤية التعب بادياً عليها. كانت شقيقتها تمشي في الشقة وترتب كل ما يمكن ترتيبه. وكانت جَدَّتي ساهمة تعبث إحدى يديها بالنظارة الأحادية العدسة مما يجعلها تتأرجح مثل رقّاص ساعة . وكأنما الغرفة قد خيّم النوم عليها. كنت أعرف أن أمي ستأتي عما قريب من عملها لتأخذني . فَضَّتْ يدا شقيقة جَدَّتي الورق عن أكواب القهوة وصحونها ، المُكَوَّمة في صناديق ورق مقوى ، ونضدتها داخل الخزانة بسرعة .

قالت جَدَّتي :

- هذه آخر مرة أنتقل إلى سكن آخر. لتكن هذه كافية الآن.

قالت جَدَّتي إنه ليس هناك أدنى مجال لترتيب كل شيء . مازحَ شقيق أبي جَدَّتي بشيء فابتسمت . قالت جَدَّتي إنه يكفيها أن يهيأ السرير فقط. تابعت أختها تنضيد الأواني المنزلية في المطبخ. تمنيت أن تحضر أمي بسرعة ليتسنى لجدتي البقاء لوحدها . فتشتْ جدتي في صندوق ورق مُقَوّى وأخرجتْ صورة أبي ووضعتها على منضدة توسطت الغرفة واكتظت بالأشياء .

وترتبت أخيراً غرفة جَدَّتي الصغيرة في الوسسة . نُقِلَتْ بعض المفروشات

إلى القبو وعُلّقَتْ كل الصور على الجدران . كانت أخت جَدَّتي تسكن في نفس المُجَمَّع إنما في بناء آخر لكن لم يكن يعوز إحداهما إلا أن تقطع حديقة المبنى وتركب المصعد لتزور الأخرى . كانتا تتخاصمان دائماً كعادتهما . كانت أخت جَدَّتي تخيط دُثُراً كبيرة ذات أشكال معقدة من رقع حرير بينما يَعْسُرُ على جَدَّتي خياطة مَسّاكَة قدور. وعندما كان هناك مسابقة في المذياع كانت جَدَّتي تعرف كل الأجوبة بينما كان رأي أختها أن هذا مَضْيَعَةٌ للوقت . كانتا على خلاف في الرأي دائماً .

اشترت جَدَّتي كُرّاسَةَ رسم ومجموعة أقلام لِبّاد ملونة وبدأت ترسم. رسمت لوحة تكاد تشبه لوحة حقل القمح المعلقة فوق الأريكة إلا أن سماءها كانت خليطاً من البنفسجي والأخضر بينما حقل القمح من خليط الأصفر والأخضر والأحمر. أحببت اللوحة وهي في حوزتي الآن . تُحَوِّمُ بضعة غربان وحيدة في السماء ذات اللون البنفسجي والأخضر وتتحدث عن شيء ما. كانت الريح تَنْفَخُ من البحر والغيوم تنحسر مبتعدة نحو اليابسة .

رسمتْ جدتي أبنية أيضاً ، أبنية وناساً إلا أنها كانت تبدو كأنها مستلقية على الأرض . بدت جدران المباني وكأن عاصفة أطاحت بها على الأرض أو كما تبدو في أحد أفلام [بَسْتِر كيتون Buster Keaton]. وبالقرب من المباني استلقى الناس وكأنهم قطط نائمة . بعد ذلك رسمت زَهْرِيّة وفيها أزهار . لا أعرف كيف رسمتها ، لكن الزهور بدت وكأنها تُدَوِّمُ في الهواء خلف الزهرية . وبالمناسبة كانت الزَهْرِيَّة مسطحة كلياً. أما أنا فقد رسمتُ ، بألوان مختلفة عديدة ، وجهاً يغني . أطلقتْ جَدَّتي على لوحتي عنواناً : [لكل غابة نبعها حتماً]. بعد ذلك كتبتُ العنوان تحت اللوحة: [لكل غابة نبعها حتماً]. علّقَتْها جَدَّتي على باب الحمام .

كانَت رسوم جَدَّتي تشبه برامج التلفاز التي لم تكن تستطيع مشاهدتها. كانت جَدَّتي تضطر إلى إغماض جفنيها في حال صُعِّدَتْ الرسوم بلقطات سريعة وألوان كثيرة على الشاشة . قالت إن سبب إغماضها جفنيها هي الندبة في

الدماغ . كان محتملاً أن تُنَوِّمَها مثل هذه الرسوم السريعة بغتة وتجعلها تحلم أحلاماً مباغتة مكثفة . كان أحد هذه البرامج يبدأ بصوت خبط مُطَوَّلٍ وحلقات تجوب الشاشة مندفعة نحو الناظر. وعندما يبدأ هذا البرنامج تضطر جَدَّتي إلى إغلاق التلفاز . وبعد تذمر كثير من المشاهدين أضطر المسؤولون إلى تغيير مقدمة البرنامج .

ولم يتحسن وجع رأس جَدَّتي. كانت تتذمر أحياناً متعللة أن الطبيب وصف لها حبوباً خطأً وأن هذه الحبوب الجديدة لم تنفعها مثل سابقاتها. حتماً قال لها الطبيب إنها من نفس النوعية، لكن جَدَّتي كانت تعلم أنها أخف . كان الألم يبتدئ في الهزيع الأخير من الليل . كان مفعول الحبات لا يكفي أكثر من الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً . قالت جَدَّتي ربما لأن القمر يكون قد مَلَّ ساعتئذ . القمر يتعب في منتصف الليل فيقلب على طرفه نحو قارة أخرى . وحبوب التنويم لا تكفي وحبوب وجع الرأس لا تكفي .

ذات يوم أرتني أصيص زرع قرب النافذة في المخدع . أشارت إلى بضع غُصَيْنَات تنبت إلى جانب النبتة الأكبر. قالت إنها برتقال . كانت قد طمرت بضع حبات في الأصيص وبعد ذلك بدأت تنمو. قالت إن شَدَّ عودها فستنقلها إلى أصيص آخر.

قلت :

- هل يمكن أن تثمر برتقالاً، برتقالاً يُؤكل ؟

قالت جَدَّتي :

- في علم الغيب . ليس في وسع المرء معرفة ذلك .

يكاد ألا يكون في المؤسسة إلا نساء. كان محتملاً رؤية بضعة رجال أحياناً وغير ذلك كن نساء عجائز فقط . لكنني لا أعتقد أن جَدَّتي قد تعرفت إلى أيٍّ منهن . التقت بضع مرات عجوزاً ترسم لوحاتَ زَهْرِيَّاتٍ صغيرة وغروب الشمس . كانت تشرب القهوة مع جَدَّتي وأختها أحياناً. لكنني أعتقد أن جَدَّتي كانت تعتكف وحدها في الغالب .

إن لم يكن هناك مَنْ يجلس على مقاعد الحديقة كانت جَدَّتي تتوقف وتجلس هنيهة في شمس الربيع . كنا قد نزلنا إلى المخزن وتَبَضَّعْنا ومن ثمَّ جلسنا في الفيء على مقعد في آخر الحديقة . كانت جَدَّتي قد اشترت عنباً فأكلنا بضعاً منها ونحن نجلس هناك . كنت أخاف أن تُغَصَّ جَدَّتي بأحد نواتها. كانت جَدَّتي تُغَصُّ دوماً . ما كان لينقضي عشاء دون أن تُغَصَّ بشيء . ومن لم يكن قد ألف عادتها يعتقد أنها ستموت دائماً. ولكن بعد خبطات على الظهر ورفع أيديها تُوَفَّقُ في البلع . كانت تقول:

- حقاً ، إن هذا مثل بائع الجملة !

كانت المؤسسة تقع على حدود مقبرة صغيرة في الطرف المقابل. قالت جَدَّتي إن مَنْ يُدْفَنُ هناك يهود فقط . وقفت قرب السياج الحديدي أنظر إلى شواهد القبور عبر الأسياخ. كانت الأسماء محفورة بأبجدية غريبة لم أفهمها. وعلى بعض الشواهد حُفِرَتْ نجمة سداسية مثل تلك التي يستطيع المرء رسمها بمثلثين. كان ممكناً رسم نجمة خماسية بخط واحد ، لكنني لم أوفق إطلاقاً في رسمها. كنت أبدأها بشكل صحيح ، لكنني أنتهي دائماً بأن يستقر خطي في مكان خطأ .

تساءلتُ :

- أما زالوا يدفنون موتى هناك ؟

- لا، لا أعتقد ذلك.

- هل يأتي زوار يعنَون بالقبور؟

- لم أر أي مخلوق إطلاقاً.

نظرت إلى الأسياخ الحديدية التي تحيط بالمقبرة فلم أر أية فتحة. كان أحد الأطراف القصيرة ينتهي عند أحد جدران بناء المؤسسة والآخر ينتهي عند جانب مفتوح. كانت المقبرة تبدو كما لو كانت مقر نسيان في وسط المدينة.

تساءلت :

- أليس هناك مَنْ يتذكرهم ؟

- تعني الموتى ؟

أومأت برأسي .

- لا أعرف ، قالت جَدَّتي. ولكن وإن نُسِيَ الراقدون ، فالموتى بحاجة إلى مستقر ، أليس كذلك ؟

أومأت برأسي .

قالت جَدَّتي:

- حتى إنّ بعض الموتى يُنْسَوْن وعندئذ يتحولون إلى طَوّافين بائسين. الأشباح كما تعرف.

نظرت نحو المقبرة الصغيرة . كان العشب على القبور ضئيلاً يابساً مثل شعر إنسان مسن . كانت شواهد القبور تلقي بظلالها الصغيرة المرتعشة على العشب الضئيل. كانت الظلال وكأنها تتحرك حسب نور ذاتي لا قيد عليها من ليل أو نهار .

- ألم أقصص عليك حكاية شبح البيت الذي كنا قد استأجرناه منذ زمن بعيد في [شويمانهولم] . البحار العجوز الذي بُعِثَ من جديد.

كانت قد قصتها مرات عديدة . كان في وسعي سماع صرير بوابة الكوخ في الحال ؟

أجبت :

- لا، لم أسمعها.

بينما كانت جَدَّتي تحكي الحكاية أكلت بضع حبات من العنب ونظرت إلى الشواهد ثانية . لم يكن هناك إلا قبور تُعَدُّ على أصابع الكف الواحدة وبعض شواهدها مائلة قليلاً وكأنها على أهبة السقوط . جَثَمَتْ حمامتان على سياج المقبرة الحديدي وبدتا وكأنهما تخشيان مغامرة الدخول إلى المقبرة الصغيرة .

كنت قد زرت قبر والدي وحدي عدة مرات . كانت رفاته في نفس قبر جدي . كان قبراً صغيراً . عندما يُرْمَدُ الإنسان فلا حاجة إلى أن يكون القبر

كبيراً . كنت ، ذات مرة ، قد زرت المقبرة يوم عيد جميع القديسين وضللت الطريق ولم أصلها إلا عَصْراً . كان الطقس بارداً مُطِلاً والمقبرة ضَبِبَةً. كان ثمة شموع تلتهب على القبور جميعها ، وتبدو المقبرة مثل درب تبانة صغير من أرواح الموتى المنيرة . كنت قد شاهدت برنامج تلفاز يتحدث عن أن اليابانيين يشعلون الشموع على القبور كي يعرف موتاهم أنَّ الأحياء يتذكرونهم . عندما رأيت كل هذه الشموع على القبور فكرت أنها كانت الجواب عن أسئلة النجوم .

كان اسم جدي أول اسم على الشاهدة . كان اسمه قد كلح قليلاً، وكأنما السواد على الأحرف قد تقشر لفعل السنين واسم أبي الذي كان في الأسفل كان أسود قاتماً على الحجرة الفضية . أتذكر أنني فكرت أن النسيان لم يكن لديه متسع من الوقت كي يتذكره . كان هناك فراغ بين اسم جدي واسم أبي . كنت أعرف أن اسم جَدَّتي سيكون هناك بعد ما تموت . شعرت بالوحدة . كانت الشاهدة صغيرة جداً . لم أعرف أين سيكون مستقري . كنت مقروراً وكان الوقت متأخراً . وفي اليوم التالي أصبت بالزكام . لم أخبر والدتي أبداً أين كنتُ .

زرت المقبرة بصحبة جَدَّتي مرة أخرى أيضاً. كان اليوم مشمساً ، في بداية الصيف ، فدخلنا نزور الكنيسة التي كانت باردة ومنيرة . بينما كانت جَدَّتي تجلس على مقعد قرب القبور خرجت من المقبرة وتسلقت بضع كومات تراب حُفِرَ حديثاً. وكان في التراب قطع مرج مقلوبة على قفاها ، أغصان وجذور.

قالت جَدَّتي :

- الهدف هو توسيع المقبرة . ستكون في هذا المكان غيطة ذكرى .. ستكون هناك [غيطة ذكرى] للموتى الذين لا يريدون قبراً خاصاً وإليها سيتسنى للمرء المجيء وتذكر مَنْ هم أموات بلا قبور خاصة .

انتصبتُ على قمة الكومة . كان الطقس حاراً والهواء ساكناً. وكان في وسعي مشاهدة كيف تسطع الشمس بعيداً فوق خليج صغير .

فجأة سمعت أزيزاً حول قدمَيّ . انطلق من التراب رف من نحل الأرض . نزلت راكضاً من على الكومة . كنت أخاف النحل دائماً . لم تلدغني أية نحلة ،

لذا لا أعرف ما هو الشعور باللدغة. لو كنت قد لُدِغْتُ لربما كنت لا أخاف على هذا النحو. ربما أخاف النحل لأنني أجهل الشعور باللدغة. أمّا أن يوجد نحل حيث ستكون غيطة ذكرى فقد كان ، حسب رأيي ، شيئاً فظيعاً . كان من العسير ألا أفكر في أنه سيكون هناك كثير من نحل الأرض يئزُّ بين الأموات الذين ليست لديهم قبور خاصة . ركضت إلى المقبرة حيث جَدَّتي . تراءى لي أنها تحدث نفسها . كانت المقبرة أقل حرارة ولم يكن هناك نحل . حكيت لجدتي عنها وأشرت إلى كومات التراب.

قالت جَدَّتي :

- ليس هناك نحل هنا. على المرء أن يجلس ساكناً كلياً ، فلا تلدغ.

كانت قد انتهت من حكاية الشبح في الكوخ الريفي. وعلى سياج الكنيسة الصغيرة كانت الحمامات ما تزال واقفة بلا حراك. كانت الشمس قد طافت حول عُقَدِ المبنى وبدأ الظل يبرد.

تساءلتُ :

- هل توارى الشبح حقاً عندما أمرتِهِ أن يذهب وشأنه؟

قالت جدتي :

- بلى ، لم نر له أثراً في ذلك الصيف . لكن والدك كان يتذمر، في الصيف التالي ، من سماع خطى وخبطات في السقيفة . ولكن لربما كانت هناك نافذة مفتوحة تخبط.

أغلق شخص في أعلى البناية نافذة فجالت حزمة أشعة شمس على عشب المقبرة الصغيرة . وللحظة استراحت أطياف الشواهد ساكنة على رؤوس الحشائش ، خائفة تائهة . كان كل شيء ساكناً ونزلت نقطة عتمة على النهار فسخم قليلاً .

بعد بضعة أسابيع هتفت جَدَّتي وقالت إن نبتة البرتقال قد نمت وغَلُظَ ساقها وأصبح كالخشب وإنها نقلتها إلى أصيص خاص . كان في اعتقادها أن النبتة تبدو وكأنها قد برعمت . قالت إن للبرتقال زهراً أبيض ذا رائحة عَطِرَة .

قالت :

- لو حالفنا الحظ وتحدثنا بهدوء مع البراعم لربما نتعم برؤيتها تزهر.

غرزت حول النبتة « عصوا الجوارب » تدعم بها الأغصان النحيلة كي تنتصب . قالت برغم أن الغرز مزعج إلا أنها سعيدة أن يتسنى لها استعمال العصوين لشيء مفيد. كانت أختها قد قالت لها إن هناك في الدكان أوتاد زرع، لكن جَدَّتي قالت لها إن العصوين أفضل . لربما تُسَمِّمُ أوتادُ الزرع الترابَ . ولكن أهم شيء كان التحدث مع النبتة . يجب ألا تحسَّ بالوحدة .

بعد ذلك ، وفي كل يوم هتفت إليّ ، تحدثنا عن لاشيء . كانت جَدَّتي تبتدئ الحديث دائماً بأن لديها شيئاً مهماً تريد مناقشته . كان محتملاً أن يكون شيئاً قرأته أو رأته في التلفاز . أو أن شيئاً جرى لها أو لأختها . لكن ذاك الأمر الأكثر أهمية يُنْسى مباشرة . لربما كان أمراً غير مهم على كل حال . كان المهم أن تتاح لها فرصة الحديث قليلاً . لم تعد تقريباً تسأل كيف كان مسير المدرسة . كانت تسأل أحياناً شيئاً يخصُّ رفاقي ، وهذا أمر آخر. وأنني أخيراً وبعد سنتين تخلَّصتُ من دروس البيانو ، لم نتكلم عليه ، فقط قلت لها إنني لم أعد أعزف على البيانو .

- لابد أنه شيء يُسِرُّكَ ، كانت قد قالت ولم نعد نتحدث عن الأمر بعد ذلك .

في هذا الصيف أصبحتُ مَلِكَ الشتائم . كانت أمي قد عثرت على معارف لديهم ابن في عمري . لم أكن قد قابلته من ذي قبل إلا أنه قُرِّرَ ، بالرغم من هذا ، أن أسافر إليهم لمدة أسبوعين. عندما تقابلنا في المحطة نظر أحدنا إلى الآخر بريب فقط . إلا أن الأمور سارت على ما يرام . ركبنا القارب قليلاً ، واشترينا بكل مصروفي وبعد ذلك بنقود احتال على والده وأخذها سكاكر ومجلات مصورة وقصصاً بوليسية . بعد ذلك تبارزنا من يستطيع أن يُضَمِّنَ جملةً واحدةً أكبرَ عددٍ من الشتائم .

استطعنا قول جملة :

- بحق الشيطان الرجيم كم هي الساعة اللعينة ؟

أعتقد أن المبارزة انتهت بالتعادل إذ أصبحتُ مَلِكَ الشتائم وأصبح هو رئيس الشتائم . أرسلت بطاقة بريدية إلى جَدَّتي. لم أعرف ما سأكتبه على البطاقة ربما بسبب كل الشتائم التي اندفعت تجول في رأسي . لكن أبي خطر في بالي فكتبتُ: حسناً ، « كريستيان ». كان هذا كافياً، كنت أعرف أن هذا يكفي. بعد ذلك كان علينا أن استطلاع بيتاً مهجوراً.

سافرت إلى نفس المكان في الصيف التالي أيضاً وتقرر أن أسافر إليهم ثانية . لكن ذلك لم يُنَفَّذْ . لا أعرف لِمَ. كان أسمه « أوكه » . أرسلت له في السنة الأولى بطاقة معايدة كتبتُ عليها عيد ميلاد شيطاني ، لكن رأي أمي كان أن المرء لا يرسل بطاقة تهنئة بعيد الميلاد على هذا النحو. لربما كانت على حق.

كانت أمي هذا الخريف مضطرة إلى السفر لمدة أسبوعين وكان مقرراً أن تسكن جَدَّتي معي لكنها كانت قلقة على نبتة البرتقال . كانت قد أزهرت خلال الصيف والآن أثمرت . كبرت برتقالة واحدة بين الأوراق . وقصت جَدَّتي بحرص بضعة أوراق كي يصل النور إليها. لم تكن أكبر من حبّة كرز مصقولة القشرة لماعة . تحسستها بإصبع واحدة . كانت طرية مثل جلد رضيع . لم ترغب جَدَّتي في لمسها، كانت خائفة أن تسقط عن الغصن . قالت إنها تكتفي بالتحدث معها.

سألتُ :

- هل تنوين أكلها عندما تنضج ؟

أجابت جَدَّتي :

- لا يأكل الإنسان مثل هذه البرتقالة . مثل هذه البرتقالة سيتاحُ لها عيشَ حياتها كلّها.

كان على أختها أن تُعْنى بالزهور بينما تسكن هي معي . ذات يوم ، وأنا في المدرسة ، ذهبتْ جَدَّتي إلى البيت لتُعْنى بالنبتة .

قالت :

- يبدو وكأنما الفاكهة قد كبرت وإن في قمة النبتة برتقالة أخرى بدأت

تنمو. مازالت صغيرة وخضراء مثل حبة البازلاّء لكنها ستصبح برتقالة أيضاً.

قالت جَدَّتي إنها خشيت أن تكون أختها قد أماتت النبتة بكـثرة المـاء. قالت إن النباتات سَتُسْقى بشكل معتدل لا كثير ولا قليل مـن المـاء. مـاء كـاف ويعد ذلك التكلم معها.

كانت جَدَّتي تساعدني أحياناً على إنجاز وظيفة ، لكنها كانت تكتفي في أكثر الأحيان بالسؤال إن كانت لدي وظائف مدرسية . لم تسأل أبـداً فيمـا لـو أنجزتها، كانت تسأل فقط إن كانت لديَّ . كان أحـد رفـاقي يزورنـي كـل يـوم بعدما ننتهي من تناول العشاء . درجت جَدَّتي على التفكه بذلك . كانت تقـول إن علينا الإسراع بتناول الطعام قبل أن يحضر [كريسـتر Christer] ويأكلـه . لكن « كريستر » كان يأتي دائماً عندما نجلس إلى طاولة الطعام ونـأكل . ذات مساء وضعتُ إسفنجاً مبلولاً فوق كيس نايلون تحت دثار سرير جَدَّتـي . عندمـا أوت جَدَّتي إلى فراشها سمعتُ صرخة . قالت جَدَّتي إنها ستجعلني أنـدم علـى وضع الإسفنج . في الليلة التالية وضعتْ أربع فراش غليظة في سريري .

عندما رجعت مـن السينما ، ذات ليلـة ، كـانت جَدَّتـي قـد أوت إلـى فراشها ونامت . كـانت قـد غفـت وهـي ترتـدي معطـف الصبـاح القديـم فـوق ملابسها وقد أمسكت بيدها كتاباً. عندما سمعتني استيقظتْ . أردتُ أن أحكـي لها عن الفيلم ، لكنها طلبت مني الخروج من الغرفة برهة . كـان في رأيـي أنـها تتحدث بشكل غريب وغير واضح. لم أفهم ما ألَمَّ بها . سمعتها تبحث عن شيء.

سألتها :

- ما الخبر؟

قالت:

- أنت تعرف بالتأكيد .

لم يكن ليخطر في بالي إطلاقاً أن لجدتي أسناناً صناعيـة . سـمعت كيـف كانت تفتش عنها بين أغطيـة السـرير. سـألتُ إن كـانت تريـد أن أسـاعدها في البحث عنها . أجابت بالنفي باقتضاب . كنت أعـرف أنـه لـدى جَدَّتـي ، أم

أمي ، وجدي ، والد أمي ، أسنان صناعية . كانا يضعانـها كـل يـوم في كـأس ماء « فاديميكيوم » فوق منضدة السرير . كنت قد شاهدت ذلك مرات عديـدة . أما أن جَدَّتي أم أبي لديها أسنان صناعية أيضاً فهذا أمر لم أعرفه . بعـد ذلـك بدا كما لو أنها قد عثرت عليها . زفرتْ وسمعتُ صوتَ تَلَمُّظٍ خفيف . خرجتْ من الغرفة وسألتْ كيف كان الفيلم .

سألتُ :

- هل لديك أسنان صناعية؟

فَجَأني أمرُها بحيث أنني لم أفكر بما قلت .

قالت ثانية :

- إنك تدرك حتماً أن المرء مثل لا يتحدث عن مثل هذه الأمور.

بدت متضايقة قليلاً. بعد ذلك سألتْ عن الفيلم ثانيـة . دخلنـا وجلسـنا إلى طاولة الطعام . أردتُ أن أشرح لـها كيـف أمسـك بطـل الفيلـم ببندقيتـه . كانت ثمة رصاصة إثر إصابة في الحرب تضغط على عمود البطل الفقري وتسـبب له شبه شلل . ويصيبه الشلل ، في الفيلم ، بالضبط عنـد التصفيـة الأخـيرة مـع الأشقياء . لذلك أضطر لابتداع طريقة يستعمل بها بندقية « الونشتر.» انتصبـت ومَثَّلْتُ كل شيء لجدتي . سألتني أي سينما زرت .

قلت :

- ليران Lyran .

كانت تقع في « سفيافيغن » ليس بعيداً عن شارع « أودنغاتـان » حيـث كانت تسكن مع جدي . حكت لي جَدَّتي عن أفلام حضرتها مع جَـدّي في نفـس السينما. كان لدي كتب عن أفلام قديمة ، لذا كنت أتذكـر بعـض مـا ذكرتـه . بعد ذلك حكت لي عن استعراضات غنائية حضرتها منذ زمـن بعيـد. كنـت قـد سمعت أحد الاستعراضات في المذياع مرات عد ة. كان يدور حول كلـب ينتظـر رجوع صاحبه وزوجته إلى البيت . أما جَدَّتي فقد حضرت الاستعراض شـخصياً في المسرح . قالت إن المشاهدين كانوا يقهقهون حتى كادوا ألا يسمعوا ما يقوله

الممثل .

كان قد بقي يومان على عودة أمي إلى البيت . بينما كنت أخلع عني ثيابي كي أنام قالت جَدَّتي إنها تحدثت مع أختها عن شتلة البرتقال فأخبرتها أن الثمرة الصغيرة الجديدة قد نمت وبدأت تكتسب لوناً . أما البرتقالة الأولى فإنها لم تكبر بل اغمقّ لونها . كانت جَدَّتي تتلهف للعودة إلى بيتها لتراهما ثانية. بعد ذلك سألتْ عما قرأت. أريتها كتاباً يتحدث عن يافعين تنصّتوا حديثاً هاتفياً بين رجلين . كان الرجلان يتحدثان عن عملية سطو سينفذانها وعندما حكى اليافعان عنها للبوليس والكبار لم يشأ أحدُ تصديقهما . قلت لجدتي إن في وسعها استعارة الكتاب عندما أفرغ من قراءته .

تحدثت جَدَّتي عن كتاب كانت تعيد قراءته . كان البطل « لورداً » إنكليزياً يحل ألغاز جرائم قتل . كان ، هذا « اللورد » ، مغرماً بامرأة لم تركن إطلاقاً إلى قرار ، أسواء كانت ستتزوجه أم لا. قالت جَدَّتي إن الكتاب يدور في الحقيقة عن مؤلفته . كانت قد أغرمت برجل لم يبادلها نفس الشعور ، لذا كانت تعكس الأمر في مؤلفاتها . سألتُ جَدَّتي لماذا كان في رأيها أن قراءة كتب ألغاز الجرائم مثيرة . لا أتذكر جوابها تماماً. لكنها حكت حكاية فظيعة عن شابين في مدرسة ثانوية أمريكية قتلا رفيقاً لهما لكي يعرفا إن كانا سيُفْلَتان من العقاب فقط . قالت إن أحدهما كان يعتقد أنه يصفو البشر. كان رأي جَدَّتي أن الأمر الذي يكاد أن يكون أفظع هو قدرتهما على قتل إنسان فقط لأنهما يعتقدان أنهما أفضل منه . وأُخْرِجَتْ هذه الحادثة كفيلم أيضاً لكن الفيلم كان فظيعاً لدرجة مُنْعِ معها من العرض .

استيقظتُ في هذه الليلة على صوت غريب وأنين شخص . بدت الأصوات كما لو أنها في الحلم . لا أتذكر ما حلمتُ به لكن الأصوات كانت غريبة بحيث إنني لم أدرك أنني كنت مستيقظاً . لم أدرك من أين بلغتني الأصوات واستلقيت مستيقظاً فترة طويلة لإعادة نفسي إلى الحلم حيث الأصوات . لكن شيئاً حدث ، حركة ما أو مرور سيارة في الشارع ، مما جعلني أدرك أنني كنت

مستيقظاً . سمعت الأصوات تبلغني من المدخل . عندما نـهضت ونَـوَّرْتُ الغرفـةَ عثرتُ على جَدَّتي أمام المرحاض علـى الأرض . كـانت تـردد أنفاسـها بعمـق ، لكنها بدت في نفس الوقت محرجة وقد عثرت عليها .

- وقعتُ ، قالت لا غير.

حاولتُ مساعدتها على النهوض ، لكنها كـانت ثقيلـة . جلسـت بقربـها على الأرض .

تساءلتُ :

- هل كنت تحملين شيئاً ؟

هزَّتْ رأسها نافية .

قالت :

- لنتأنَّ قليلاً ، ومن ثم سأنهض وحدي .

- ماذا جرى ؟

ابتسمتْ قليلاً وقالتْ :

- لا ضير .

- هل أهتف إلى طبيب ؟ هل أطلب طبيباً ؟

- لا، لا !

بعد ذلك سألتها إن كنا سنهتف إلى شقيق أبي . كان قـد طلـق زوجتـه هو أيضـاً ويسـكن الآن قريبـاً منـا. فكـرتُ أن في وسـعه مسـاعدة جَدَّتـي علـى النهوض . فكرت أن في وسعه معرفة ما علينا أن نقـوم بـه . لكـن جَدَّتـي هـزت رأسها نافية وقالت إن الأمر غير خطير .

قالت جَدَّتي فيما بعد :

- على المرء ألا يَسُنَّ .

لم أعرف ما سأقوله .

- قلت :

- طبعاً سيعيش المرء طويلاً.

قالت:

- إنك على حق، يا « كريستيان ». من البديهي أن يطول العمر بالإنسان وإلا سيصبح كل شيء مثل ذلك الفيلم الشنيع الطريق إلى « شاتغريلا ».

أعتقد أن هذا كان اسم الفيلم. كانت جَدَّتي قد تحدثت عنه سابقاً. كان في رأيها أنه سخيف جداً . على كل حال قالت إنه كان سخيفاً .

كان يتحدث عن بضعة ناس جاؤوا إلى واد منعزل في « هيمالايا » حيث كان الجميع يعيشون بشباب دائم .

أومأت برأسي . كنت أعرف ذلك مسبقاً.

سألت :

- كيف كان حالهم وهم يعيشون شباباً دائماً ؟

قالت :

- جنون ، جنون .

وُفِّقْتُ أخيراً في إيقافها على رجليها. استلقت على السرير وتنفست بصعوبة. قالت لي أن أذهب إلى فراشي إذ عليَّ أن أستيقظ باكراً في الصباح التالي من أجل المدرسة . تساءلت إن كانت تحس بنفسها مريضة . قالت لي ألا أقلق.

كدت في الصباح أن أتأخر في النوم ، لكن جَدَّتي أيقظتني . سألتُها عن صحتها. قالت إن كل شيء على ما يرام . كان في وسعي رؤيتها تمشي متعكزة على الجدران والمفروشات وكأنها منهكة . قلت لها إن علينا مخابرة شقيق أبي. وعدتْ جَدَّتي أن تقوم بذلك فيما بعد خلال النهار ، لكنني كنت واثقاً أنها لن تفعل ذلك . دخلتُ ، وأنا في طريقي إلى المدرسة ، دكانَ بيع التبغ وهتفتُ إليه بنفسي . كان صوته يَخِنُّ وكأنه استيقظ لتوه وشعرتُ بحرج أنني أهتف إليه . لكنه قال إنني فعلت خيراً إذ هتفت إليه وإنه سيأخذ التكسي إليها في الحال. عندما رجعت من المدرسة كانت على طاولة الطعام وريقة تعْلِمُني أن جَدَّتي

أُدْخِلَتْ المستشفى.

بعد الظهر عُدْتُ جَدَّتي في المستشفى . كانت تقيم في غرفة مع سيدتين عجوزين . بدت جَدَّتي محرجة قليلاً عندما جئت لعيادتها .

قالتْ :

- كان المقصود أن تُعنى بي ، وليس العكس.

قلتُ لها ألا تقلق بشأني.

قالت :

- وهذا ما لا أفعله.

بعد ذلك تساءلتْ أين سأسكن. كان رأيي أنني أستطيع تدبير أموري بنفسي فعلاً، لأنَّ أمي ستعود من سفرها بعد يومين على كل حال . لكن شقيق أبي كان قد تحدث مع أم أحد رفاقي وتدبر الأمر على أن أسكن هناك . كان في ذلك الوقت تماماً ثمة مهووس بالحرائق يلقي بجرائد مشتعلة في فتحات البريد في أبواب الشقق في استوكهولم . قالت جَدَّتي إنه تحسباً لما يجري فمن الأفضل حتماً أن أسكن هناك . قلت لها إنني سأفعل ذلك .

بعد ذلك أعطتني جَدَّتي مفاتيح شقتها. كانا مفتاحين معلّقين داخل حمّالة صغيرة في نهايتها جَمَلٌ صغير . طلبت مني الذهاب إلى الشقة وتَفَقُّدَ البرتقالتين ، يبدو أنها لم تكن مطمئنة إلى أن أختها تُعْنَى بهما بشكل صحيح. وقالت إذا كان تراب الأصيص ناشفاً فعليَّ سقايته بحذر لكن من المتوقع أن يكون مغموراً بالماء . وفي حال وجود ماء في طبق الأصيص فعليَّ أن أُفْرِغه وأُغَيِّرَ الطَّبَقَ ، وبعد ذلك عليَّ أن أتحدث إليهما قليلاً. تساءلتُ ما الذي سأقوله . قالت جَدَّتي إنه يخطر دائماً في بال المرء شيء ما يقوله للبرتقال .

وفي اليوم التالي ، بعد المدرسة ، ركبت الحافلة إلى شقة جَدَّتي . كانت رائحة الشقة رائحة إغلاق مكتوم . فتحتُ نافذة مخدع النوم كيلا تبرد البرتقالتان . كَبُرَت البرتقالة الجديدة قليلاً وأصبح لونها خليطاً من أصفر وأحمر لكنها ما تزال أصغر من القديمة بكثير إنما لونها مثل برتقالة حقيقية .

والبرتقالة القديمة اغْمَقَّ لونُـها. خُيِّـلَ إلـيّ أنـها تذكرنـي بخسوف القمر الـذي شاهدته . تَدَلَّتْ البرتقالة الصغيرة حمراء قانيـة مثـل جمـر بـين الأوراق . بـدت ثقيلة مُتْعَبَة . عندما تقدمتُ وتَفَحَّصْتُها بدت لي وكأنها على وشك السقوط عـن الغصن . قررت في نفسي ألا أقول شيئاً عنها لجدتي .

تجولتُ في الشقة أنظر إلى كتـب جَدَّتـي . أردت قـراءة إحـدى قصصـها البوليسية . وجدتُ قصة على جِلْدَتِها صورة امرأة مطروحة قتيلة قرب قطار وعلى طرفي السكة وقـف شـرطيان يصـوران ويكتبـان مَحْضَـراً . قـدّرت أنـها شـائقة . جلست على متكأ جَدَّتي في الغرفة وتصفحتها . رأيت أن ثمة كلمات كثيرة جـداً واللغة مصطنعة غير حديثة . لكنني سأحاول قراءتها على كل حال .

أغلقتُ النافذة وسحبتُ الستارة الرقيقة ثانيـة . عـثرت ، قـرب النـافذة ، على وتد طويل أُحْكِمتْ في أحد طرفيه شبكةٌ معدنية . كـان موجـوداً في « أودنغاتان » سابقاً. لا أعتقـد أنني رأيـت مَـنْ يسـتخدمه لأي شـيء. لربما يُسْتَعْمَلُ لترتيب الستائر ، ولربما تحتفـظ جَدَّتـي بـه كتميمـة بعـد ذلـك أطفـأت المصابيح وأغلقت باب الشقة وأقفلته مرتين ، وهذا أمر لم تكـن جَدَّتـي تحفـل بـه إطلاقاً ، لكنني كنت أعرف أنه يجب القيام به .

عندما خرجت من المبني اكتشفتُ أن السماء بدأت تَغْسَـقُ علـى النـهار. أودعتُ المفاتيح والجَمَلَ في جيبي وتأَبَطْتُ القصة . عندما نظرت نحو نافذة جَدَّتي تذكرت أنني لم أتحدث إلى البرتقالتين . قلت لنفسي : سأقول لهما شيئاً في المرة المقبلة .

9

كان فيما بعد وكأنما المقصود أن جَدَّتي ستُفْجَعُ بكل من حولها. كانت تقرأ دائماً كل بطاقات النعي في الجريدة . أعرف أن هذا شيء يقوم به معظم المسنين . يبحثون عن اسم قريب مسن أو أحد معارفهم . أتصور أنهم يأملون ألا يعثروا على اسم شخص يعرفونه . كان من عادتها أن تَهْتُفَ إليّ بين الفينة والأخرى بعد أن تكون قد قرأت البطاقات . وكان من عادتها فيما لو عثرت على نعي شخص تعرفه أن تحكي لي عن واقعة كانت هي والمَنْعِيُّ سوية وقت حدوثها.

وغير ذلك كانت جَدَّتي تجمع قصاصات البطاقات التي تجدها مضحكة . كانت تقص الأشعار التي ينشرها الناس مع تلك البطاقات ليتذكروا موتاهم . وكانت تعتقد أن هذه الأشعار مضحكة لدرجة لا يستطيع المرء أن يُمْسِكَ نفسه عن الضحك . حكت لي عن إحدى تلك البطاقات التي تخص سيدة عمرها سبع وتسعون سنة . في وسط النّعي وبخط مائل صغير كُتِبَ : *لماذا ؟* عندما كانت جَدَّتي تتحدث عنها لم تتمكن من إمساك نفسها عن الضحك . كان رأيها أنه عندما يكون عمر المتوفاة سبعاً وتسعين سنة فلا داعي لأن يسأل المرء لماذا.

كانت جَدَّتي تحفظ الكثير من الأشعار التي تناسب أن تكون بطاقة نعي . لكن رأيها كان ألا حاجة أن يُكْتَبَ الكثيرُ في تلك البطاقة : أن يُكْتَبَ اسم

المتوفى ومن هم الأقرباء المقربون لا أكثر. وكانت تعتقد أن بإمكان المرء كتابة بيت شِعْرٍ شريطة أن يكون بيتاً جيداً . أرتني ذات مرة قصيدة أعدّت لتُتْلَى يوم تشييعها. لم تكن القصيدة تتناول الموتى بل أننا سوية دائماً برغم الموت .

ذات يوم جاءت أمي إلى البيت قبيل العصر وقالت إن شقيق أبي قد توفي . خرّ ميتاً خلال اجتماع . أصبح فجأة جسداً هامداً لاغير . لم يكن خبر موته قد بلغ جَدَّتي وكان على أمي الذهاب إليها لتبلغها ذلك . لم أكن أعرف شقيق أبي جيداً ، لكنني في السنين الأخيرة التقيت به بضع مرات . حاولت دائماً أن أجد فيه شيئاً يذَكِّرُني بوالدي . لا أدري إن كان هناك شيء . لا أتذكر الكثير عن أبي حتى يتسنى لي أن أتبينه في غيره . الكثير من ذكرياتي عن أبي هي من صُنْعِ بنات أفكاري لا أكثر . وبعد ذلك لم أعد أهتم إن كان عمي يشبهه أم لا. كان عمي شخصاً بحد ذاته .

عندما أخبرتني أمي بوفاة عمي لم أقل الكثير. سألتها كيف جرى ذلك ومن ثم قلت إن ذلك محزن . لكن بعد ذهابها إلى جَدَّتي كي تخبرها بموت عمي خرجتُ إلى الحديقة وبكيتُ . لا أعرف لماذا بكيتُ ، لم أكن أعرفه حقاً. ربما بكيتُ لأنني شعرت أنني خسرت جزءاً آخر من أبي . لا أدري . فكرت بذلك الشِّعْرِ الذي تريد جَدَّتي تلاوته يوم تشييعها. ربما صحيح أننا سوية دائماً.

عندما عادت أمي إلى البيت في وقت متأخر من الليل حكت لي كم حزنت جَدَّتي وأنها قد تناولت الآن حبّتين لتتمكن من النوم وأن شقيقتها ستبقى لديها ريثما تنام حقاً . عندما أَويتُ الفراش واستلقيتُ ساهداً في العَتَمَةِ فكرت طويلاً بعمي .

كانت جَدَّتي قد حكت لي أن عمي ، بعدما أنهى الخدمة العسكرية ، أسس نادياً لا مهمة له إلا اختراع عُقَدٍ جديدة . أفضل العُقَدِ هي العُقْدَةُ الصعبة العَقْدِ وسَهْلَةُ الفَكِّ والتي تتحمل . كان قد أراني ذات مرة بضع عُقَدٍ . كان وكأنه يصنع أشكالاً صغيرة من الحبل . كان قد قال لي إن الممتع في العُقَدِ أنها غير موجودة . كنت قد سألته عما يعنيه بأنها غير موجودة .

قال :

- إن العُقَدَ غير موجودة بما أنه في وسع المرء عَقْدَ عُقْدَةٍ معينة على حبل ومن ثم دَفْعها إلى حبل آخر مُزْوَجٍ مع الحبل الأول .

كانت العُقْدَةُ مجرد فكرة والحبل مجرد وسيلة . لا أعرف إن كنت واثقاً من إدراك ما يعنيه ، إلا أن حديثه بدا لي ممتعاً .

جلستُ قرب أمي لدى تشييع عمي . كان ذلك في كنيسة صغيرة تحدث القسيس فيها وقتاً طويلاً . كنت أتوقع أن يقرأ أحدٌ تلك القصيدة التي أحبتها جَدَّتي لكن أحداً لم يفعل ذلك قط . بكت جَدَّتي قليلاً ، قليلاً فقط . كانت تكُمُّ فمها بين فينة وأخرى وكأنها لا تريد أن يرى أحدٌ كم هي حزينة . وإلى جانبها جلس أولاد عمي الآخرون . كانت الدموع تترقرق في عيونهم دائماً . حاولت التفكير في شيء يتعلق بعمي . ولكن كل ما تسنى لي التفكير فيه هو أن مَثَلَهُ مَثَلُ شخص ركضَ على مرج واسع دون أن يترك آثار أقدام من بعده . لا أعرف لماذا فكرت في هذا . ربما أردت أن يُسْعَدَ عمي في مكان ما.

كان من المفروض ، بعد مراسم الدفن في الكنيسة ، أن يَتْبَعَ الجميع النعش الذي حمله أربعة رجال بملابس سوداء حتى القبر . كان عمي قد قَرَّرَ ألا يُحْرَقَ بعد موته . قال إنه لا يحب التَّغَيُّرات المفاجئة . ومع ذلك مات فجأة ، دون سابق إنذار ، هو أيضاً . مشى الجميع على مهل . كانت جَدَّتي تتوكأ عليّ . كنت أعرف أنها حزينة جداً . مررنا بقبر جدي وأبي ونحن في طريقنا إلى قبر عمي . فكرت أنه يكاد ألا يكون لجدتي الآن أحد على قيد الحياة . كنت أريد قول شيء لها ، لكنني لم أكن أعرف ما الذي سأقوله . كانت تتفلقل وتمشي بعينين مزممتين . بعد ذلك نظرتْ إليّ وابتسمتْ . مالت نحوي وهمست :

- لولا الحدث لكانت القهوة لذيذة عندما ينتهي الأمر.

عندما زرت جَدَّتي في المرة التالية كانت قد وضعت صورة عمي قريبة من صورة أبي . كانت تتحدث أحياناً عن أبي وعمي وجدي . لكنها لم تقل إطلاقاً كم هي حزينة لموت ثلاثتهم . كنت أعرف أنها حزينة ، لكنها لم تَبُحْ بذلك

قط . كانت تحكي عن أشياء حدثت لهم فقط. تحدثت عن الزمن الذي كان أبي وشقيقه صغيرين . عن الكيفية التي كانوا يصطادون بوساطتها السمك في « أرخبيل استوكهولم » وعن السمكة الهائلة التي سحبها جدي خطأ. حكت عن الكيفية التي لصق أبي بوساطتها مجموعة طوابع شقيقه كلها على كرسي طاولة الكتابة . لكنها لم تقل أبداً أنهما توفيا .

وكان هناك دائماً من يموت في المؤسسة أيضاً . قالت جدتي لا يمكن للمرء إطلاقاً معرفة من نَزَلَ إلى الحديقة وجلسَ في شمس الضحى . كانت سيارة الإسعاف تحضر ، بين الفينة والأخرى ، لتأخذ إحدى العجائز . هكذا هو الحال عندما تسكن مجموعة كبيرة من المسنين في نفس البناية . يموت الواحد تلو الآخر. حاولت أن أفكر كيف يمكن أن يكون شعور الإنسان عندما يتقدم في السن ويرى الناس الذين يعرفهم يموتون طوال الوقت الواحد إثر الآخر . فكرت: لابد أنه يَجْزَع . عندما ذكرت هذا ذات مرة لجدتي قالت : " إن المرء لا يَجْزَع قط ". قالت :

- هذه حال الدنيا .

دعتني جَدَّتي وأبناء عمي إلى بيتها بضع مرات بعد موت العم . أعتقد أنها ارتأت أن علينا أن نعرف بعضنا بعضاً أكثر إذ لم يبق غيرنا الآن على قيد الحياة . لم نتحدث إطلاقاً عن أبوينا ولم تقل جَدَّتي شيئاً أيضاً. ذات مرة كان مع [سفنْ] جيتاره . كانت جَدَّتي قد طلبت ذلك . كانت تحب سماع شخص يعزف أو يغني . حاولت هي أيضاً أن تغني ، لكن صوتها كان يشرخ دائماً. بدا الحرج على ابن عمي عندما طُلِبَ منه العزف . سألني إن كنت أعزف البيانو .

قلت :

- ليس جيداً .

لم أرغب في ذكر إقلاعي عن دروس البيانو . والآن قد مضى على ذلك سنوات عدة . لقد صادف فعلاً أنني عزفت بمفردي قليلاً. لكن ذلك لم يكن إلا

لأعرف كيف تُؤَدّى الموسيقى . لم أفهم ذلك إطلاقاً وأنا أحضر دروس البيانو. ولكن عندما كنت أجلس وحدي كنت أستطيع فهم كيف تَتَجَمَّعُ الألحان مع بعضها بعضاً وكيف يستطيع المرء نَظْمَ لحن . عندما جربت وحدي تبين لي أن الموسيقى تُؤَدّى حسب قواعد سهلة جداً مفهومة . كانت الموسيقى ، عندما أردت اتّبَاع سُلَّمَ الألحان ، تتهشم إلى شظايا لحنية غير مفهومة .

كنت أفكر أحياناً أن الشيء ذاته ينطبق على الشعر الذي تحفظه جَدَّتي وتلقيه غيباً أحياناً . كنت قد حاولت قراءة بعضه وحدي في البيت ، لكنني لم أفهم عما يدور إطلاقاً . ولكن عندما كانت جَدَّتي تُلْقِيه غيباً كان طبيعياً للغاية . كان وكأنما يجب أن يكون هناك شخص حاضر كي يتسنى لي فهم كيف كانت الموسيقى تُؤَدّى وما معنى الشعر .

عندما كانت جَدَّتي تهتف إليّ أحياناً بعد عودتي من المدرسة ظهراً ؛ كانت تتحدث عن شِعْرٍ فكرت فيه خلال الليل وهي ساهدة . لم يكن يبدو أنها استنبطت منه شيئاً جديداً إنما بَيَّنَ لها أمراً شغل بالها . وبعد ذلك كانت تتحدث عما ستفعله بالملايين التي لم تربحها قط . مازالت تلك الشقة في « غراند هوتيل » سارية المفعول ، لكنها فكرت في شيء آخر بالنسبة إلي وإلى أبناء عمي أيضاً.

وبعد ذلك كانت لديها فكرة عن فيلم للأطفال . سيتناول الفيلم قصة ولد أرغمه والداه على قصِّ شعره فهرب من البيت لأنَّه كان يعتقد أن منظره مضحك . وفي طريقه من البيت صادف شيخاً فناناً سمح له أن يسكن عنده . قرر الشيخ أن في وسع الصبي أن يسكن عنده حتى يطول شعره ثانية ولكن الشرطة عثرت عليهما وألقوا القبض على الفنَّان لأنهم ظنُّوا أنه احتجز الطفل لديه . وبقية الفيلم ستتحدث عن محاولة الطفل فَكَّ أسر الفنَّان .

بعد ذلك حكت جدي كيف طلبت من رجلين تعرفهما أختها إعادة تأطير بعض الصور لديها . كنت أعرفهما. كانا يخدعان جَدَّتي وأختها ، لكنني لم أرغب في قول ذلك . أعتقد أن جَدَّتي كانت تُدْرِكُ أنهما خَدِعَتا أحياناً .

عندما أعاد هذان السيدان تأطير الصور استعملا الأطر القديمة وطلياها بالدهان الذهبي . بعض الصور قصّاها بحيث أن جزءاً من اللوحة اختفى عوضاً عن أن يضعا تحتها إطاراً ورقياً . وبعد ذلك سيصلحان وجه طاولة صغيرة نفيسة لدى جَدّتي ولكن كل ما فعلاه هو أن نظّفا وجه الطاولة بورق الزجاج ودهناه بطلاء بني .

عندما تحدثت جَدّتي عن ذلكما السيدين فهمتُ بشكل ما أنها كانت تعرف أنهما غشّاها. ربما لم ترغب في أن تقول شيئاً لأختها. بدت أخت جَدّتي سعيدة بأن مَنْ كانت تعتقدهما يُقدّران الأشياء القديمة كانا معجبين بما في بيتها. كانا يأتيان إليها بعد الظهر ويجلسان ويشربان القهوة ويتحدثان معها وبعد ذلك ينظران إلى أية لوحة صغيرة ويقولان إنّه يجب إعادة تأطيرها . أعتقد أن جَدّتي كانت تعرف أن المرء لا يُؤَطِّرُ اللوحات بهذه الطريقة . أعتقد أنها كانت تريد أن تكون أختها مسرورة لوجود من يهتم بما تمتلك . لربما كانت تحب أن تُغَشَّ قليلاً .

دخلت جَدّتي المستشفى ثانية . وفي هذه المرة نامت في غرفة مع مريضة واحدة لا غير . مكثت في المستشفى شهرين تقريباً لذا كان عجزة مختلفون يحلّون في السرير إلى جانبها . لا أعرف تماماً ما هو مرضها . كانت على الأقل منهكة ومستلقية طوال الفترة الأولى وعلى ساعدها ، في الأسبوع الأول ، خرطوم رفيع متصل بزجاجة كبيرة معلقة على حامل قرب السرير. كانت تعتقد أن ليس لديها ما تتحدث عنه مع المرضى الأخريات . عن أنهن مريضات فقط . كانت تعتقد أن هذا غير مهم . قالت إنها تعرف مسبقاً أنهن مريضات وإلا لما دخلن المستشفى .

حكت لي أن أمراً عجيباً قد حصل ذات ليلة . كان ثمة امرأة تعيش في غرفة وحدها قد تُوفِّيَتْ مساء ونَقَلَتْ المرضات جثمانها من الجناح . لكن الجرس رنَّ في منتصف الليل في مكتب المرضات . كان الرنين من غرفة المتوفاة الفارغة . قالت إنهن لم يعثرن حتى الآن عن سبب رنين الجرس في مكتبهن .

كانت الممرضات قد تحدثن عن ذلك لعدة أيام .

بعد ذلك تحدثتْ عن وسيط أرواح كانت هي وجدي يعرفانه قبل الحرب بمدة طويلة . كانت لديه المقدرة ، وهو مقيد إلى كرسي ، على تحريك أشياء في الغرفة وأن يسرد تاريخ أشياء لمجرد تحسسها . قالت إنهما درجا على ربطه على متكأ في غرفة الطعام بخيوط خياطة ثم يتركانه وحيداً بضع دقائق . وعندما كانا يعودان إليه تكون الأشياء في الغرفة كلها قد تحولت من أماكنها. حاملات الشمع الكبيرة النحاسية التي عادة تكون على تاج المدفأة الحجرية انتقلت إلى طاولة الطعام وفي مكانها حلّتْ الزُهْرية الصينية التي تكون عادة في النافذة . كان عمي قد تسلل ذات مرة ونظر من خلال فتحة المفتاح . عاد إليهما شاحب الوجه مفزوعاً . حكى لهما كيف رأى أطيافاً شفافة بيضاء تطوف في غرفة الطعام .

تساءلت :

- لكن لماذا ربطتماه بخيوط الخياطة ؟ كان من السهل جداً أن يتحرر منها .

قالت جَدَّتي :

- لكنه إن حاول تحرير نفسه منها فمن السهل أن تتقطع وعندئذ نكتشف أن ذلك خديعة .

- إذن كان ذلك صحيحاً ؟

- لا أدري .

وبعد ذلك تُوُفِيَ هذا الرجل في حادثة قطار في إيطاليا. لكن بعد سنين زارهما أحد أصدقاء جَدَّتي وجدي في شقة « أودنغاتان ». كانت معه جريدة إنكليزية وفيها صورة الوسيط الذي كانا يعرفانه . كان تحت الصورة اسم إنكليزي فعلاً لكنه يشبه اسمه السويدي بالضبط . كان هذا خلال الحرب وكان مكتوباً أنه ضابط من أستراليا حاز ميدالية الإقدام والشجاعة .

ويعد عدة سنين كانت جَدَّتي وجدي وذلك الصديق قد جلسوا سوية في

« أودنغاتان » يتناولون العشاء معاً . وكيفما اتفق فإنهم بدؤوا يتحدثون عن ذلك الوسيط الذي كانوا يعرفونه . وعندما ذكروا اسمه انطفأت الشمعتان في الشمعدانين الفضيين . وكانوا قد تأكدوا أن ليس هناك نافذة مفتوحة ، بحيث يكون التيار قد أطفأ الشمعتين . ولكن لم يكن هناك مثل هذا التعليل . بدأتُ أسأل :

- لكن كيف كان ممكناً ...

قالت جَدَّتي :

- هذا ما لا يمكننا معرفته .

- هل هذا صحيح ؟

- على أي حال انطفأت الشمعتان ، وهذا صحيح .

عندما عادت جَدَّتي من المستشفى إلى البيت كانت أكثر تعباً من المعتاد. كانت تنام في النهار أحياناً وتتذمر من أنها شربت القهوة في وقت متأخر وأن حبوب وجع الرأس لا تفيد. ولكنها كانت تستلقي في الليل أرقة كعادتها. عندئذ تتابع حساب ما ستفعله بكل تلك الملايين إنما وكأنها لم تعد تستمتع بذلك . لربما لأنها لم تعد تتمكن من ابتداع أشياء ستقوم بها من أجل عمي .

كانت ذات مرة في زيارتنا فغفت فجأة وهي تتناول العشاء . حكت في البداية بسرعة مطردة وبشكل عشوائي ومن ثم غفت . كنت أعرف فعلاً ما السبب ، لقد عايشت هذا من ذي قبل إنما لم يكن يحدث بمثل هذه الفجاءة . بعد ذلك اضطرت أمي إلى اصطحابها إلى البيت وتولت وضعها في السرير.

كررت أمي ذِكر أن جَدَّتي لا تُعنى بطعامها . ذات مرة أشارت بذلك إلى جَدَّتي لكنها لم ترغب في أن تعير ذلك اهتماماً . لم تكن تأكل غير الكعك الناشف وتشرب الشاي . كان رأيها أن ذلك يكفي حتماً . كنت أذهب أحياناً إلى جَدَّتي وآكل العشاء لكي أتأكد ، فقط ، أنها أكلت طعاماً حقيقياً . كانت رائحة بيتها هواء فاسداً دائماً . كانت شجرة لبلاب تمتد على جدار البناء . وقالت جَدَّتي إن الجرذان تتسلق هذه الشجرة وتدخل الشقة . كانت

تتسلق اللبلاب حتى الطابق الخامس وتدخل وسيضطرون في السنة القادمة إلى إزالتها.

عندما كنت أزور جَدَّتي بعد الظهر أحياناً لشرب الشاي كان المطبخ يبدو لي وسخاً جداً . كان من السهل أن أعثر على نطعات زبدة أوقعتها جَدَّتي في درج الملاعق والسكاكين وكانت رائحة المجلى دَسَماً. بطبيعة الحال كان هناك مَنْ يساعد جَدَّتي على شراء الطعام والتنظيف . لكنني أعتقد أنها كانت تفضل الجلوس والتحدث وشرب القهوة معهم على تركهم القيام بالتنظيف بشكل جيد . ذات مرة عندما جاءت سيدة مسنة ونظفت الشقة كلها قالت جَدَّتي إنها أُنْهِكَتْ . قالت إنها تعتقد أن السيدة كانت تعاكسها . كانت جَدَّتي تفضل المُساعِدات الخاصّات اللواتي يحضرن إليها ويفضلن الجلوس إلى مائدة القهوة ويحكين عن مشاكل غرامهن .

بعد ذلك توفيت شقيقة جَدَّتي . كانتْ جدَّتي قد تحدثتْ معها هاتفياً في الصباح وقررتا أن تشربا القهوة سوية بعد الظهر . وعندما لم تحضر حسب الموعد ذهبت جَدَّتي إليها وقرعت جرس الباب. كان لديها مفتاح لشقة أختها ، لكنها لم تجرؤ على فتح الباب . طلبت من حارس البناية أن يساعدها . كانت أخت جَدَّتي جالسة على كرسيها ورأسها منكب إلى الوراء منكفئ على أحد الأطراف . بدت وكأنها نائمة وقد ألقت على الطاولة الصغيرة قرب النافذة بقطعة قماش تُطَرِّزُها . كانت نافذة المطبخ مفتوحة قليلاً وعلى مجلى المطبخ ثمة كعكات يذوب تَجَمُّدُها . كان كل شيء في الشقة هادئاً وماء كرسي التواليت ، في الكنيف ، تَسحُّ قليلاً .

كنا قلائل لدى تشييع جنازة شقيقة جَدَّتي . وبعدها كنا في بيت ابن خالة أبي . لم يتحدث شخص عن أن أمه متوفاة . حكت جَدَّتي عن طفولتهما ، إنما بدت لي ، كما أعتقد ، أنها متعبة. أكلنا مهروس البطاطا بسمك السلمون المُحَضَّر في البيت وشربَ الكبار نبيذاً أبيض . كانت جَدَّتي أكثر صمتاً مما تكون عليه عادة . كانت منهكة بعد الطعام لدرجة أننا اضطررنا إلى مساعدتها

للاستلقاء على الأريكة . أعتقد أن ابن خالة أبي كان أكثر حزناً مما أراد إظهاره . حكى لي عن رحلة قام بها مع أمه . كان وكأنما يريد التحدث عن شيء كان ميتاً ، وليس عن أمه . وعلى مكتبة الكتب انتصبت صورة أخت جَدَّتي . شعرت بأنني لم أعد أتبينها بعد.

عندما كنت لدى جَدَّتي بعد بضعة أسابيع حكت لي أن دبوساً قد دخل في ردفها دون أن تشعر بأنها وُخِزت . لم تكن تعرف كم من الوقت قد مضى على وجوده في ردفها . كان عسيراً عليَّ إدراك أنه لم يكن يؤلمها. عندما قرعتُ جرس الشقة مضى وقت طويل حتى فتحت الباب . سمعت كيف قامت عن كرسيها وكيف مشت ببطء عبر الشقة الصغيرة . كانت تتحدث مع ذاتها وكأنها تغني تقريباً. إنني أعرف أن المتقدمين في العمر من المحتمل أن ينسوا كل شيء ولا يعرفون بالضبط ما يقومون به . لم تكن جَدَّتي هكذا . كل شيء كانت تقوم به كان يستغرق وقتاً أطول .

عندما دخلتُ عليها الشقة فتحتُ نافذة المطبخ مباشرة . كان الهواء فاسداً خانقاً . قالت إن الرجل الذي يأتي من قسم خدمة البيوت مريض منذ أيام . رميتُ القمامة في مرمى القمامة بين طابقها والطابق السفلي . كانت طاولة سريرها والأرض حولها دبقتين من شراب الفواكه المسفوح . كان ثمة فتات كعك ناشف ودبابيس شعر ملصوقة في الشراب الناشف . لم أُظْهِرْ ملاحظتي لذلك . بينما جَدَّتي تغلي ماء الشاي مسحتُ الصينية وإبريق الشاي الوسخين . قالت إنها بحاجة ماسة للشاي حالاً . قالت عما قريب يكون الأوان قد فات . كانت تعني أنه عما قريب يدركها الصداع ويفوت الأوان أن تُعيقَ وجع الرأس .

لم تعد جَدَّتي تقرأ أيما كتاب . كانت تشاهد التلفاز وتقرأ المجلات الأسبوعية التي تحصل عليها من العجائز الأخريات في البناء . كانت تردد مرة إثر الأخرى أن ما في المجلات لا فائدة منه وسخيف ، ومع ذلك تَبَيَّنَ لي أنها تقرأها صفحة صفحة . لم أكن أفهم أحياناً عمن تتحدث عندما تحكي لي عن شيء قرأته في المجلات . ولكن على الرغم من عدم قراءتها كتباً فإنها ما تزال

تُلْقي الكثير من الشِّعْر غيباً . كانت تقرأ لـي قصيـدة بـين فينـة وأخـرى وكأنمـا القصائد الشعرية تعيش حياتها الخاصة . كانت القصائد كما لو أنها ترمز إلـى شيء لا يمسه العطب .

كان طعم الشاي كما هو عادة . كنت قد نفضت الفُتاتَ عن طبـق الخبز قبل أن أضع كعكاً ناشفاً ثانية . كانت هناك نطع زبد قديمة وأطراف جبنٍ ناشفة. بعد ذلك وضعت الطبق على الطاولة الصغـيرة في البـهو الداخلـي . كنـا نشـرب الشاي دائماً في البهو الصغير الذي لا نوافذ له ، حيث تنتصب المكتبـات الآن . دهنتُ زبداً على كعكتـين ناشـفتين وغَمَّسْـتُ في الشـاي القاتمـة . شَكَّلَتْ الزُّبْـدَة الذائبة في الكوب جزراً من الدهن صغيرة عائمة . كانت جَدَّتي قـد بـدأت تخلـط بين اسمي واسم جدي- والد أبي- وبين اسم ابن عمي واسم عمي وبين اسـم أبـي واسم ابن أبي . كانت أحياناً تُدَرِّجُ الأسماء كلها حتى تصـل إلـى اسـمي . لم يكن يبدو أنها غدت نسَّاءة . كأنما كل من وُجِدَ كان موجـوداً طـوال الوقـت ، ربما هناك في مكان عَتِمٍ خلف الكتب في المكتبة . فجأة بدأت جَدَّتي الحديث عـن أختها .

قالت جَدَّتي :

- لم يخطر في بالي أبداً أنني سأكون الوحيدة ممن يبقى حياً .

لم أفترَّ بكلمة . كانت جَدَّتي تتلمس نظارتها الأحادية العدسة بأصابعـها . في الوقت الحاضر لم تعد تستعملها كثيراً في أغلب الأحيـان . تَرَكَتْـها كحليـةٍ أو شيءٍ تلعب به الأيدي .

تابعتْ :

- قبل يومين من موتها أدخلتْ إلى بيتها زهر الخَلْنَجْ .

تساءلتُ :

- أي خَلْنَجْ ؟

- وضعتْ زهرية خَلْنَجٍ في النافذة . على المرء ألا يدخل الخَلْنَجَ إلـى بيتـه أبداً . في الحقيقة لم أكن أعتقد إطلاقاً بمثل هذه الأقوال. ومع ذلك قلتُ لـها ألا

تُدْخِلَ الخَلْنَجَ إلى البيت.

- لم لا تُدْخِلْ الخَلْنَجَ ؟

- كما لو أنها تُدْخِلَ الموت إلى البيت. وضعتْ الخَلْنَجَ في زهرية وبعد يومين كانت ميتة.

لم أعرف ما عليَّ أن أقوله. شربتُ قليلاً من الشاي . كانت قد فترتْ. إنني أحبها فاترة . إنني أحب الشاي الحلوة فاترة .

قالت جدتي :

- إنني أعرف أنها ماتت لأن قلبها توقف عن النبض لا غير. هذا يمكن حدوثه. ولكنني أتمنى رغم ذلك لو أنها لم تُدخِل الخَلْنَجَ إلى البيت .

جلسنا وتحدثنا قليلاً عن أخت جَدَّتي. قصت عليَّ أن أختها كانت مخطوبة منذ سنين طويلة لرجل كانت لديه دراجة نارية . كان ذلك قبل ولادة ابن خالة أبي . كان هذا الخطيب قد أتى راكباً دراجته النارية على ممر الحصى المؤدي إلى (البنسيون) حيث كانا يسكنان في ذلك الصيف . كان في وسع المرء أن يرى الغبار من خلفه ويسمع صوت محرك الدراجة قبل أن يبلغ موقع البصر. كانت هناك صورة فوتوغرافية لكليهما وهما يجلسان على الدراجة . كان الخطيب يجلس وساقه على حاوية البنزين وعلى عينيه نظارتان صغيرتان دائريتان وعلى رأسه قبعة جلدية غريبة الشكل ، وخلفه جلست أخت جَدَّتي مرتدية سترة رياضية خفيفة . كانت لها ضفائر مرفوعة بعقدة وتضحك . سألتُ إن كان الخطيب والد ابن خالة أبي .

أجابت بكلمة واحدة :

- لا .

بعد ذلك انتقلنا إلى الغرفة وهبطت جَدَّتي على المُتَّكأ. كان كل شيء في الغرفة نظيفاً ومهندماً . بدا وكأن جَدَّتي لم تجلس في الغرفة إطلاقاً. إما كانت تستلقي في سريرها تشاهد التلفاز أو تقَلِّبُ صفحات المجلات أو تجلس إلى الطاولة في البهو أيضاً. جلستُ على المُتَّكَأ الصغير وجعلت ساقي على أحد

مساند الساعدين . انتصبت صور جدي وأبي وشقيق أبي علـى إحـدى المناضد قرب جدار قصير ومن فوقها تدلت المرآة القديمة ذات الزهرات الصغـيرة المُنَزَّلَـة في الإطار. كان بللور المرآة قديماً متحدباً بحيث أن وجه الناظر إليـه يتبـدل قليـلاً. خطرت في بالي شتلة البرتقال فجأة . رشـقتُ نظـرةً إلـى مخدع النـوم وهنـاك في النافذة انتصبت نبتات خضراء دون أزهار أو ثمر.

سألتُ :

-ما جرى بشتلة البرتقال ؟

قالت جَدَّتي :

- نشفت البرتقالتان وسقطتا. ضمرتا علـى نفسـيهما فقـط. لكـن الشـتلة موجودة دون أزهار.

- ألم تثمر برتقالاً مرة أخرى؟

هزّت برأسها نافية . بعد ذلك بدأت تحكي ما سَـيُكْتَبُ في إعـلان نعْيـها. تحت أسماء المقربين سَيُكْتَبُ اسمي وأسماء أبناء عمي وبعدهم الكَنـائن . وبعـد هذا لم تكن تعرفه بالضبط. تحدثت في كثير من الأحيان عن كيف سَتُرَتَّبُ الأمـور عندما تموت. كنت برماً لسماع ذلـك ، لكنني لم أقـل شـيئاً. أومـأت برأسـي ، وكأنني كنت أعرف أن كل ما تتمناه سيُنَفَّذُ. قالت إنها تتمنى دفناً زاهياً وفيما بعد سيولمون على شيء لذيذ. كانت تريد أن يبتهج المشيعون.

الآن وفيما بعد أتذكر شيئاً حكاه إلى أمـي رجـل حضـر تشـييع جنـازة جَدّي . عندما جاء إلى التشييع كانت جَدَّتي قالت له "إنها سعيدة لتمكنّه مـن الحضور". بدا قولها له مهزلة . كان رأيه حتماً أن مثل هذا لا يقال لدى تشييع جنازة . لكن وبالرغم من ذلك بدا وكأنه يعتقد أن ذلك صحيح بشكل ما.

تساءلت جَدَّتي عمّ أريد وراثته وما أعتقد أن الأبنـاء سـيرثون . كـانت جَدَّتي قد قررت بعض الأشياء سـلفاً . كـانت قـد كتبـت علـى خلفيـات بعـض اللوحات اسم مَنْ سيرثها. لم أستلطف حديثها بهذا الشكل . لم أستلطف أنـها لا تتحدث إلا عن موتها كما لم أستلطف أن ليس لديها شـيء آخـر. نظـرتُ إلـى

يديها. كانتا متجعدتين ومغطيتين برَقَش بني باهت . كان بعض أصابعها متورماً ومبسوطاً إلى الأمام . لم يكن يتسنّى لها ثنيها مهما حاولت . وكانت بقربها كأس ماء على الطاولة الصغيرة وعندما أمسكتْها انتصبت سبابتها في الهواء.

بدأت الظلمة في الخارج وكان عليَّ أن أذهب إلى البيت . لديَّ امتحان في التاريخ في اليوم التالي ولم أكن قد حضرت شيئاً تقريباً. حكيت لجدتي عن الامتحان . سألتني عما يدور وشرعتْ في الحديث عن « ريتشارد » قلب الأسد و « يوهان » بلا وطن وحرب الورود . كان يتعسر عليَّ أحياناً متابعة حديثي لأن جَدَّتي تخلع أسماء سويدية على الملوك . خلطت بين أسمائهم وأسماء الملوك السويديين الذين دَرَسْتُهم .

بعد ذلك حكت لي عن ليلة « بارتولومي » وعن الإرث « اللامبرتي ». كانت جَدَّتي لا تنتقل زمنياً بشكل صحيح وكأنما كانت تهتم بالقصة أكثر من التأريخ . قالت إنني كنت وريثاً للإرث « اللامبرتي » بسبب قرابة بعيدة . كان الإرث لقرصان من « أوميو » في شمال مملكة السويد أُثْرِيَ كثيراً في أمريكا اللاتينية . وبطريقة ما حُرِمَ الأقرباء الأصليون من الإرث . كانت جَدَّتي قد ذكرت أن أبي كان مهتماً بهذا الإرث . كنت قد سمعت جَدَّتي تتحدث عن هذا مرات كثيرة قبل هذه .

بما أننا لم نشعل أي مصباح في الغرفة فقد كادت الغرفة تعتم . كانت السماء في الخارج حمراء قاتمة كنحاس وكل شيء كان ساكناً . نظرتُ إلى جَدَّتي . كانت تجلس متطامنة على ذاتها تتحدث . كانت قدماها في الحذاء الأسود مُعَقَّدَة ، وكان إبهام قدمها مُحَدَّباً مَحْنِيّاً . كانت قد ذكرت أن مثل هذا يمكن إجراء عملية له ، إلا أنها لا تتضايق منه . كانت ترتدي رداء أزرق قاتم وفوقه سترة بيضاء . حكت لي شيئاً عن « ماريا ستيوارت » ، لا أتذكر ما حكته . وتحت الضوء الضعيف كدتُ ألا أرى إلا صورتها الظليلة على الكرسي وقد شَكَّلَ شعرُها الخفيف الأشهب تاجاً مضيئاً في أواخر شعاع الغسق . كنت أعرف أن عليَّ الذهاب إلى البيت . كان في وسعي رؤية كيف كانت تحرك يديها

وهي تتحدث كما أسمع كيف تصنجُ أساور معصميها على بعض .

قطعتُ حديثها فجأة :

- جَدَّتي !

سَكَتَتْ.

قلتُ:

- أنتِ جَدَّتي المفضلة!

ضحِكَتْ قليلاً . جلسنا صامتين وهلة ؟

قالت:

- وليكن كافياً بهذا القدر.

10

كنت قد بدأت التردد على السينما أكثر . كثيراً ما امتطيت الدراجة الهوائية بعد المدرسة وانطلقت إلى إحدى دور السينما التي لديها عرض بعد الظهر . كنت أذهب وحدي دوماً . وكان محتملاً أن أقرأ الجريدة صباحاً وأقرر أي فيلم سأحضره . بعد ذلك كنت أفكرُ ، وأنا في المدرسة ، مستنبطاً أسرع الطرق عبر المدينة كي ألحق خلال الفترة الوجيزة بين انتهاء المدرسة وبداية الفيلم . وفي حال سأل أحد رفاقي فيما لو أننا سنعمل شيئاً سوية فقد كنت أتعلل بانشغالي . كنت أتعلل أحياناً أن عليَّ الذهاب إلى جدتي لكي أساعدها على قضاء حاجة . كنت أفضل زيارة السينما وحدي .

ولكي أوفر النقود من أجل السينما كنت إما أن أسرق من أمي أو أختلس من حساب مدخراتي المصرفية . لم تلاحظ أمي أي شيء قط . على كل لم تتساءل عما كنت أفعله بعد الظهر . وإن كانت ستسهر خارج البيت فقد كنت أتمكن من حضور عرض مسائي أيضاً. ولكنني كنت أزور السينما غالباً بعد الظهيرات . كان تسللي سراً إلى سينما ، بالضبط عندما يكون الناس في أعمالهم أو رفاقي يقومون بشيء . كان الصمت والوحدة في العتمة بعد إطفاء الأنوار أمام الشاشة يبعثان في نفسي هدوء وراحة .

كنت أتمكن أحياناً من ترك محفظتي المدرسية في البيت قبل ركوبي الدراجة منطلقاً إلى السينما. كانت جَدّتي تعرف موعد انتهاء دوام مدرستي ولذلك كانت تهتف إليّ . لم أستجب أحياناً لرنين الهاتف . كنت قلقاً ألاّ أتمكن من الوصول إلى السينما في موعدها. ذات ظهيرة رنّ جرس الهاتف فرفعت السماعة عفوياً. كان عليّ أن أركب الدراجة وأصل السينما خلال عشرة دقائق إن كنت أريد الوصول في الوقت المحدد . تناهت إليّ رِنّةُ صوت جَدّتي وحيدة . قالت إن هناك شيئاً مهماً يجب أن تسأل عنه . جلستُ على كرسي جانب الهاتف وسألت ما هو . تساءلتْ إن كنتُ شاهدت برنامجاً تلفزيونياً في الليلة السابقة . كنت قد شاهدت البرنامج ، لكنني أردتُ إنهاء المكالمة بأسرع ما يمكن حتى أصل إلى السينما في الوقت المحدد .

قلتُ:

- لا !

بعدئذ حكت شيئاً عن البرنامج ، شيئاً كنت أعرفه مسبقاً. قالت إن أحد المشتركين في البرنامج ارتدى سترة قبيحة وإن منظر شعره سيئ جداً . وبعد ذلك حكت عن شيء قاله . قلت على كل لم يكن سيئاً لهذه الدرجة حقاً. وافقتني ، وبعدها بدأت تحكي عن شيء آخر.

سألتُ :

- ماذا تريدين في الحقيقة ؟

بدأت تحكي عن برنامج التلفاز ثانية. قلت لها إنها لا تعرف عما تتحدث. لذا بدأت تتحدث عن شيء آخر. حكت عن شيء قد سمعته من إحدى العجائز في المؤسسة. نظرتُ إلى الساعة. كان الوقت قد فات الآن على موعد السينما. سألتُ كيف عرفتْ أن ما سَمِعَتْهُ كان صحيحاً. عندئذ سألتُها لماذا تتحدث عن شيء لا تعرف إن كان صحيحاً. شعرتُ بنفسي حانقاً ومضطرباً أنني فَوّتُّ السينما. كان أحد رفاقي قد سألني ما سأفعله بعد الظهر والآن قد فاتتني مرافقته إلى بيت رفيق آخر. كانت لدي وظيفة بيتية في العلوم الطبيعية

وكنت أفضل ألا أنجزها. قلتُ لجدتي إنها لا تعرف عما تتحدث.

ران الصمت في الهاتف. سألَتْ إن كانت قد أعادت حكاية كنت قد سمعتُها مراراً قبل هذه المرة . قلت إنني أعرف الحكاية بالتفصيل . سألَتْ إن كانت لديَّ وظائف بيتية كثيرة وأجبت إن لديَّ بالتأكيد . بعد ذلك عمدتُ إلى أن أجعلها تفهم أن هذا الأمر لا يعنيها. كنت أفكر في السينما التي فاتتني وتَعَذُّرِ القول لجَدَّتي إنني في طريقي إلى هناك . في الحقيقة لم أكن مضطراً إلى الكذب على جَدَّتي . سألتْ على كل حال إن كنت قد شاهدت برنامج التلفاز. كان يبدو لي ، من صوتها ، أنها وحيدة وحزينة . قلت إنني قد رأيت البرنامج وإنني بالفعل مضطر إلى إنجاز وظيفتي البيتية الآن . قالت جَدَّتي إنَنا سنتحدث معاً في يوم آخر. وبالكاد ودَّعنا بعضنا بعضاً.

ارتجفت يدي التي أمسكتُ بها مقبض سماعة الهاتف عندما أعَدْتُها إلى مكانها. كنت حزيناً غاضباً ألا تُسْنَحَ لي الفرصة لأكون وحدي وأذهب إلى السينما. كنت أريد أن يكون كل شيء من حولي صامتاً لا غير . حاولت قراءة مجلة مصورة ولكن لم يكن لدي جَلَدٌ على الجلوس . وذهبتُ بالنقود المخصصة للسينما إلى دكان التبغ واشتريتُ مجلة مُصَوَّرَة ، لم أكن في الواقع معجباً بها ، وشوكولا كبيرة . أكلت الشوكولا كلها دفعة واحدة ثم ذهبت إلى البيت أقرأ المجلة . لم أكن أرغب في أن أكون وحيداً . بدا لي أنني لم أكن وحدي بشكل كاف . لم أكن أعرف ما أريده . فكرت آنئذ أنني سأضطر إلى محاولة سرقة نقود من أمي لكي أشاهد الفيلم في الغد عوضاً عن اليوم .

هتفتْ جَدَّتي بعد يومين ثانية . قالت إنها لم تعرف أي خطأ ارتكبت في آخر مرة تحدثنا فيها . اعتذرَتْ مني .

قالتْ :

- إنني أتذمر أكثر من اللازم .

أردتُ قول إنه كان خطئي في الحقيقة. لكنني لم أقل شيئاً. قلتْ إنه سيان. بعد ذلك تحدثنا معاً كالعادة. حكت جَدَّتي شيئاً كنت أعرفه مسبقاً ومزحنا على

سُخْفٍ قاله شخص. بعد ذلك تحدثنا عن مسلسل تلفزيوني نحبه كلانا. أعادت جَدَّتي حكاية مشهد منه ومن ثم حكت عن شيء ذَكَّرَها به المشهد . حكاية لم أكن قد سمعتها إطلاقاً من قبل . أصابني شيء من عجب أنني لم أسمع بعدُ كل شيء لدى جَدَّتي .

ذهبت إلى بيت جَدَّتي بعد أسبوع تقريباً . هتفتُ إلى أمي في عملها وأخبرتُها بأنني سأتناول العشاء لدى جَدَّتي . أعددنا بضع قطع قديد وبيضتين وقليلاً من البطاطا . أرتني جَدَّتي كيف يستعمل المرء قليلاً من مسحوق الكعك وقليلاً من السكر عندما يقلي البطاطا. قالت إن السكر يضفي على البطاطا لوناً زاهياً ومسحوق الكعك يجعلها مُحَمَّصَة . بعد فراغنا من تناول الطعام جلسنا إلى الطاولة في البهو ولعبنا الورق . كانت جَدَّتي قد لعبت « البريدج » منذ سنين عدة مرة على الأقل كل أسبوع مع عجائز أخريات في المؤسسة . لكنها قالت إنها اضطرت إلى إنهاء اللعب مذ أقلعت عن التدخين .

قالت :

- لا يمكن لعب « البريدج » إن لم يتسنى للمرء تدخين سيجارة .

قلت إنني لم ألعب « البريدج » إطلاقاً. قالت جَدَّتي إن ذلك أمر يضطر المرء إلى تعلمه. كانت ستعلمني إياها ونرتب الأمر لنلعب مع آخرين . كان رأيي أن ذلك مبهج .

قالت جَدَّتي :

- كنا نجلس في كثير من الأحيان على الشرفة في « شويمانهولم » ونلعب « البريدج ». لكن الجدّ كان له مزاج فظيع بحيث إنه لا يستطيع الجلوس بهدوء إن خسر. على المرء ألا يلعب أبداً مع آخر يرتبط بعلاقة زواج معه . هذا يَجُرُّ إلى الخصام .

كنت أعرف أن جدي سريع الغضب . كنت أعرف أنه من السهل أن يُغْضِبَ جَدَّتي غضباً شديداً . قالت جَدَّتي إنه يصدف أن يكون مزاج أبي سيئاً أيضاً . قالت :

- هذا موجود في السُلالة .

كان لجدي ابن عم يعمل أجيراً في مخبز في بلدية « سـولنا» . كـان يحب المشي حافياً ، لكنه وبِّخَ لأنه يمشي في قسم البيع . اعتـبر صـاحب المخبز المشـي حافياً في قسم البيع غير مناسب . كان يظن أن ذلك يدفع الزبـائن إلـى الفـرار. عندما وبّخَ ابن عمي غضبَ هذا لدرجة أنه رمـى بصدارتـه وغـادر المخبز فقـط. وكان غاضباً لدرجة أنـه مشـى حافيـاً حتـى مدينـة « سوندسـفال » في شـمال السويد ولم يزر « استوكهولم » إطلاقاً.

قالت جَدَّتي لذلك كان أقرباء جدي سيئي الطبع في لعب الورق . كـانت إحدى شقيقات جدي قد لعبت الورق مع أبي عندما كان صغـيراً. وعندمـا ربـح والدي وابتهج وقفز ، غضبتْ أخت جدي لدرجة أنها خبطـت ورق اللعـب علـى الأرض وصرخت في أبي قائلة :

- إن المرء لا يلعب كي يربح ، إنما كي يتمتع .

وهذه كانت جَدَّتي تحكيها دائماً عندما كنا نلعب الورق . كنت أضحك لذلك في كل مرة .

زرتُ جدتي بعد أسبوعين . لا أعرف في الحقيقة لماذا زرتها. كنـت أريـد قول شيء لكنني لم أكن أعرف ما هو. كانت متعبة تتذمر من الصداع كالعـادة. شعرت بنفسي مضطرباً . كانت قد دلقــتْ شـيئاً علـى أرض المطبخ يَدْبِـقُ نعـلَ الحذاء. وقرب السرير كانت هناك كومة كبيرة من الجرائد. نظـرت إلـى السـاعة. كان الوقت متأخراً على اللحاق بأي عرض سينمائي . قلت لجدتـي إنني نسيت شيئاً وإنني مضطر إلى الذهاب . عندما قطعتُ الحديقة رأيتها تقف قرب النافذة . لكنني لا أعرف إن كانت تنظر إليَّ لأنها لم تلوح بيدهـا. كـانت تقـف هنـاك مثل طيف لا غير. كصورة شخص آخر .

بعد بضعة أسابيع أصبت بالزكام وبقيتُ في البيت . لم أكن ، في الحقيقة ، مريضاً إلى هذه الدرجة ، لكنني فضلت الغياب عن المدرسة يومين . كنـت بَرِمَـاً بالمدرسة ومع ذلك اعتقدت أن فرصة البقاء في البيت وحدي ممتعة . كنـت قـد

نزلت قبل الظهر إلى دكان بيع التبغ واشتريت مجلتين مصورتين وقصة بوليسية ، ولكن في النهاية أصبح مملاً استلقائي في السرير وأن أقرأ فقط . نهضتُ وتجولتُ في الغُرَفِ . ومرة إثر أخرى فتحتُ البراد وكأنما شيء جديد قد زاد عليه خلال الوقت . بعد ذلك تابعتُ في التلفزيون برنامجين مدرسيين سمجين . كان الأول برنامج تدريس الإنكليزية ورغم أنني اعتبرتُه سخيفاً فقد جلست أتابعه حتى النهاية . بعد ذلك بُثَّ برنامج في الفيزياء ، ولكنني سئمته في النهاية وأغلقت التلفزيون .

هتفت أمي بعد الظهر. بدا صوتها مضطرباً مُجْهَداً وقالت إنها تهتف إلي من مكتب الاستقبال في المؤسسة حيث تعيش جَدَّتي . كانوا قد هتفوا إلى أمي في عملها إذ لم يُجِبْ أحد في البيت . قدرت بأنهم هتفوا حتماً عندما كنت في دكان التبغ اشتري المجلتين والقصة . كانوا يسألون إن كان لدى أمي مفتاح إضافي لشقة جَدَّتي إذْ لم يفتح بابها أحد .

كانت أمي قد ذهبت إليهم وقت الغداء فوجدوا جَدَّتي غائبة عن الوعي في سريرها وقد أوقعت مصباحاً والطاولة الصغيرة قرب السرير. كان المصباح ملقىً على الأرض يرسل أشعته نحو السقف . ولهذا السبب كان الشكُّ يراودهم . كانت جَدَّتي قد بالَتْ وقَذَّرت في ثيابها وهي مستلقية على السرير تكاد تسقط عنه . كانت غائبة عن الوعي تقريباً وبالكاد تتجاوب مع صوت أو ضوء . والآن كانت أمي تنتظر سيارة الإسعاف وقالت إنها ستهتف إليَّ عندما يصلون إلى المستشفى .

بعد أن وضعتُ سماعة الهاتف جلستُ طويلاً أحملق صامتاً. بعد ذلك طفقت الدموع . كانت بضع دموع فقط ، رغم أنني رغبت في البكاء حقاً. كنت أعرف أن جَدَّتي ستموت . ما كنت أعرف أن وقتها قد أزف . فكرت في الحكاية التي حكتها لي عندما كنت في زيارتها منذ شهر. لم أكن قد سمعتها من قبل . لربما كانت هناك حكايات أخرى لم أسمعها أيضاً. نظرت نحو الشارع في الأسفل . كان الطقس في مقتبل الخريف والمطر يرذّ . كان الناس يتنقلون على

الرصيف بسرعة . وقف بعضهم في مداخل البنايات ينتظر أن يتوقف المطر . كان شخص يلصق ورق جدران جديداً في شقة في الطرف المقابل من الشارع . كل ما كان في وسعي التفكير فيه هو أنني أريد البكاء أكثر .

بعد ذلك قمتُ بعمل أخرق . لا أعرف بالضبط لماذا قمت به . جلست إلى البيانو وعزفتُ بسكون لنفسي . لم أكن في الحقيقة أتقن العزف على البيانو إطلاقاً إنما كنت أستطيع التقاط بضعة ألحان وكنت قد استنتجت كيف تتفاعل بعض الأنغام مع بعضها الآخر . وبهذا جلستُ وعزفتُ بضعة أنغام . نظرت إلى نفسي على سطح البيانو المدهون بالأسود فرأيت أنني لست إلا صورة ظليلة إزاء الغرفة الرمادية . بدأت أغني الأغنية التي يغنيها شخص في التلفزيون كل عيد ميلاد بعد أن ينتهي برنامج الأطفال « كاللـه أنكا ». إنني أعرف أنه عمل سخيف جداً . لكنني غَنَّيْتُ :

- (هل ترى النجمة على قبة السماء الزرقاء) ؟
كلُّ ما يتمناه المرء يُدْرِكُه .

لم أكن أعرف من النص أكثر من هذا وبالكاد أعرف من اللحن أكثر. ولكنني غَنَّيْتُ الشطرين مرة تلو الأخرى وعندئذ تحررت الدموع. ما كنتُ أريد أن تموت جَدَّتي ، لكنني أعرف أنها ستموت الآن . تقدمت إلى النافذة مرة أخرى ونظرت إلى الأسفل . كان كل شيء ليس أكثر من سديم رمادي لَطَّخَتْهُ الدموع على الضوء. كنت سعيداً لتمكني البكاء وحزيناً بشكل مُرَوِّع . ردَّدْتُ اسم جَدَّتي لنفسي مرات عدة وبعدها جلست إلى البيانو وغَنَّيْتُ لنفسي الشطرين بصمت ، مرة تلو الأخرى ومرة أخرى تلو الأخرى .

هتفتْ أمي ثانية قبيل العصر. قالت إن جَدَّتي الآن في المستشفى ويعتقد الأطباء أنها أصيبت بنزيف دماغي . قالت إنها أفاقت من سُبَاتِها ، لكنها لا تستطيع الحركة ولا الكلام. قالت : لربما ستكون المرة الأخيرة التي نرى فيها جَدَّتي على قيد الحياة . قالت : بما إنني مزكوم فينصح الأطباء ألا أحضر لزيارتها خشية العدوى . ولكنني ما كنت لأجرؤ على زيارتها وإن سُمِحَ لي

بذلك . لم أتجرأ على رؤية جَدَّتي مشلولة على سرير ، غير قادرة على الكلام تكاد تكون ميتة . رغبت في أن يكون لاشيء حاضراً . لم أكن أرغب في أي شيء آخر غير أن يكون ثمة لاشيء حاضراً. كنت أرفض موتَ جَدَّتي .

ولم تمت جَدَّتي . بقيت في المستشفى مدة أسبوع وقالت أمي على ما يبدو إنها بدأت تفهم ما يُقالُ لها . تكاد لا تستطيع الكلام. لم أكن قد زرتها بعد. أعتقد أن أمي كانت تخشى عليَّ الخوفَ لرؤيتها. لفترة فكرت في إرسال رسالة تأخذها أمي وتقرأها لها. لم أفعل ذلك . حاولت العزوف عن التفكير في ذلك .

بدا لي أنني مرغم ، بأي شكل كان ، على زيارة جدَّتي في نهاية المطاف . كنت منفعلاً عندما ذهبت ، لكنني كنت أدرك أنني مرغم . عندما دخلت عليها الغرفة خفت أولاً. نظرتُ إليها. لم تتغير كثيراً ، إنما هي ساكنة ومتهالكة على ذاتها . كان وكأنما جزء كبير من الحياة قد فارقها. بدا أحد أطراف وجهها مُتَقَصِّفاً على بعضه وإحدى يديها لا حياة فيها ومتورمة بشكل غريب قليلاً. تدلَّت زجاجة مَصْل قرب السرير مربوطة إلى ساعدها بخرطوم دقيق . خرجت من الغرفة ثانية وتسمَّرْتُ لفترة . كانت ممرضات وآخرون غيرهن يمرّون بي طيلة الوقت لذا شعرت أن وقوفي بهذا الشكل سخيف .

عندما دخلتُ الغرفة ثانية فتحتْ عينيها. ويرغم سكون وجهها تقريباً فقد عرفتُ أنها ميزتني . حاولتْ أن تبتسم قليلاً ، ولكن نصف الوجه كان مشلولاً ولم تصبح الضحكة حتى تقطيبة مشروخة . هذا فضلاً عن أنّ أسنانها الصناعية لم تكن في فمها. كانت شفتاها مطبقتين على لِثَتِها. بدا وكأنها أرادت أن تقول شيئاً . ولكن كل ما نجَمَ أن لسانها دار داخل فمها وسُمعَ صوتُ أنفاسها يتحشرج . جلستُ على الكرسي إلى جانبها. فكرتُ أنني لربما أقابلها للمرة الأخيرة. ألقيتُ بيدي على يدها . حاولتْ أن تقول شيئاً مرة أخرى . أدركتُ أنها تحاول أن تنطقَ اسمي .

قلت :

- بلى ، « كريستيان ».

وحاولتْ أن تبتسمَ تلك الابتسامة المتداعية مرة أخرى . فكرت لابد أنها تريد قول شيء مهم للغاية . ربما أرادت أن تقول شيئاً عن أبي . أو ربما أرادت أن تقول كيف هو الحال وقت يكاد الموتُ يُدرِكَ الإنسان . أمسكتُ بإحدى يديها . كانت باردة بلا حياة تقريباً. لم يعد حول أصابعها أي خواتم ولا حول معصميها أساور. تركتُ يدي تنزلق عن السرير. لم أكن أعرف ما سأقوله بالضبط . كانت جَدَّتي تنظر إليَّ ، ولكن وكأنما ثمة غشاء رمادي غطى عينيها ولا أعرف ما رأته بالضبط . ابتسمتْ قليلاً .

قلتُ:

- جَدَّتي ! لم كلُّ هذه البَلْبَلَة الآن ؟

حاولتْ أن تبتسم ثانية. سال من شدقيها المشلولين على الوسادة خط من اللعاب . حَرَّكَتْ إحدى يديها قليلاً وتركت نظراتها تُدَوِّمُ نحو السقف . قالت شيئاً ، ولكن لم ينجم إلا حشرجة مشبعة باللعاب . انكببت عليها. لا بد أن أمراً مهماً تريد قوله . وتَشَكَّلَ فمها إلى نفس الحشرجة المبهمة كالسابق . قلت لها إنني لم أفهم ما تريد قوله . وطاف اللسان في فمها وحاولتْ أن تُشَكِّلَ فمها لشيء مفهوم . وببطء شديد حاولت أن تنطق كلمة فكلمة . بعد ذلك اعتقدَتْ أنني فهمت ما تعنيه . ضحكتُ متسائلاً :

- نعم ، إنه مثل بائع الجملة .

ابتسمتْ وأومأتْ برأسها . ومرة أخرى سال خط لعاب من شدقيها على خدها. حاولتْ أن تضحك قليلاً. لم أكن أعرف إن كانت في عينيها دموع . لم يكن يخطر في بالي إلا أنَّ جَدَّتي ما تزال موجودة بعدُ ، هناك ، في مكان ما ، داخل البدن الذي يكاد يكون مَيْتاً .

بقيتْ جَدَّتي في المستشفى أسبوعين . عادت إليها القدرة على الكلام ببطء شديد لكن تشكيل الكلام تحسن بصعوبة . عُدْتُها في المستشفى مرتين . كان الحديث بيننا طفيفاً وما قيل لا يُذْكَرُ وحاولتُ أن أجد سبباً كي أغادر قبل أن يصبح الصمتُ محرجاً . بعد ذلك نُقِلَتْ إلى دار عجزة في ضاحية جنوب

المدينة . عندما زرتها في المرة الأولى كانت الريح والغبار تهب على الضاحية . أعتقد أن الفصل كان خريفاً. كانت ضاحية سمعتُ باسمها سابقاً لا غير . كانت في مكان لم أكن قد زرته فيما قبل وما اعتقدت أنني سأصله ذات يوم إطلاقاً .

عندما وصلتُ كان ثمة ممرضتان ، في مكتب الاستقبال ، تشربان القهوة . حاولتُ أن أفهم منهما أي غرفة تسكنها جَدَّتي ، لكنهما نظرتا إليَّ بعيونٍ حائرة لا غير. أدركتُ أنه في الحقيقة لا تتكلم أي منهما السويدية . لذا قلتُ اسم جَدَّتي بضع مرات فأعطياني رقم غرفتها. كان في وسعي أن أميز كيف لَكَنَتَا بالفنلندية بشدة . درجت جَدَّتي على ذكر أنها تستحب اللغة السويدية ذات اللُكْنَةِ الفنلندية . قالت إن لها نبرة كما لو أن المُتَكَلِّم يُغَنّي دائماً. وبعد قولها هذا قرأتْ بضعة أبيات شِعْرٍ لا أتذكرها. قالت إن في وسع المرء أن يسمع الغناء في الكلمات .

كان ثمة غبش غريب يخيم على الجناح . كاد الصمت يُطْبِقَ كلياً لولا صراخ عجوز تريد المساعدة . بدا وكأنها كانت تصيح لكي تسمعَ صوتها فقط ، وكأنما كانت قد عرفتْ أن ليس ثمة أحد يسمعْ . كانت جَدَّتي تتقاسم الغرفة مع عجوزين . وحول سرير إحدى العجوزين وُضِعَتْ بضعة قواطع قماشية مُخَطَّطَة باهتة اللون . كانت مستلقية وذقنها بارزة في الهواء وترسل نَفَسَاتٍ فَتِقَة ثقيلة . وإلى جوار سرير جَدَّتي استلقت عجوز على طرفها ووجهها حُوِّلَ عنا .

كانت جَدَّتي تستلقي قرب النافذة . كان الغبش والصمت يلفان الغرفة لولا زفرات العجوز الفتقة خلف الستارة . كانت الستائر موارية . سحبتُ الستائر عن بعضها بعضاً وجلستُ على كرسي جوار سرير جَدَّتي . كان الغروب قد بدأ في الخارج ، وكان مصباح الشارع قد أُنيرَ في نفس اللحظة التي سحبتُ فيها الستائر . تسرب الضوء إلى الداخل واستقر على وجه جَدَّتي . سألتُها عن حالها . رشقتْ نظرة نحو الباب وحاولتْ الدُنُو مني . انحنيت قربها . كنت أحس بأنفاسها . كانت حلوة ومحبوسة .

همستْ :

- تلك المرأة ستموت قريباً. إن لم تمت خلال الليل فسينقلونها إلـى غرفـة أخرى .

مازالت جَدَّتي تُحَشْرِجُ بالكلام ، ولكنني كنت قد أَلِفْتُ ذلك وفي وسـعي فهم ما تقوله بشكل أسهل . نظرتُ بعيداً نحو القواطـع القماشـية الباهتـة . بـدا وكأن العجوز قد أغفلت تنفساً . كنت قلقاً أن تمـوت وأنـا موجـود. سـألتُ إن كان سيلازمها أحد. هزَّت جَدَّتي برأسها نافية .

غمغمتْ جَدَّتي :

- من سكرات الموت استلقت تَهْذي طوال الليل . أعتقد أنها تَهْرَفُ بحافلة نقل. تهذي ببيت ما.

نظرتُ إلى الخارج عبر النافذة . كان بضعـة أطفـال مدرسـة يمشـون علـى الرصيف في الطرف المقابل من الشارع وكأنما لا يريدون الاقتراب من دار العجزة . فجأة خُيِّلَ إلي أن كل شيء يفوح برائحة المـوت . العجـوز التـي كـانت تصيح طلباً للمساعدة ، بعيداً في الرواق ، تابعت الصيـاح طـوال الوقـت ، برغـم أنـي سمعت إحدى الممرضات قد ذهبت إليـها. وفي مدخـل دار العجـزة شـاهدت أن لديهم رياضـاً للأطفـال الصغـار . أسبلتُ نظـري نحـو يـديَّ فبدتـا بيضـاوين وباردتين . خُيِّلَ إليَّ أن كل شيء يفوح برائحة أطياف وموت .

قالت جَدَّتي :

- ليس هناك من يتكلم السويدية في هذا المكان .

نظرتُ إلى جَدَّتي وهي في السرير مرة ثانية . كانت الوحدة ظاهرة عليـها. حسبتُ الغرفة خانقة وأردت فتح النوافذ لأغير الهواء. فجأة هيئَ إلـيَّ أننـي مـا عدت أسمع حشرجة العجوز خلف القـاطع . أصخـت بسـمعي جيـداً فوصلتنـي تلك الأنفاس القصيرة القلقة ثانية .

قالت جَدَّتي :

- بينما هما تعدان السرير كانتا تتحدثان الفنلندية فوق رأس المـرء . لا

أحد يسمع شيئاً. لا أحد موجود.

أرسلت بصري بعيداً نحو القواطع حــول ســرير العجـوز المحتضـرة . ربما لاحظتْ جَدَّتي أنني قلق أن تموت العجوز . حَرَّكَتْ إحدى يديها نحوي لكنــها لم تبلغني . رأيتُ جَدَّتي ولكنني لم أمسكْ يدها . نظرتْ إليَّ وحاولت الابتسام . أحد شطريّْ وجهها مازال جامداً لا حياة فيه .

قالت جَدَّتي :

- إنها لن تموت الآن .

بعد ذلك رفعتْ بصرها عني ونظرتْ من فوق كتفي.

سألتْ:

- ألا ترى القمر؟

التفتُّ وشخصتُ ببصري نحو السماء . وفــوق رتـل بيـوت عاليـة رماديـة تدلى هلال رفيع خلف بضع من رقائق غيم اليوم المـهدورة. لم يكـن سـوى هـلال رفيع . وبعد أن فكرت فينة أدركتُ أن القمر قادم. كان الهلال يرسل أشعة باردة بيضاء.

أجبتُ:

- نعم !

قالت جدتي :

- إنني لا أراه .

جلستُ صامتاً هنيهة . ذهبت إحدى الممرضات وتحدثت ، مرة أخـرى ، مع السيدة التي طلبت المساعدة . حَلَّ الظلام بسرعة في الخارج . تساءلت لماذا لم يُنَوِّروا الجناح .

تساءلتْ جَدَّتي :

- هل الفصل خريف ؟

قلت :

- إنه خريف .

قالت جَدَّتي :

- والبوابات كلها مشرعة نحو حظائر لا معنى لها.

كان ما قالته شطراً من شِعْرٍ تكثر ترديده . أومأتُ برأسي ، ولا أعرف على أي شيء أومأت . بدأت جَدَّتي تسعل . بدا سعالاً عادياً. بدا مثلما كانت تُغَصُّ وهي تأكل . أخذتُ كأس شراب الفواكه من العربة بقرب السرير وساعدتها على الشرب .

عندما أعدتُ الكأس إلى العربة قالت :

- شكراً .

رأيت وسادة ناقل الصوت في البلاستيك تحت صفحة العربة فسألتُ إن كانت تريد الاستماع للمذياع . هزَّتْ رأسها نافية لا غير. والآن سكتتْ العجوز التي تصيح طلباً للعون . كان كل شيء في الجناح صامتاً ، كل شيء ماعدا صوت الممرضات يُدَنْدِنَّ. مسحتُ بيدي على صفحة زجاج النافذة . أحسست بالبرودة . كان الهلال قد اختفى خلف غيمتين . جلست وإحدى يدي ترتاح على طرف سرير جَدَّتي . فجأة أحسست كيف تأخذ جَدَّتي بيدي . كانت يدها حارة وناشفة . ضغطتْ على أصابعي بقوة .

قالتْ:

- اذهب الآن ، يا كريستيان ، اذهب الآن !

11

حَلُمْتُ ذات ليلة بجَدَّتي وهي نزيلة بيت العجزة في الضاحية. كان الوقت غبشاً ومن مكان ما يتناهى إلى سمعي صوت ماء ينقط في إناء كبير في قبو . ولكنني ، وفي الوقت ذاته ، كنت كأنما دخلت في آلة موسيقية هائلة . أعتقد أنها آلة وترية ، ربما كمنجة كبيرة . لم تعد جَدَّتي طريحة الفراش ، بل تقدمت إليَّ عبر باب . مددت يدي نحوها ، لكنها وقفت تنظر إليَّ لا غير .

بعد ذلك قالت لي شيئاً فحواه إنه لا يحق لي أن أكون هناك . قالت إن هذا المكان لا يليق بي وأرتني ورقة غير مكتوبة . لم أرغب في أخذ الورقة منها ودَبَّ الخوف فيَّ فجأة خشية أن يبدأ أحدُ العزف على الكمان الكبير . قالت جَدَّتي شيئاً فحواه إن "العُشْبَ لا يتَخَشَّبْ". بعد ذلك قالت إنَّ عليها أن تمكث هناك ، داخل الآلة .

لكن جَدَّتي لم تعد بحاجة إلى البقاء في دار العجزة في الضاحية . وُفِّقَتْ أمي في نقلها إلى مستشفى آخر وسط المدينة . كان المستشفى يقع على تَلٍّ في حديقة عامة كبيرة . في الحقيقة لم تكن الحديقة أكثر من مرج أخضر مُتَمَوِّج وبضعة ممرات مفروشة بالحصى . وعلى امتداد الجوانب انتصبت أشجار كستناء

قـرب بضعـة مبـان قديمـة متداعيـة . وفي منتصـف التّـلّ انتصـب البنـاء الجديـد كصندوق كعكة عيد ميلاد . جناح جَدَّتي يقع قبل الطابق الأخير بواحد .

وفي المصعد كانت تقف دائماً عجوز ما لا تعرف إلـى أيـن وِجْهَتُـها. وفي كل مكان كان هناك عجائز لا يعرفون من أين أتوا وإلى أين سيمضون . وقـرب الدُكَيْنَةِ ، عند مدخل المستشفى ، كانت تقف دائماً عجوز لا تعرف مـا تريـد . وقربها تقف ممرضة وتسألها إن كانت تريد العـودة إلـى الجنـاح . هكـذا كـان الحال في كل زيارة لجَدَّتي . وعندما كان المصعد يقلني إلى الجناح الثامن وتُفْتَحُ أبواب المصعد كان أول شيء اسمعه نداء طلبٍ للعون . كـان هنـاك ، في نهايـة الممر ، مَنْ تطلب العون من داخـل غرفتـها دائمـاً . كـان صوتـها يتنـاهى إلـيَّ وكأنها على وشك الغرق . ولكنها كانت تنادي وكأنما ثمـة مـن يُتوقَـع أن يسـمع رغم كل شيء .

لكن المستشفى كانت أكثر نوراً وحيوية من دار العجزة في الضاحية . كان يجلس في غرفة الجلوس عجائز وشيوخ على كراسي العجزة ويتحدثون أو يحملقون أمامهم فقط . كان معظمهم مبتور الساق أو الساقين كلتيـهما. كنـت أعـرف أن ذلك بسبب « الكُزاز » . كأنما جزء من الساق قد مـات . أو كأنمـا المـوت قـد أمسك بجزء من الإنسان ويريد جَرَّه إلى العَتَمَةِ . وبما أنه لم يَتَمَكَّنَ من الموت كي يُفْلِتَ قبضته أُضْطُرَّ إلى أن يَبْتِرَ ساقه . جلس المسنون وقد سُـحِبَتْ فـوق جُـذولِ سُوقِهِمْ جوارب بيض . جلست امرأة تحملق في الجِذْلِ وكأنما لا يُتَـاح لـها تذكـر أين مضت بقية السـاق .

كان ثمة شيخ يقف دائماً ، في الممر ، وكيـس بَـوْلٍ مملـوء يَنُـوسُ علـى ساقه ، ويحاول دخول غرفته عبر الجدار . ولذلك تأتي ممرضة وتسأله إلـى أيـن وجهته . فيقول إنه في طريقه إلى البيـت . فتقـول لـه إن البيـت لا يقـع خلـف الجدار إنما بعيد في الطـرف الآخـر مـن الممـر وهـي تشـير نحـو المرحـاض وغرفـة التغسيل . وكان السرور يبدو على الشيخ ويمشي متأبطاً ذراعها نحـو المرحـاض . وعندما يصل يقول لها "إن هذا ليس البيت إطلاقـاً" دون أن ينتابـه أي حـزن

بل يبدو وكأنه أكثر استغراباً .

كانت جَدَّتي تقيم في غرفة خاصة تُطِلُّ على بضعة بيوت ومحطة تغيير القطارات في الطرف الآخر من حديقة المستشفى . وكان يتقدم بين فترة وأخرى قطار مندفعاً فوق أحد الخطوط الداخلية نحو مركز المدينة . كانت قطارات البضائع والعربات تُرْبَطُ بقطارات أخرى على طرف المحطة . وعلى الرغم من ذلك فقد كان كل شيء هادئاً من المستحيل أن يُسْمَعَ خبط العربات وهي تمر على وصلات السكك وكأنها تتحرك داخل أغوار حلم . كانت الأشجار تغصُّ بالكستناء وكان في وسعي رؤية سنجاب بين أوراق الشجر المصفرة .

كانت جَدَّتي مستلقية على سريرها متهالكة على نفسها. كانت الوسادة ترفع رأسها بحيث أن ذقنها تضغط على صدرها. ساعدتها في الجلوس بشكل أكثر راحة . استغربتُ كم هي خفيفة الوزن . أحسست وكأنني أرفع عصفوراً. منذ سنوات عدة اهتممت ورفيق لي بعصفور مصاب . كان وزن العصفور خفيفاً كلا شيء . كان الإحساس بجذل الساق مثل غصن رهيف تحت الريش . أَتَصَوَّرُ أن العصافير خفيفة الوزن لأنها تطير . أحسست بجَدَّتي خفيفة مثل عصفور ، وببدنها حاراً وليناً ، إنما جلدها بانَ أكبر قياساً من هيكلها العظمي. رفعتها برفق من إبطيها أُعينُها على سحب بدنها إلى أعلى السرير. لو كان هذا في حلم لكنت رفعتها مثل العصفور عندما حَرَّرْناه . رفعنا العصفور عالياً فوق رؤوسنا ومن ثم بسطنا كفوفنا. انتظرنا قليلاً فاختفى العصفور.

قالت جَدَّتي إن العاملين هنا أكثر لطفاً من أولئك في دار العجزة في الضاحية . كان عيب الممرضتين هناك أنهما لا تتكلمان غير الفنلندية تقريباً وأنهما لم تعيراها اهتماماً . كانتا تمران بها فقط وتتحدثان وتنظران وكأن جَدَّتي لا وجود لها . تحدثتُ مع جَدَّتي قليلاً عن العجائز والشيوخ المبتوري السوق . قلت :

- منظرهم فظيع ، وكأنما الموت قد أخذ جزءاً منهم ، كأنه يقرضهم.

قالت جَدَّتي :

- إن الموت يأخذ منا جزءاً بشكل دائم . ولكن إن لم يُعْنَ أحد بالمريض فإنه يُسَهِّلُ مهمة الموت . لقد كان الأمر فظيعاً عندما لم يكن هناك من يُعْنى بي .

بعد ذلك شئت ألا أتحدث أكثر عن ذلك . كنت أعرف أن جَدَّتي ستموت عما قريب أيضاً. لم أرغب في الحديث عن ذلك .

حكت جَدَّتي عن وليمة عشاء حضرتْها قبل شهرين من إصابتها بنزيف الدماغ. كان الوليمة لدى صديقة قديمة لم تكن قد قابلتها منذ سنين . وقد كان هناك رجل عمره أربع وتسعون سنة لم تقابله جَدَّتي منذ ثلاثين سنة تقريباً . قالت إنهم أمضوا وقتاً ممتعاً معاً . لم يتحدثوا عن ذكريات الصبا ، بل عما حدث وقتئذ . حكيتُ لجَدَّتي عن شيء قمنا به أنا ورفاقي لكنها لم تدرك عما كنت أتحدث تماماً . اضطررت إلى أن أشرح لها ما هي « لعبة التلفاز ».

عندما أحضرت الممرضات شاي المساء إلى جَدَّتي سألوا إن كنت أريد كوب شاي أيضاً . شكرتهم وطلبتُ ذلك . كانت الممرضات تنادين جَدَّتي باسمها العادي وليس بكُنْيَتِها ، وكانت هي تحاول ممازحتهن لكن لصعوبة التحكم بشفتيها ولسانها فقد كانت الكلمات أكثر سِمْكاً وكثافة . كان عليها أن تعيد المزاح أكثر من مرة بحيث أنها تفقد نُكْهَتَها. الدعابة لا يمكن إعادتها مرات كثيرة . يبدو أنها خُلِقَتْ لتكون لمرة واحدة ولحظة واحدة . وإن لم يسمع المرء ما يُقَال ويُضْطَرُّ المازحُ إلى إعادة الدعابة فعلى الأغلب سيكون الوقت قد فات . بدا على الممرضات أنهن لم يفهمن أن جَدَّتي تمازحهن. لربما كنَّ غير معتادات ذلك .

قُدِّمَ مع الشاي شريحة خبز لَيِّنَة وكعكة ناشفة . كانت شاياً داخل أكياس. ساعدتُ جَدَّتي على إقصاء الكيس الذي ينقط من الكوب . مرَّ بمحطة القطارات القطار السريع بسرعة عالية . قالت جَدَّتي شيئاً لم أفهمه . سألتها عما قالته ففهمتُ أنها تتساءل إن كنت ما أزال موجوداً . كانت الغرفة معتمة . كان المصباح الذي فوق سرير جَدَّتي وحده مضيئاً يلف بدن جَدَّتي بدائرة نور شاحب . كنت أجلس في الظل . أردت أن أسأل جَدَّتي إن كانت ترى بشكل

جيد . بحثْتُ عن نظارتها أحادية العدسة فلم تكن موجودة في أي مكان . لم يكن هناك أي جرائد أو كتب في الغرفة . على الرغم من وجود مجلتين أسبوعيتين على الرف فإنني لا أعتقد أن جَدَّتي تصفحتها. غَمَّسَتْ جَدَّتي شريحة الخبز اللّيِّن في الشاي ونقلتها إلى فمها. وقعت قطعة منها واستقرت على صدر معطف المستشفى . التقطتُ القطعة المبلولة ووضعتُها في صحن جَدَّتي الورقي الصغير.

قلتُ :

- كاد الوقت أن يكون متأخراً.

أومأت جَدَّتي برأسها .

قالت :

- إن الوقت متأخر .

أقامت جَدَّتي سنة ونصف تقريباً في نفس الغرفة . كان الأطباء يتذمرون من قلة أكلها ، لكنها كانت تقول إن لاشيء يُطْعِمُها . كانت تأكل أحياناً معجون الفواكه . لفترة كان رأيها أن طعم كرات اللحم الباردة لذيذ . وغير ذلك فقد كانت تشرب فقط . اضمحلتْ أكثر وأكثر ولربما لم تكن قلة الطعام فقط هو ما جعلها تتلاشى ببطء. حسبتُ أنها أصبحت أكثر شبهاً بعصفور. فكرتُ مرة وكأنما العصفور في هيكلها العظمي يريد التحرر ليظهر بشكلها.

كان جميع المسنين ، بشكل ما ، مثل عصافير مسنة . كان الشيوخ والعجائز يمشون مثل عصافير مسنة لم تعد تقوى على الطيران ، أو كأنهم نسوا الطيران . وبدا بعضهم متورم الجلد وصقيله بشكل غريب . وكان مثلُ بعضهم مثلُ مَنْ نسي كل شيء وجلس على كرسي العجزة ينظر إلى الجدار كأنما فيه نافذة مخصصة للنظر عبره ا. كانت جلودهم بلا نضارة وصقيلة مثل جلود دمى قديمة . كان كفَّا جَدَّتي وساعداها تبدو ، بعد نزيف الدماغ ، هكذا أيضاً. كانت تبدو كجزء من بدنها فُقِدَ داخل النسيان .

وفي نفس الوقت الذي سَهُلَ على جَدَّتي تشكيل شفتيها وفمها إلى كلمات مفهومة بدأ صوتها يتلاشى رويداً رويداً . كانت تتذمر من جفاف حلقها دائماً

على الرغم من أنها لم تكن عطشى مطلقاً. وكان رأيها أَنْ تشرب دون إحساسها بالعطش غير محتمل على طول الزمن . لاشيء كان يَطْعَمُها . كان طعم شراب الفواكه قديماً بائِتاً . عندما زرتها أحياناً كان صوتها ليس أكثر من فحيح . وعندما تسنى لها الشرب قليلاً والتحدث ببضعة جُمَلٍ عادت إليه الرنة ثانية . كانت تجلس وتضع إحدى يديها على صدرها وكأنها تريد منع القدرة على الكلام أن تَبْرَحها.

وعلى الرغم من أن قدرة الكلام مازالت لدى جَدَّتي إلا أنه أصبح العثور على شيء تقوله عسيراً . كان كل ما حولها في الغرفة الصغيرة ساكناً . كانت ما تزال تستمع إلى المذياع وتستطيع رؤية عناوين المجلة الأسبوعية لكن ما قد كان في داخلها من قبل هو المتبقي فقط وقد بدا ساكناً بشكل مُفْزِعٍ مذعوراً وهَلِعاً خشية أن يكتشفه النسيان . كنت أحكي لها شيئاً عن المدرسة وعن فيلم حضرتُه أو عن كتاب قرأتُه ولا أعرف ما سأتحدث عنه بعد ذلك . لذا بدأتُ أكذبَ .

في مكان ما من نفسي تمنيتُ لو أن كذبي كان صدقاً . ولكن الأهم كان وكأنما كذبي هو الوحيد الذي يبعث تَمَوُّجَات طفيفة على سطح ماء المستشفى الراكدة . حكيت لجَدَّتي أنني بدأتُ قراءة قصص بوليسية ومن ثم قلتُ لها إنني سأزورها يومياً بعد الظهر لأقرأ لها من قصة بصوت عال . قلت إننا سنقرأ معاً . بالطبع لم يُنَفَّذْ هذا مطلقاً . تماماً وأنا أقول ذلك كنت أعرف أنه لن يُنَفَّذْ . كان بكل بساطة كذباً لكنه أَفْرَحَ جَدَّتي . وبصوتها المفحوح قالت إن ذلك سيكون ممتعاً. وبعد ذلك عشنا تلك الكذبة لبضع ساعات . كان العيش هناك حلواً. كان داخل الكذبة دافئاً وكنا معاً .

بعد ذلك وقفتُ في الممر وانتظرتُ مجيء المصعد . نظرتُ إلى عجوز ذات جلد صقيل لمّاع مثل الزجاج ومثل الدمى يلفُّ بدناً مختلجاً قليلاً . كانت تجلس على كرسيها وحيدة في غرفة الجلوس تتحدث بوهن وتأوه مع شخص يعيش داخل جدار المبنى . مالت بجذعها إلى الأمام ومسحت بأناملها أقصى طرف من وجه الطاولة ومن ثم تهالكت إلى خلف على كرسيها ثانية . وبعد ذلك أعادتْ نفس

الحركة تماماً مرة إثر الأخرى ومرة إثر الأخرى . وكررتها ثانية وثالثة . كانت تتحرك مثل عَقْعَقٍ قرب صحن لإطعام عصافير. لا أعرف إن كان الزمن قد توقف ، أم أن الزمن لم يكن موجوداً في الأصل . بعد ذلك فكرتُ أن ليس لديها كذبة تعيش داخلها . وانحنتْ ومسحتْ لوح الطاولة بأناملها وتهالكتْ إلى خلف ثانية .

ضَعُفَ نظر جَدَّتي أكثر أيضاً. كانت عيناها مشوبة بالحمرة دائماً ، منتفختين يسيل الدمع منهما. بعد ذلك بدأتْ تضع على عينيها نظارتين شمسيتين . كانتا كبيرتي العدستين مثل ما تضعهما نجمة سينمائية . درجتْ جَدَّتي على المزاح قائلة إنها ستذهب إلى « هوليوود » عما قريب . كانت تضع على عينيها نظارتي شمس على الرغم من أن غرفتها تقع في طرف المستشفى الظليل وغالباً ما كان كل شيء في الغرفة غير مضاء ماعدا مصباح السرير . قدرت ذات مرة أن جَدَّتي يَبْهَرُ نظرُها من العَتَمَةِ وليس من النور . كانت تضع نظارتي الشمس لكي تجعل بينها وبين العَتَمَة حدوداً أو على الأقل أن تجعل منها عَتَمَتَها الخاصة . وقفتُ قرب النافذة ونظرت بعيداً إلى عربات النقل في محطة القطارات . بدا لي أن عربات النقل تقف هناك مليئة بالعَتَمَةِ ، منسية ، دون مَقْصَد.

كذبتُ عليها أيضاً بخصوص الأكل الذي سأحضره إليها . كنتُ أعرف أن عليها أن تأكلَ وتشربَ وإلا ستهلك من التجفاف . وقد حدث فعلاً أن علقوا لها « مَصْلاً » عندما لم تشرب لفترة أكثر من التحمل . كنت أخذ معي أحياناً طعاماً طهته أمي كي تذوق جَدَّتي طعاماً غير طعام المستشفى . ولكن غير ذلك كنت أكذبُ أنني سأحضر طعاماً في المرة القادمة . وصدف عندئذ أن أكلتْ جَدَّتي من طعام المستشفى . لربما كانتْ الكذبة ما جعلها تنسى كيف كان مذاق طعام المستشفى .

ذات مرة ذهبت إلى شقة جَدَّتي لإحضار سترة تريد لبسها في المستشفى . كان الغبار يعلو الشقة والهواء فاسداً ولم يعد هناك أي زهور . كان صنبور المطبخ ينقط ومن الشقة المجاورة سمعت المذياع ، وغير ذلك كان ثمة صمت

مطبق . جلستُ هنيهة في متكأ جَدَّتي داخل الغرفة . لعبتْ يـدي بتمثـال القـرود الثلاثة الصغير . أحد القرود كَمَّ فمه ، والآخر كَفَّ بصره والثالث صَمَّ أذنيـه . وُجِدَ ذلك التمثال لدى جَدَّتي بقدر ما أتذكر .

بعد ذلك رأيت الخزانة الصغيرة التي انتصبت تحت الطاولـة قـرب الحـائط. كانت جَدَّتي قد حكت لي كيف درجَ جَدّي على وضع زجاجات بيرة فيها. كانت مشروخة مهترئة لكن جَدَّتي عهدت بها إلي نجار مفروشـات حقيقـي فأصلحـها. تضع الآن فيها صوراً ورسائل قديمة . سحبتُها من مكانها فتركتْ أثراً على أرض الغرفة البلاسـتيك المغبرة المُشَـمَّعَة . مررتُ بيـدي علـى غطـاء الخزانـة فرسـمت أصابعي تموجات على غبار السطح الخشبي ومن ثم فتحت الغطاء.

كان في الخزانة رسائل قديمة وبطاقات بريدية وقصاصات من جرائد. كـانت بضع رسائل تخص مرض جَدّي وموته. كانت دعـوات بالرحمـة إلـى روح جَـدّي وتعازي لجَدَّتي بعد موته . وكان هناك بطاقات بريدية من أبي ومن عمـي أيضـاً. كانت مبعثرة . وثمة صور قديمة لجَدَّتي وجَدّي عندما كانا متزوجين حديثاً.

وفي مصنف من ورق مضغوط يشبه الجلد كانت ثمة صـورة لجَـدّي وجَدَّتـي وعمي ووالد جَدَّتي وأمها وأخوها وأختها. كان مفترضـاً أنـها أُخِـذَتْ خـلال عيد ميلاد والد جَدَّتي . كان والد جَدَّتي يجلس على متكأ جلـدي ومـن حولـه وقف الجميع وقد انتصبت حولهم طاولات عليها زَهريَّات بـورود وعلـى إحداهـا ساعة نفيسة قربها ورقة سُنِدَتْ على زَهريَّة وكُتِبَ عليها : مبروك على ابن السـتين لاغير . ربما كُتِبَ على طرفها الآخر مَنْ هو المُهَنَّئ .

كان الجميع ينظرون إلى آلة التصوير مباشرة ماعدا جَدَّتي وجَدّي - والد أبي - ووالد جَدَّتي . وقف جَدّي ينظر إلى بضعة كتب في المكتبية وهو يضحـك وكأنما صادف في تلك اللحظة أنه فكر في شيء. كـانت جَدَّتـي ووالدهـا ينظـران بعيداً عن عدسة آلة التصوير. كانا يبدوان وكأنهما يحلمان سوية حلماً واحـداً. كان والد جَدَّتي يرتدي لبـاس « الفـراك » وقـد ظـهر عليـه الامتنـان . كـانت جَدَّتي تبدو أكثر جِدِّيَة فلم يتسن لي فهم ما كانت تفكر فيه . بدت بدينة بعض

الشيء ولربما كانت حُبْلى بأبي آنذاك .

عثرتُ عندما كنت في صدد إغلاق الغطاء على صورة مغروزة قرب البطانة إلى جانب المُفَصَّلَة . كانت صورتين في صورة واحدة . الأولى تمثل جَدَّتي وجَدّي في مكان ما في الريف . كان جَدّي يرتدي أكماماً وصدارة وقد أحاط بذراعه كَتِفَيّ جَدَّتي . كان كلاهما ينظران إلى عدسة التصوير. وقفت جَدَّتي مائلة على جَدّي وعلى صدرها نظارتها أحادية العدسة . والصورة على الطرف الآخر تمثل جَدَّتي وأبي على شرفة في مكان ما . كان أبي يرتدي جاكيت « سبور » رمادياً وعلى عنقه « بابيون ». وكانت جَدَّتي ترتدي رداء بقطعتين قاتم اللون وسترة بيضاء يمكن رؤية خيال النظارة الأحادية عليها بوضوح . وكانت تعتمر قبعة يخفي ظل أطرافها نصف وجهها . كانت تضع ذراعها على ذراع أبي . كان الجِدُّ بادياً عليهما وينظران مباشرة إلى آلة التصوير وكأنهما يتساءلان متى يفرغ المُصَوِّرُ .

خبأْتُ الصورة معي وجلست لهنيهة ساكناً في الشقة . كان يتناهى إلى سمعي من الدرج كيف جاء زوار عند إحدى العجائز . فتحتْ بابها وقالت شيئاً لهم . بعد ذلك أغلقوا الباب على أنفسهم وسمعتُ كيف يتحركون في الشقة . تجولتُ في غرفة جَدَّتي أنظر قليلاً . كان كل شيء ساكناً غير مستعملْ وكأنما كل شيء قد نُسِيَ الآن . كانت رائحة البَرَّاد عفنة برغم فراغه . تركت باب البَرَّاد مشرعاً. انتصبت على حافة النافذة أصص زرع فارغة بعدما رُمِيَتْ الشتلات منها. كانت بضعة أوراق نبات يابسة في زاوية النافذة . مشيتُ بعد ذلك حذو المكتبة وتركت أصابعي تنزلق على كعبيات الكتب . بدت كعبية مرجع « الأسرة الاسكندنافية » ناشفة تشَقَّقُ وأبهت لوناً مما كنت أتذكر . انحشرت بضع كتب في أحد المكتبات بعيداً في الظل . سحبتُها إلى حرْفِ المكتبة ثانية. ميزت كعبية الكتاب ذي إشارة الخوذة المُرَيَّشَة القديمة . كانت هذه آخر مرة أزور فيها شقة جَدَّتي لكنني لم أرغب في أخذ شيء ماعدا تلك الصورة . ليس بعد. ليس بعد ، برغم أن كل شيء هناك قد استقر الآن في أغوار النسيان .

قلما قمت بزيارة لجَدَّتي في الشتاء الأخير . لربما كانت الكذباتُ التي أقولها لجَدَّتي قد بدأت تخص ذاتي . كذبتُ على ذاتي متعللاً بأعذار كيلا أزور جَدَّتي في المستشفى . كان هناك دائماً أفلام أحضرها ورفاق أقابلهم أهم من زيارة جَدَّتي . كنت أحس بالحزن عندما أجلس لدى جَدَّتي وليس هناك ما أقوله أو أحكيه لها. الآن لم تعد جَدَّتي تستطيع الكلام تقريباً. كان صوتها خفيفاً مبحوحاً يصْعُبُ فهم ما تقوله . لم تعد تستعمل أسنانها الصناعية ، لذا كان كلامها مُبْهَماً وكثيفاً . كانت قد نحلتْ حتى ليكاد المرء ألا يرى بدنها تحت الدثار . وفي النهاية برز العصفور فيها ، ولكن بعد فوات الأوان إذ العصفور مسن وَهِنٌ لا يقوى على الطيران .

ذات ليلة حلمتُ بجَدَّتي مرة أخرى . كنتُ أزورها في المستشفى . كانت العَتَمَة سائدة في الخارج ، وكأنني كنت هناك في وقت متأخر من الليل . بدا لي كأنما كل المدينة قد نامت ولم يكن في وسعي إلا رؤية صور ظليلة للبيوت على صفحة غيوم أنارها القمر في قبة السماء . كانت سكك المحطة الشيء الوحيد المضاء في المدينة . كان في وسعي رؤيتها في الليل كذكريات بطيئة بيضاء . وقفت أمام النافذة ولم أرغب في الالتفات . كنت هلعاً لأن وجه جَدَّتي سيكون في الغبش أبيض كلياً من ضوء السرير. كنت خائفاً من أن تكون قسمات وجهها وعينيها وفمها وكل وجهها بيضاء . كنت وكأنما خطف بصري وجه جَدَّتي وهي في غرفتها عندما دخلت في الحلم . لقد رأيت وجهها أبيض مثل الأوراق غير المكتوبة قرب سرير الذي مات عليه جَدّي . وقفت قرب النافذة ولم أرغب في الالتفات لأتحقق .

كانت جَدَّتي ، في آخر زياراتي لها ، كأنها لا ترغب إلا في أن تُلْمَسَ. عندما وصلتُ وقلتُ لها من أنا مدَّت يدها بحذر نحوي . رفَعْتُها ليس أكثر من بعض سنتمتر فوق الدثار وتَركْتُها هناك بانتظار أن آخذها . لم تعد الآن ترى شيئاً تقريباً وغدا صوتها ليس أكثر من فحَّات قصيرة . قال الأطباء إنهم يَشُكُّونَ أنها مصابة بسرطان الحلق . لم يكن في استطاعتهم الجزم بذلك . كانت

يداها نحيلتين بيضاوين وكنت أحسب أحياناً أن الشرايين تحت جلدهما تضيء بشعاع أزرق قاتم جداً .

لم أعرف إطلاقاً ما سأقوله عندما كنت في زيارتها. تكاد تكون الآن لاشيء ، كانت شيئاً زائداً . لم أشأ أن أفكر في هذه الطريقة ، لكن الحال كانت على هذا النحو . كنت أعرف أنها تَسْمَعُ وتَفْهَمُ كل ما قلته لها . ولكن وكأنما كل شيء في غرفتها فَقَدَ اللون والتعبير . وكأنما كل كلمات اللغة قد نضبت وكأنما الفرشاة التي جَهِدَتْ أن تطلي غرفتها مَدَّت طلاء أبيض على ورق أبيض. عندما كنت أحاول أن أحكي لها عن شيء حدث في المدرسة أو عن شيء قيل في التلفزيون كنت أعرف أنها كانت تَسْمَعُني وتَفْهَمُني إنما كان هذا في مكان آخر . كانت تريد أن أكون موجوداً فقط ، وأن أحداً سيكون هناك ، وأن أحداً يمسها .

كانت آخر زيارة في نهاية الشتاء ، تماماً عندما يطل الشتاء على الربيع. الآن كان ثمة لاشيء باقياً ، لاشيء للقول ولاشيء للفعل . حتى إنها لم ترفع يدها فوق الدثار قليلاً كي آخذها . قلت لها من أنا وكنت أعرف أنها تفهمني . كادت أن تبتسم ومن ثم دارت نظرتها الضريرة نحو جزء آخر من الغرفة . كانت يداها ترتجف قليلاً ، أدركت أنها تريدني أن ألمسها . نظرتُ بعيداً نحو محطة القطارات . بدت القطارات وكأنها تمشي ببطء فظيع . بدأت الآن العَتَمَةُ بإسدال سُتُرِهَا . لا أعرف ما كنت أنظر إليه هناك ، بعيداً في الخارج. لربما كان الشيء غير الموجود. لربما شيء مثل الزمن ، الزمن الذي لم يكن موجوداً أيضاً .

بعد ذلك نظرتُ إلى جَدَّتي ثانية . كانت ترقد ساكنة كلياً . كنت أريد قول شيء لها . كان شيئاً فظيعاً ، لكنني لم أكن أعرف ما هو بالضبط . كانت ناحلة جداً لدرجة أنها تكاد ألا تكون موجودة بعد. ولو رفعتُ عنها دثارها لكان هناك فراغ ونسيان في السرير لا غير. مددتُ يدي نحو يدها ، لكنني لم أَلْمَسْ جلدها إطلاقاً . حسبتُ لو أنها غفت لتجرأت على لمسها . ولكن

عندما غفت غادرتها لا أكثر . كانت صورتها ومن خلفها سماء الغسق على صفيحة الزجاج آخر ما رأيته منها وأنا أغلق عليها باب غرفتها .

عندما نزلت إلى بهو المستشفى جلستُ على مقعد . كنت وكأنني مرة تلو الأخرى مرغماً على أن أُذَكِّرَ نفسي باسمي . وإلى طاولة في المِقْصَفِ جلس شيخ مسن يطعم زوجته . كانت مشلولة تجلس على كرسي عجزة ذي ظهر عال . كانت تحدق متجاوزة إياه نحو بقعة ضريرة في السقف . كانت بضع أحزمة تُثَبِّتُها منتصبة على كرسي العجزة . لم يقل أي منهما شيئاً . كانت العجوز تتجاوزه ببصرها وكان هو ينظر إليها باهتمام يُلَقِّمُهَا ملعقة تلو الملعقة . فكرت أنني سأحكي لِجَدَّتي عن هذا في المرة القادمة . في المرة القادمة سأقول لها شيئاً مهماً .

ولكن طبعاً كان الأوان قد فات . كنت في ظهر السبت التالي في السينما . طال العرضُ أكثر مما توقعت ورجعتُ إلى البيت متأخراً أكثر مما قدرت . كانت أمي غاضبة لذلك . كنا سنستضيف شخصاً على العشاء وتريدني ألا أتأخر عن الموعد . عندما سألتني أين كنت أجبتها إنني كنت خارج البيت لا غير. لم أشأ أن أقول لها إنني كنت في السينما . كان رأيها أنني ارتدت السينما كثيراً جداً وكان كذلك .

كانت الساعة الآن السادسة ووقفت أمي في المطبخ تُحَضِّرُ الطعام . جلستُ في غرفة الجلوس وقَلَّبْتُ صفحات المجلة . لاحظت وقتئذ إعلاناً صغيراً يخبر أن القمر سيخسف في هذه الليلة . كان مكتوباً أن الخسوف سَيُرى في كل أنحاء السويد . شعرتُ كيف تتسارع خفقات قلبي بين ضلوعي بشدة أكثر. خرجتُ إلى أمي وقلتُ لها إننا مرغمون على زيارة جَدَّتي .

تساءلت مستغربة :

- الآن !

قلت :

- في الحال !

لكن أمي قالت :

- إننا سنستضيف أحداً على العشاء.

قلت :

- في وسعي الذهاب وحدي .

قالت أمي :

- وزيادة على ذلك فإن الساعة الآن السادسة والربع ووقت الزيارات ينتهي في السابعة .

قلت :

- سأصل حسب الموعد ، أستطيع ذلك !

لكن أمي قالت إنها لا تسمح لي . كانت تعني أن باستطاعتنا الذهاب في اليوم التالي . لم أقل لها لماذا سيكون الأوان قد فات . ولما كنا سنتناول العشاء قلت إنني لست بجائع . كانت أمي غاضبة جداً ، ولكنها لم تقل شيئاً إذ إنّ ضيف العشاء قد حضر . وعلى الرغم من ذلك أخذتُ بعض طعام ، لكنني جلست في الداخل أمام التلفزيون وأكلت . قلت إن هناك برنامجاً لا يمكن مطلقاً أن أفوته . قالت أمي إنه سيعاد بالتأكيد ، لكنني قلت إنه لن يُعَادَ. في الحقيقة لم تكن لدي رغبة في الطعام ، لكنني أتيت على الطعام كله بالرغم من ذلك . كاد الظلام أن يكون دامساً في الخارج . بلغني حديث أمي وضيفها عن شيء ، لكنني لم أعرف ما قالاه .

دخلتُ غرفتي بعد العشاء . نظرتُ إلى صورة جَدَّتي وأبي التي أخذتها من الخزانة في شقة جَدَّتي . أودعت الصورة يدي . أكاد ألا أتمكن من رؤيتهما بعد . حسبت لطرفة عين أنهما تحركا. كان وزني لاشيء تقريباً. كانت إحدى يدي ترتجف قليلاً مثل عُشْبَةٍ واحدة فقط ، كعُشْبَةٍ قرب غدير متدفق . بعد ذلك وقفت أمام النافذة ونظرتُ كيف يَتَلَوَّنُ القمر ببطء بلون نحاسي أحمر قاتم.



12

كانت الساعة الثانية عشرة ليلاً عندما هتفوا من المستشفى وقالوا إنه من المحتمل أن تموت جَدَّتي عما قريب . كان ضيف العشاء قد ذهب فأخذنا سيارة نقل عامة إلى المستشفى . كان يسيراً أن أدرك كيف أن أمي أرادت قولَ شيء إليَّ ، ولكنني لا أعتقد أن أحداً منا كان يعرف ما يمكن أن تقوله .

عندما وصلنا كانت ابنة خالتي « مود » التي تعمل ممرضة في المستشفى المجاور موجودة . كانت تقف في الممر والدموع تترقرق في عينيها. قالت إننا وصلنا بعد فوات الأوان . قالت إن جَدَّتي قد توفيت منذ دقائق قليلة . قالت إن جَدَّتي فقأت فقط ثم ماتت . كنت سعيداً أن جَدَّتي لم تكن وحيدة عندما ماتت . تمنيت أن تكون ابنة خالتي قد تجرأت على مسكِ يدها.

بدا لي غريباً أن يكون الصمت يكاد يرين على الجناح . كان الوقت حتماً منتصف الليل ولكن من العادة أن يسمعَ المرءُ دائماً أنّات ونداء عَونٍ من الغرف . حسبت الأمر كذلك في الليالي أيضاً . كان وكأنما كل الجناح يحبس أنفاسه . بعد قليل خرجتْ ممرضتان من غرفة جَدَّتي . قالتا لاشيء . بالكاد نظرتا نحونا . أومأتا برأسيهما لا غير وكأنما تقولان لو أردنا فإنه يمكننا الدخول الآن . وددت لو تمكنت من الدخول وحدي .

كانتا قد رتبتا كل شيء في الغرفة . انتصبت في النافذة شمعة تضيء. كانت جَدَّتي مستلقية في وسط السرير هامدة . كان في وسعي الآن رؤية العصفور فيها كلياً. لكن العصفور كان ميتاً أيضاً. واستلقت جَدَّتي هامدة كلياً. كانت تستلقي على ظهرها وكان جفناها مطبقين . كان فمها بعض فاغر ، ولكن بما أنها لا تتنفس لم أفهم لِمَ هو مفتوح . ما كنت أريد أن تستلقي هامدة بهذا الشكل . لا أعرف ما أردت . أردت ألا تكون جَدَّتي ميتة .

لكنني لم أبكِ . أمي وابنة خالتي بكتا قليلاً ، لكنني لم أبْكِ . لربما لأنني قد بكيت بما يكفي وقت أصاب جَدَّتي نزيف الدماغ، وقت جلستُ إلى البيانو وغَنَّيْتُ تلك الأغنية السخيفة . لا أعرف . تمنيت لو استطعت البكاء قليلاً، لكنني لم أفعل ذلك . نظرت إلى وجه جَدَّتي . بَدَتْ دقيقة جداً . أردت لَمْسَها ، لكنني كنت خائفاً من أن يكون ملمسها بارداً الآن . كنت أخاف أن يسقط رأسها عنها لو لمستها. لم أرغب في أن تتاح الفرصة لشخص أن يلمسها. أردتها أن ترقد بسكون وأن لاشيء يلمسها. مشيت إلى النافذة . كان لا أحد من تساءل . ربما ظنّوا أنني لم أشأ أن يرى أحدٌ أنني بكيتُ . لكنني لم أبكِ . نظرتُ إلى القمر . بدا وكأنه في طريقه للخروج من ظلِّ الأرض الآن . مازال يشع بالنحاس الأحمر قليلاً، لكن هالته كانت أصفى وأفتح . كان في وسعي رؤية صورة جَدَّتي على زجاج النافذة . كانت هامدة . كانت المرضتان قد أفرغتا حوائجها من أدراج السرير ووضعتاها على حافة النافذ ة. كانت نظارتها فوق كل المجلات والكتب وأشياء أخرى . نظرتُ إلى الصورة المنعكسة على زجاج النافذة كيلا تراني أمي أو ابنة خالتي ومن ثم مددت يدي وضممت راحتي على نظارتها. بعثتْ في راحتي شعوراً بارداً وسالت سلسلة الفضة الدقيقة من بين أصابعي متدلية ، لكنني لا أعتقد أن أحداً رآها. وبحذر حشرت النظارة في جيب سترتي .

ونحن نغادر أردت رؤية جَدَّتي للمرة الأخيرة وكأنني وددت الاحتفاظ بصورة أخيرة لها لأتذكرها. أردت أن أكون آخر من رآها. لكنها وكأنما لم تكن

موجودة هناك . وجهها الهادئ وفمـها نصـف الفـاغر وتلـك العينـان الغائرتـان المطبقتان كانت مُلْك ذلك العصفور المسـن . الآن كـان أحـدٌ في الجنـاح يطلـب العون ثانية . نظرت إلى يد جَدَّتي الممدودة على الدثار. أردت أن أُلَوِّحَ لها.

وفي طريقنا إلى البيت ، في سيارة النقـل العامـة ، كنت أعـرف أن أمي تريد قولَ شيء . لربما كانت تريد أن تقول إنـها حزينـة لأننـا لم نذهـب لزيـارة جَدَّتي في وقت مبكر من الليل ، عندما قلت إنني أريد الذهاب إليـها. أو لربمـا أرادت أن تقول إنها حزينة لأن جَدَّتي ماتت . لا أعرف . عندمـا قـالت اسـمي قاطعتها .

قلت :

- لا أعرفْ ، *القمرُ لا يَعْرِفُ* . مثل هذه الأمور لا يدركها إنسان.

كان تشييع جثمان جَدَّتـي منـذ أسبوع . حضـر التشـييع نـاس كثـير . معظمهم ، طبعاً ، كانوا مسنين ، ناس كانت جَدَّتي قد عرفتهم ومازالوا أحيـاء. لكن أحد المساعدين من « بيت الخدمـة » كـان هنـاك أيضـاً. أكـاد أن أكـون الوحيد من عرفه . لَوَّحْتُ له بيدي خفيفاً داخل الكنيسة .

جلستُ بجانب أبنـاء عمـي في المقدمـة داخـل الكنيسـة . كـانت الدمـوع تترقرق في عَيْنَي « مود » وكان « سفن » مطأطئ الرأس طـوال الوقـت تقريبـاً. جلست وفكرت إن كانوا قد شَرَّحُوا جثّة جَدَّتي . كنت قد قلـت لأمـي إنني لا أريدهـم أن يُشَرِّحُوها. لم أشأ أن يلمسها أحدٌ . لكننـي لا أعـرف مـاذا جـرى. لربما كان الأمر سواء .

كانت نظارة جَدَّتي في جيبـي خـلال الدفـن . لَمَسْتُها بأصـابعي أحيانـاً. فكرت أنه من الضروري أن تكون نظارتها معي . لكـن لربمـا هـذا سـواء أيضـاً. هناك أمر آخر مهم حقاً ، لكنني لا أعرف ما هو . وإلا فَلَـدَيَّ النظـارة في درج في طاولة كتابتي . أخرجتها أحياناً في الليـالي الأولـى بعدمـا مـاتت جَدَّتـي . نظرت إليها وتمنيت لو أن كل شيء يبدو مختلفاً. لكنه لم يكن ذلك . بعــد ذلـك مشيتُ إلى النافذة ونظرت إلى القمر بالنظـارة . عندمـا نظـرت إليـه تمنيـتُ لـو

يصبح لونه نحاسياً أحمر. لكن هذا بالطبع لم يكن أكثر من مهزلة . القمر ليس هكذا .

وفجأة خلال الدفن بدأت عجوز تسعل واضطرت إلى الخروج . لا أعرف من كانت ، لكنها كانت قد حَيَّتْني وكأنما أعرفها. بعد ذلك ألقى شخص تلك القصيدة التي كانت تحبها. تلك القصيدة التي تقول "إنّنا سوية في مكان ما دائماً". كان رأيي أنها جميلة . لا أعتقد أنني فهمت كل شيء في القصيدة ، ولكن لابد أن الأمر هكذا : أننا سوية دائماً . يجب أن يكون هكذا . بعد ذلك تحدث قسيس . من المحتمل أنه لم يلتقِ جدتي قط ، وبالتأكيد لم يكن يعرف حتى من هي . فكرت لو أن جَدَّتي تجلس إلى جانبي الآن لتاقتْ نفسها إلى القهوة . عندما كنت أستمع إلى حديث القسيس ، الذي كان ينطبق على أيّ شخص كان ، اضطررت إلى أن أضحك قليلاً لنفسي . فكرت في تلك المَقُولَةِ التي كانت جَدَّتي ترددها دائماً :

- بالتأكيد ، إنه مثل بائع الجملة .

فجأة تذكرت من أين اقتبستْ جدّتي تلك المَقُولَةَ . كانت قد حكت لي أن شركة بيع بالجملة قد احتفلت بعيدها الخامس والعشرين وسيحصل كل الموظفين على هدية خاصة بعيد الميلاد . أعتقد أن اسمها تهنئة بحلول عيد الميلاد . ولكن الشيء الوحيد الذي حصلوا عليه كانت صورة بائع الجملة مؤطرة . وبعد ذلك نظر طفل إلى الصورة وقال تلك الجملة . كانت جَدّتي قد اعتبرتها جملة هازلة مُسِرّة . لم أكن قد أدركت مطلقاً لماذا كانت تعتبرها كذلك ولكنني أعتقد أنني فهمت ذلك الآن . نظرت إلى القسيس الذي مازال يتحدث وقلت سراً :

- حقاً ، إنه مثل بائع الجملة !

بعد ذلك ضحكتُ قليلاً لنفسي . كنت مضطراً إلى أن أتأكد من أن لا أحد حولي رأى أنني ضحكت . كانت أمي تجلس في المقعد خلفي وتبكي . كانت تجلس وقد كَمَّتْ فمها بمنديل والدموع تسيل على خديها. وجلس الكلُّ

مطأطئين يبدو عليهم التجهم. عندئـذ طأطـأت رأسـي أيضـاً. فكـرت بـالقصيدة وبالمَقُولة التي تذكرتها الآن . كـانت أفكـاري في مكـان مـا بينـهما. وكـان ثمّـة إحساس صحيح بشكل ما.

عندما ينتهي الدفن كان علينا ، أنا وأبناء عمـي ، أن نتقـدم الجميـع في الخروج من الكنيسة . وفور ما خرجنا من غرفة المُقَدَّسات تسللتُ إلى المقبرة عـبر باب جانبي. لم يكن قد لحق بي أحد . لا بد أن أحداً قـد أدرك أنني أريـد أن أكون وحدي . كان معظم الثلج قد زال من المقبرة في الطقس البليل ، وكان ثمّـة مطر خفيف معلّقـاً في الـهواء . كـان وكأنمـا المطر لم يسـتطع أن يقـرر إن كـان سيهطل أم سيتابع سيره . حشرت يديّ في جيوب سترتي وتحسسـت نظـارة جَدَّتـي قليلاً. كنت قد أمسكت بها طويلاً في الكنيسة بحيث أنها أصبحت دافئة . كانت السماء رمادية ، رمادية بلا نهاية . لم يكن من السهل تمييز غيمة عن أخرى .

كانت شاهدة قبر جدي وأبي رطبة من المطر . كان دهان اسـم جَـدّي قـد تقشر كلياً الآن . كان اسمه موجوداً على الشاهدة كطيف . كان اسمِ أبي أكـثر وضوحاً. الآن سيكتب اسم جَدَّتـي في الفـراغ بـين اسـميهما. نظـرتُ إلـى القـبر الصغير . لم يكن أكبر من متر مربع . رفعت بصري ونظرت إلى كل المقبرة . كانوا قد وَسَّعُوا المقبرة الآن . لقد انتهى بناء غيطة الذكرى لأولئك الذين ليسـت لـهم قبور خاصة . كانت بضع أحجـار بـلا أسـماء منتصبـة ومقعـد خشـبي أيضـاً. وبعيداً حيث كان ثمّة حقل زراعـي سـابقاً كـانت ثمـة أرتـال قبـور جديـدة . وفي الطرف الآخر ، على التلّ ، كان قبر عمي . كان رأيي أن كل شيء بعيد جداً. كانت المقبرة بلا نهاية وستارة السماء الغائمة الرمادية بلا نهاية والفراغ بين اسـم جدي واسم أبي بلا نهاية .

نظرت إلى الكنيسة الصغيرة . كان الضيـوف الآخريـن قـد خرجـوا إلـى الفسحة الحصوية الآن . وقفوا في جماعات صغيرة يتحدثون بحذر . نظر أحدهـم إلى ذلك الجزء من المقبرة حيث أقف . وفي رذاذ المطر لم أستطع أن أعرف من هو بالضبط . فكرت أن كل شيء في الدنيا مجرد بُعْدٍ . كـل شـيء بعيـد جـداً عـن

الآخر. كل الدنيا بُعْدٌ . أنّ العالم يتكاثر ليس إلا أنّ الأبعاد تصبح أكبر . أنّ الكلَّ يبتعد عن الآخر . عندما شخصت إلى السماء فكّرت أنّ الدثّار المرصوص بغيم رمادي سَوِيّ لم يكن إلا وسيلة لإخفاء كل الأبعاد .

بعد ذلك شرعت في العودة إلى الآخرين . فكرت أنني سعيد لأن أمي قد بكت أثناء التشييع . كان على الكلِّ أن يفعل ذلك . وكان عليّ أن أبكي أيضاً .

مركز الانماء الحضاري CEC
CENTRE - ESSOR ET CIVILISATION
للدراسة والترجمة والنشر

المدير المسؤول :

نادر السباعي

B.P: 6333 - ALEP SYRIE ⌘ 6333 حلب – سورية ص.ب

00963 11 - 332. 50. 50 فاكس 446. 88. 75 هاتف

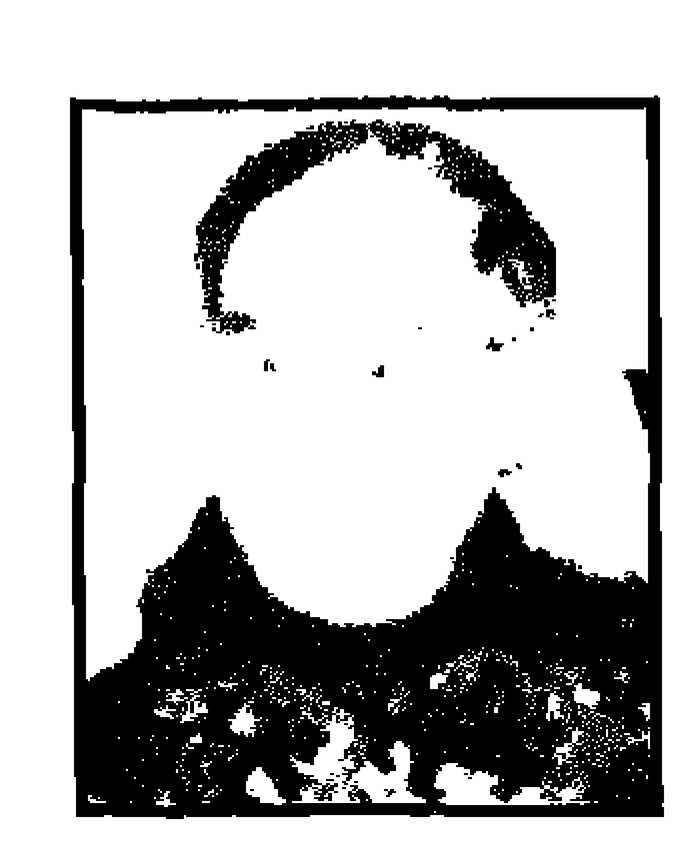
1998/3/457

القمر لا يعرف / نيكلس رودستروم، ترجمة يوسف طبّاخ -
استوكهولم: دار أفنطه، 1999 ـ 170ص، 30 سم.
ردمك: 72032 - 21

1 ـ 7 , 839 س ت ر ق   2 ـ العنوان: القمر لا يعرف
3 ـ رودستروم   4 ـ طبّاخ

مكتبة الأسد الوطنية

يوسف طبّاخ



●- ولِدَ الأديب « يوسف طبّاخ » في « حلب » سنة 1945 .

●- مختصّ بالعلاج النفسي من جامعتي : « استوكهولم » و« يوتا » ، وتلقى تدريباً في عدة عواصم ، منها : « مونتريال ، تكساس ، لندن » .

●- ترجم عن الإنكليزية قصصاً لكل من : مورافيا ، وهمنغواي ، وتشيخوف ، وعن السويدية ثلاثية الروائي « نيكلس رودستروم » ومقتطفات من شعره ، وشعر« نيلس فيرلين » وعدداً من قصص الأطفال ، وأصدر من سلسلة « أبو صوفة » أربعة كتب .

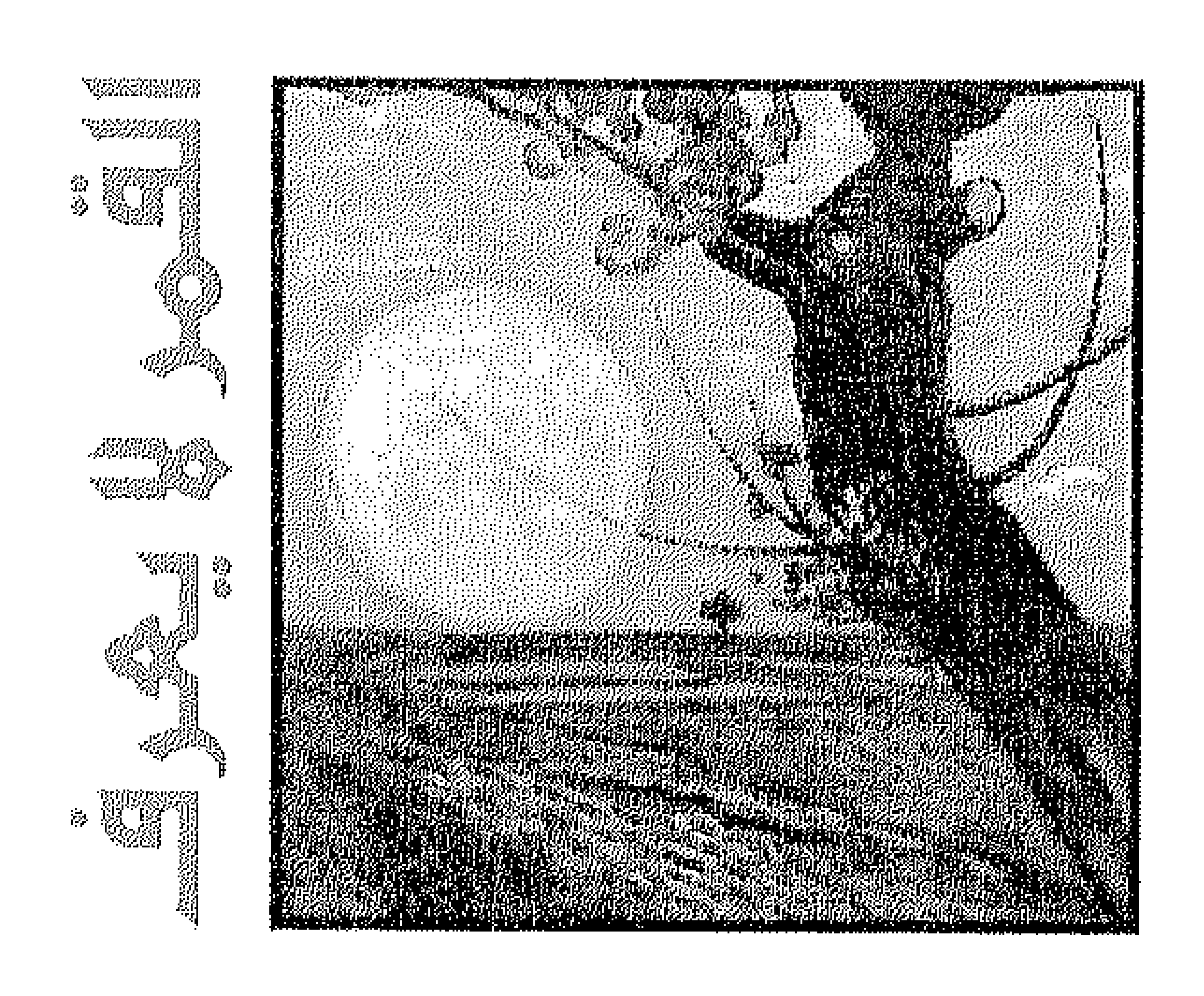
●- يكتب القصّة القصيرة والرواية ، وقد صدر له في هذا المجال الأعمال التالية :

● - « أبو زكسي وكلب السلطان » . رواية .

● - « عناصر المؤامرة ». قصص .

●- وله ثلاثية « استوكهولم » معدّة للطبع : « حكاية هدى ، مقبرة أسرة أندرسون ، نعية عصام » .

القمر لا يعرف



أيّ قمَرٍ هذا الذي يضوّع ضوءه في هذه الرواية ؟!

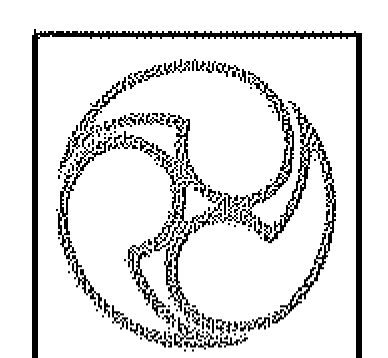
ما الذي يجعله مغايراً لما ألِفْنا من صورٍ للقمر ، كأنّما نكتشف مجرّة جديدة ، لا يشبه قمرها الأقمارَ التي نعرف .

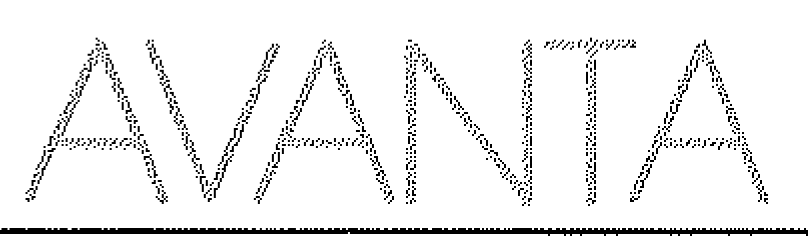
يصوغ الروائي السويدي « **نيكلس رودستروم** » في هذه الرواية عالماً فيّاضاً بالرهيف تماما من قاع الروح ، ويرتدّ بنا إلى سنوات الطفولة الأولى مكوّناً الأشياء بإيقاع سيمفوني يستغور نبضها كما يفعل ذلك بخصائصها الماديّة ، ويستنهض ما تطامن من الذاكرة فينا جميعاً ، ومن مرحلة من أعمارنا تماهي بين تلك الأشياء وذواتنا ، كأنها نحن ، وكأننا هي .

« **القمر لا يعرف** » واحدة من أكثر النتاج الروائي العالمي الذي يحفر حضوره في الذاكرة ، والذي يطوّح بإنجازات هذا النتاج ، ويعيد تشكيلها من جديد عبر بنى وتقنيات سردية حداثية ، تفتت الزمن لتنتج زمنها الخاصّ ، تقول ما يدده الوقت على غفلة منّا ، لكنّها تكنّي عنه ، تهجس بالأجناس الإبداعية جميعها ، لتبدع نصّها المغاير .

نضال الصّالح







NETWORK HUMAN VALIDATION